من الكتب النادرة فى مقارنة الأديان

تنوير الأذهان

فى

الرد على مدعي تحريف القرآن

تأليف

العلامة/محمد زكى الدين سند



دراسة وتحقيق وتعليق

نادى فرج دريش العطار

مركز ابن العط

للتراث

دار جرش

للنشر والتوزيع

من الكتب النادرة في مقارنة الأديان

تنوير الأذهان

في

الرد على مدعي تحريف القرآن

تأليــــف

العلامة/ مُحَمَّد زكِيِّ الدِّين سَنَد

دراسة وتحقيق وتعليق
نادِى فرَج درْويش العطّار
كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر
والدراسات العليا بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

دار جرش للنشر والتوزيع
٢١ش محمد عبده - خلف جامع الأزهر - القاهرة

مركز ابن العطار للتراث
القاهرة - ت: ٠٠٢٢٤٠٥٢٦٠٠

اسم الكتاب: تنوير الأذهان في الرد علي مدعي تحريف القرآن

أسم المؤلف: محمد زكي الدين سند

الإشراف العام: د. نادي فرج درويش

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٦٢٠ / ٢٠١٠

سنة الطبع: ٢٠١٠

الطبعة : الأولي

الناشر: دار جرش للنشر والتوزيع – مركز ابن العطار للتراث

الطبعة الأولى
٢٠١٠

دار جرش للنشر والتوزيع
٢١ ش الإمام محمد عبده - القاهرة

موبايل: ٠١٠٣٧١٥٧١٤

ألف أحد القساوسة كتابًا اسمه «البرهان الجليل في صحة التوراة والإنجيل» ادعى فيه أن القرآن محرَّف. وقد رد عليه العلامة الشيخ محمد زكي الدين سند في هذا الكتاب. وقد طبع أول مرة في مصر في مطبعة المحروسة سنة 1313هـ على هامش كتاب «السيف الحميدي الصقيل» للعلامة الشيخ التميمي الداري النابلسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الأول والآخر والظاهر والباطن، القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد/ 24]. والقائل: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة/ 269].

والصلاة والسلام على النور الساطع والبرق اللامع، منبع الفيض الإلهي ومقبس نوره البهي، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، حق قدره ومقداره العظيم، القائل: «بلغوا عني ولو آية، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع».

وبعد:

فإن القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فالقرآن الكريم كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، مَن قال به صدق، ومَن حَكَم عدل، ومَن عمل به أجر، ومَن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وإنَّ تدبُّر آيات الله في كتابه من أعظم العبادات، وأشرف الأعمال والطاعات. وقد أنزل الله كتابه الكريم لنتدبَّر آياته، لا لنعرض عنه ونهجره، وبعد التدبُّر والفهم يكون التأثر والعمل بموجب العلم.

وتدبُّر القرآن أوْلى وأوَّل ما يُشمِّر له أصحاب الهمم العالية، إذ هو مفتاح سائر علوم الإسلام(١).

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله: «فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته»(٢).

وإن العبد إذا تعلق قلبه بكتاب ربه فتيقن أن نجاحه ونجاته وسعادته وقوته في قراءته وتدبره، تكون هذه البداية للانطلاق في مراقي النجاح وسلم الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله على قلبه، وكلام الله غير مخلوق، ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة»(٣).

هذا وقد قال القرآن الكريم عن اليهود: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت/ 26]. وقد تحقق هذا القول؛ فإن اليهود دخلوا في الإسلام نفاقًا، وابتدعوا كلامًا، وقالوا: إن النبي قد قاله، وإن أصحابه قد سمعوه وبلغوه... إلخ. والنبي ﷺ لم يقل وأصحابه لم يسمعوا ما نسبوه إليهم ولم يبلغوه.

---

(١) المعين على تدبر الكتاب المبين أ/ مجد بن أحمد مكي ص 3، دار نور المكتبات/ جدة، 1427هـ.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية 1/ 475، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي/ بيروت، 1399هـ/ 1979م.

(٣) مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة د/ خالد بن عبد الكريم اللاحم ص 7، بحث منشور على شبكة الإنترنت:
http://www.saaid.net/book/open.php?cat=٩٨&book=١٢٦٢

ومن هذا الذي نسبوه إلى النبي ﷺ قوله بأنه سمح للمسلمين بأن يقرءوا القرآن كيف شاءوا ما لم يخلطوا آية رحمة بآية عذاب.

ونسبوا إلى الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قرءوا القرآن كيف شاءوا؛ فمثلًا: آية ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات/ 6] قيل إن بعض الصحابة قرأها: «فتثبتوا». وآية: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ [الليل/ 3] قيل إن بعض الصحابة قرأها: «والذكر والأنثى» بحذف ﴿ وَمَا خَلَقَ ﴾ ومثل هذا كثير.

ويهدفون من ورائه إلى إثبات أن القرآن وقع فيه تحريف باللفظ والمعنى. وإذا وقع فيه تحريف، فإن الناس لا يجب عليهم الدخول في الدين الإسلامي؛ لأن كتابه لم يصر إلهيًّا إن قلنا إنه كان إلهيًّا.

ونقول لهؤلاء السفهاء من الناس: هذا الذي وضعتموه خلسةً في الكتب مروي بطريق الآحاد أم هو مروي بطريق التواتر؟

فهو ليس بطريق التواتر؛ وذلك لأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يقرءون القرآن من مصحف واحد، وآية ذلك: أن المصاحف المتداولة في مصر هي نفسها المتداولة في جميع البلاد بين السنة والشيعة على حد سواء. والقراء في الراديو والتليفزيون في جميع البلاد يقرءون من هذا المصحف. وفي البلاد الإسلامية التي تعتنق المذهب الشيعي هذا المصحف.

وهذا يدل على أن المستور في الكتب مما يقال فيه: إنه قرآن يقرأ بالروايات عن القراء الأول، ليس من القرآن في شيء، وإنما هي روايات قد ألفها علماء اليهود وبثوها في الكتب، لا أكثر ولا أقل.

والسبب في أن اليهود قد فعلوا هذا: هو أنهم بالسيوف حاربوا المسلمين في زمان رسول الله ﷺ ومن بعد زمانه؛ ليمنعوا المسلمين من أخذ بلادهم. ولما لم يقووا على

المسلمين في الحروب، رأوا أن يفسدوا دينهم بالحيلة، ليصدوا الناس عن القرآن. فلذلك كتبوا ما كتبوه عن تغيير ألفاظ في القرآن كما فعلوا فيما تركه المسيح عليه السلام من أمور الدين.

وقد تفطن علماء المسلمين من السنة والشيعة إلى مرويات اليهود في اللغو في القرآن، ونبهوا عليها، وصرحوا بأنها روايات زائفة.

وهذا كلام للإمام الخوئي من كتابه «البيان في تفسير القرآن»[1] يذكر فيه شبهات القائلين بالتحريف ويرد عليها. قال ما نصه:

وهنا شبهات يتشبث بها القائلون بالتحريف، لا بد لنا من التعرُّض لها ودفعها واحدةً واحدةً:

الشبهة الأولى

أن التحريف قد وقع في التوراة والإنجيل، وقد ورد في الروايات المتواترة من طريقي الشيعة والسنة: أن كل ما وقع في الأمم السابقة، لا بد وأن يقع مثلُه في هذه الأمة. فمنها ما رواه الصدوق في «الإكمال» عن غياث بن إبراهيم عن الصادق عن آبائه عليهم السلام: قال رسول الله ﷺ: «كان ما كان في الأمم السالفة، فإنه يكون في هذه الأمة مثله، حذو النعل بالنعل، والقُذَّة بالقُذَّة»[2].

ونتيجة ذلك: فإن التحريف لا بد من وقوعه في القرآن، وإلا لم يصح معنى هذه الأحاديث.

---

(١) منشور بدار الزهراء، لبنان، الطبعة الرابعة، 1975م، الجزء الأول.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي، باب افتراق الأمة بعد النبي على ثلاث وسبعين فرقة، 8/ 4.

والجواب عن ذلك:

أولا: أن الروايات المشار إليها أخبار آحاد لا تفيد علمًا ولا عملًا، ودعوى التواتر فيها جزافية لا دليل عليها، ولم يذكر من هذه الروايات شيء في الكتب الأربعة[١]، ولذلك فلا ملازمة بين وقوع التحريف في التوراة ووقوعه في القرآن.

ثانيا: أن هذا الدليل لو تَمَّ، لكان دالًّا على وقوع الزيادة في القرآن أيضًا، كما وقعت في التوراة والإنجيل، ومن الواضح بطلانُ ذلك.

ثالثا: أن كثيرًا من الوقائع التي حدثت في الأمم السابقة لم يصدر مثلُها في هذه الأمة، كعبادة العجل، وتيه بني إسرائيل أربعين سنة، وغرق فرعون وأصحابه، وملك سليمان للإنس والجن، ورفع عيسى إلى السماء، وموت هارون وهو وصي موسى قبل موت موسى نفسه، وإتيان موسى بتسع آيات بينات، وولادة عيسى من غير أب، ومسخ كثير من السابقين قردةً وخنازيرَ، وغير ذلك مما لا يسعُنا إحصاؤه، وهذا أدل دليل على عدم إرادة الظاهر من تلك الروايات، فلا بد من إرادة المشابهة في بعض الوجوه.

وعلى ذلك فيكفي في وقوع التحريف في هذه الأمة عدم اتباعهم لحدود القرآن، وإن أقاموا حروفه كما في الرواية التي تقدمت في صدر البحث.

---

(١) الكتب الأربعة المشار إليها هي كتب الحديث النبوي المعتبرة عند الشيعة؛ وهي:

1- الكافي للكُلَيْني (ت329 هـ).

2- من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ت381 هـ).

3- تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي (ت460 هـ).

4- الاستبصار فيما اختلف الأخبار للشيخ الطوسي أيضًا.

ويؤكد ذلك ما رواه أبو واقد الليثي أن رسول ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها «ذات أنواط»، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»[١]. فإن هذه الرواية صريحة في أن الذي يقع في هذه الأمة شبيه بما وقع في تلك الأمم من بعض الوجوه.

رابعًا: لو سُلِّم تواترُ هذه الروايات في السند وصحتُها في الدلالة، لما ثبت بها أن التحريف قد وقع فيما مضى من الزمن، فلعله يقع في المستقبل زيادة ونقيصة، والذي يظهر من رواية البخاري تحديده بقيام الساعة، فكيف يُستدل بذلك على وقوع التحريف في صدر الإسلام، وفي زمن الخلفاء.

الشبهة الثانية

إن عليًّا عليه السلام كان له مصحف غير المصحف الموجود، وقد أتى به إلى القوم فلم يقبلوا منه، وأن مصحفه كان مشتملًا على أبعاض ليست موجودة في القرآن الذي بأيدينا.

ويترتب على ذلك نقص القرآن الموجود عن مصحف أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهذا هو التحريف الذي وقع الكلام فيه، والروايات الدالة على ذلك كثيرة.

منها: ما في رواية احتجاج علي عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أنه قال: يا طلحة، إن كل آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ عندي بإملاء رسول الله ﷺ وخط

---

(١) سنن الترمذي (كتاب: الفتن عن رسول الله/ باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم/ رقم الحديث: 2180).

يدي، وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ وكل حلال أو حرام أو حد أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله ﷺ وخط يدي، حتى أرش الخدش..»[١].

ومنها: ما في احتجاجه عليه السلام على الزنديق من أنه أتى بالكتاب كاملًا مشتملًا على التأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، لم يسقط منه حرف ألف ولا لام فلم يقبلوا ذلك[٢].

ومنها: ما رواه في الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما يستطيع أحد أن يدعيَ أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء[٣].

وبإسناده عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ما ادعى أحد من الناس أن جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده عليهم السلام[٤].

والجواب على ذلك:

أن وجود مصحف لأمير المؤمنين عليه السلام يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور مما لا ينبغي الشك فيه، وتسالم العلماء الأعلام على وجوه أغنانا عن التكليف لإثباته، كما أن اشتمال قرآنه عليه السلام على زيادات ليست في القرآن الموجود، وإن كان صحيحًا إلا أنه لا دلالة في ذلك على أن هذه الزيادات كانت من القرآن، وقد أسقطت منه بالتحريف، بل الصحيح أن تلك الزيادات كانت تفسيرًا بعنوان التأويل، وأن هذه

---

(١) مقدمة تفسير البرهان ص 27. وفي هذه الرواية تصريح بأن ما في القرآن الموجود كله قرآن.

(٢) تفسير الصافي المقدمة السادسة ص 11.

(٣) الوافي، كتاب الحجة، باب 76، 2/ 130.

(٤) المصدر السابق.

الشبهة مبتنية على أن يراد من لفظي «التأويل، والتنزيل» ما اصطلح عليه المتأخرون من إطلاق لفظ «التنزيل» على ما نزل قرآنًا على بيان المراد من اللفظ، حملًا له على خلاف ظاهره، إلا أن هذين الأمرين الإطلاقيين من الاصطلاحات المحدثة، وليس لهما في اللغة عين ولا أثر ليحمل عليهما هذان اللفظان التنزيل والتأويل متى وردا في الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام.

وإنما التأويل في اللغة مصدر مزيد فيه، وأصله الأول بمعنى الرجوع، أو الحكم إلى أهله أي رده إليهم، وقد يستعمل التأويل ويراد منه العاقبة، وما يئول إليه الأمر، وعلى ذلك جرت الآيات الكريمة: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف/ 6] ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ [يوسف/ 36] ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ ﴾ [يوسف/ 100] ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف/ 82].

وغير ذلك من موارد استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم، وعلى ذلك فالمراد بتأويل القرآن ما يرجع إليه الكلام، وما هو عاقبته، سواء أكان ذلك ظاهرًا يفهمه العراف باللغة العربية، أم كان خفيًّا لا يعرفه إلا الراسخون في العلم.

وأما التنزيل فهو أيضًا مصدر مزيد فيه، وأصله النزول وقد يستعمل ويراد به ما نزل، ومن هذا القبيل إطلاقه على القرآن في آيات كثيرة؛منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة/ 77-80] .

وعلى ما ذكرناه فليس كل ما نزل من الله وحيًا يلزم أن يكون من القرآن، فالذي يُستفاد من الروايات في هذا المقام أن مصحف علي عليه السلام كان مشتملا على زيادات تنزيلًا أو تأويلًا. ولا دالة في شيء من هذه الروايات على أن تلك الزيادات هي من القرآن.

وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذكر أسماء المنافقين في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام فإن ذكر أسمائهم لا بد وأن يكون بعنوان التفسير.

ويدل على ذلك ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم سقوط شيء من القرآن، أضف إلى ذلك أن سيرة النبي صلى الله عليه وآله مع المنافقين تأبى ذلك؛ فإن دأبه صلى الله عليه وآله تأليف قلوبهم، والإسرار بما يعلمه من نفاقهم، وهذا واضح فمن له أدنى اطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وآله وحسن أخلاقه، فكيف يمكن أن يذكر أسماءهم في القرآن ويأمرهم بلعن أنفسهم، ويأمر سائر المسلمين بذلك ويحثهم عليه ليلًا ونهارًا، وهل يحتمل ذلك حتى ينظر في صحته وفساده أو يتمسك في إثباته بما في بعض الروايات من وجود أسماء جملة من المنافقين في مصحف علي عليه السلام، وهل يقاس ذلك بذكر أبي لهب المعلن بشركه ومعاداته للنبي صلى الله عليه وآله مع علم النبي بأنه يموت على شركه. نعم لا بعد في ذكر النبي صلى الله عليه وآله أسماء المنافقين لبعض خواصه كأمير المؤمنين عليه السلام وغيره في مجالسه الخاصة.

وحاصل ما تقدم: أن وجود الزيادات في مصحف علي عليه السلام وإن كان صحيحًا، إلا أن هذه الزيادات ليست من القرآن، ومما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بتبليغه إلى الأمة، فإن الالتزام بزيادة مصحفه بهذا النوع من الزيادة قول بلا دليل، مضافًا إلى أنه باطل قطعًا، ويدل على بطلانه جميع ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم التحريف في القرآن.

الشبهة الثالثة

أن الروايات المتواترة عن أهل البيت قد دلت على تحريف القرآن، فلا بد من القول به.

والجواب:

أن هذه الروايات لا دلالة فيها على وقوع التحريف في القرآن بالمعنى المتنازع فيه، وتوضيح ذلك:

أن كثيرًا من الروايات، وإن كانت ضعيفة السند، فإن جملة منها نقلت من كتاب أحمد بن محمد السياري، الذي اتفق علماء الرجال على فساد مذهبه، وأنه يقول بالتناسخ، ومن علي بن أحمد الكوفي الذي ذكر علماء الرجال أنه كذاب، وأنه فاسد المذهب، إلا أن كثرة الروايات تورث القطع بصدور بعضها عن المعصومين عليهم السلام، ولا أقل من الاطمئنان بذلك، وفيها ما روي بطريق معتبر، فلا حاجة بنا إلى الكلام في سند كل رواية بخصوصها.

عرض روايات التحريف:

علينا أن نبحث عن مداليل هذه الروايات، وإيضاح أنها ليست متحدة في المفاد، وأنها على طوائف، فلا بد لنا من شرح ذلك والكلام على كل طائفة بخصوصها.

الطائفة الأولى:

هي الروايات التي دلت على التحريف بعنوانه، وأنها تبلغ عشرين رواية، نذكر جملة منها ونترك ما هو بمضمونها، وهي:

1- ما عن علي بن إبراهيم القمي، بإسناده عن أبي ذر، قال: لما نزلت هذه الآية يوم: ﴿ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران/ 106] قال رسول الله ﷺ: «ترد أمتي عليَّ يوم القيامة على خمس رايات». ثم ذكر أن رسول اله ﷺ يسأل الرايات عما فعلوا بالثقلين، فتقول الراية الأولى: أما الأكبر فحرقناه، ونبذناه وراء ظهورنا، وأما الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه. وتقول الراية الثانية: أما الأكبر فحرقناه ومزقناه وخالفناه، وأما الأصغر فعاديناه وقاتلناه.

2- ما عن ابن طاوس والسيد المحدث الجزائري، بإسنادهما عن الحسن بن الحسن السامري في حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لحذيفة فيما قاله فيمن يهتك الحرم: «إنه يضل الناس عن سبيل الله، ويحرف كتابه ويغير سنتي».

3- ما عن سعد بن عبد الله القمي، بإسناده عن جابر الجُعْفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: دعا رسول الله ﷺ بمنى فقال: «أيها الناس، إني تارك فيكم الثقلين، أما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي، والكعبة البيت الحرام». ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما كتاب الله فحرفوا، وأما الكعبة فهدوا، وأما العترة فقتلوا، وكل ودائع الله قد نبذوا ومنها قد تبرءوا.

4- ما عن الصدوق في الخصال بإسناده عن جابر عن النبي قال: «يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون: المصحف والمسجد والعترة. يقول المصحف: يا رب، حرفوني ومزقوني. ويقول المسجد: يا رب، عطلوني وضيعوني. وتقول العترة: يا رب، قتلونا وطردونا وشردونا.

5- ما عن الكافي والصدوق، بإسنادهما عن علي بن سُويد. قال: كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتابًا إلى أن ذكر جوابه بتمامه، وفيه قوله: «اؤتمنوا كتاب الله، فحرفوه وبدلوه».

6- ما عن ابن شهراشوب، بإسناده عن عبد الله في خطبة أبي عبد الله الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، وفيها: «إنما أنتم من طواغيت الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومحرفي الكتاب».

7- ما عن كامل الزيارات، بإسناده عن الحسن بن عطية عن أبي عبد الله قال: «إذا دخلت الحائر فقل: اللهم العن الذين كذّبوا رسلك، وهدموا كعبتك، وحرَّفوا كتابك».

8- ما عن الحجال عن قطبة بن ميمون عن عبد الأعلى. قال: قال أبو عبد الله: «أصحاب العربية يحرفون كلام الله ﷻ عن مواضعه».

المفهوم الحقيقي للروايات:

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة: أن الظاهر من الرواية الأخيرة تفسير التحريف باختلاف القراء، وإعمال اجتهاداتهم في القراءات.

ومرجع ذلك الاختلاف في كيفية القراءة مع التحفظ على جوهر القرآن وأصله وقد أوضحنا للقارئ في صدر المبحث أن التحريف، بناء على تواتر القراءات السبع، بل ولا ريب في وقوع هذا التحريف، بناء على تواتر القراءات السبع أيضًا، فإن القراءات كثيرة وهي مبتنية على اجتهادات ظنية تُوجب تغيير كيفية القراء، فهذه الرواية لا مساس لها بمراد المستدل.

وأما بقية الروايات، فهي ظاهرة في الدلالة على أن المراد بالتحريف حمل الآيات على غير معانيها، الذي يلازم إنكار فضل أهل البيت عليهم السلام ونصب العداوة لهم وقتالهم، ويشهد لذلك صريحًا نسبة التحريف إلى مقاتلي أبي عبد الله عليه السلام في الخطبة المتقدمة.

ورواية الكافي التي تقدمت في صدر البحث، فإن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيها: «وكان من نبذهم الكتاب أنهم أقاموا حروه، وحرفوا حدوده».

وقد ذكرنا أن التحريف بهذا المعنى واقع قطعًا، وهو خارج عن محل النزاع، ولولا هذا التحريف لم تزل حقوق العترة محفوظة، وحرمة النبي فيهم مرعية، ولما انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه من اهتضام حقوقهم وإيذاء النبي صلى الله عليه وآله فيهم.

الطائفة الثانية:

هي الروايات التي دلت على أن بعض الآيات المنزلة من القرآن قد ذكرت فيها أسماء الأئمة عليهم السلام وهي كثيرة:

منها: ما ورد من ذكر أسماء الأئمة عليهم السلام في القرآن، كرواية الكافي بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن قال: ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام

مكتوبة في جميع صحف الأنبياء: «ولن يبعث الله رسولًا إلا بنبوة محمد وولاية وصيه، صلى الله عليهما وآلهما».

ومنها: رواية العياشي بإسناده عن الصادق عليه السلام: «لو قرئ القرآن كما أنزل، لألفينا مُسَمَّيْنَ».

ومنها: رواية الكافي وتفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام وكنز الفوائد بأسانيد عديدة عن ابن عباس، وتفسير فرات بن إبراهيم الكوفي بأسانيد متعددة أيضًا، عن الأصبغ بن نباتة، قالوا: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «القرآن نزل على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في عدونا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام، ولنا كرائم القرآن».

ومنها: رواية الكافي أيضًا بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: «نزل جبرئيل بهذه الآية على محمد صلى الله عليه وآله هكذا: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا في علي، فأتوا بسورة من مثله».

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة:

أنا قد أوضحنا فيما تقدم أن بعض التنزيل كان من قبيل التفسير للقرآن، وليس من القرآن نفسه، فلا بد من حمل هذه الروايات على أن ذكر أسماء الأئمة في التنزيل من هذا القبيل، وإذا لم يتم هذا الحمل، فلا بد من طرح هذه الروايات لمخالفتها للكتاب والسنة والأدلة المتقدمة على نفي التحريف، وقد دلت الأخبار المتواترة على وجوب عرض الروايات على الكتاب والسنة، وأن ما خالف الكتاب منها يجب طرحه وضربه على الجدار.

ومما يدل على أن اسم أمير المؤمنين عليه السلام لم يذكر صريحًا في القرآن حديث الغدير، فإنه صريح في أن النبي صلى الله عليه وآله إنما نصب عليًّا بأمر الله، وبعد أن ورد عليه التأكيد في ذلك، وبعد أن وعده الله بالعصمة من الناس، ولو كان اسم علي عليه السلام مذكورًا في

القرآن لم يحتج إلى ذلك النصب، ولا إلى تهيئة ذلك الاجتماع الحافل بالمسلمين، ولما خشي رسول الله ﷺ من إظهار ذلك ليحتاج إلى التأكيد في أمر التبليغ.

وعلى الجملة فصحة حديث الغدير توجب الحكم بكذب هذه الروايات التي تقول: إن أسماء الأئمة مذكورة في القرآن ولا سيما أن حديث الغدير كان في حجة الوداع التي وقعت في أواخر حياة النبي ﷺ ونزول عامة القرآن، وشيوعه بين المسلمين، على أن الرواية الأخيرة المروية في الكافي مما لا يحتمل صدقه في نفسه، فإن ذكر اسم علي عليه السلام في مقام إثبات النبوة والتحدي على الإتيان بمثل القرآن لا يناسب مقتضى الحال.

ويعارض جميع هذه الروايات صحيحة أبي بصير المروية في الكافي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء/ 59]. قال: فقال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام. فقلت: إن الناس يقولون: فما له لم يُسَمِّ عليًا وأهل بيته في كتاب الله. قال عليه السلام: فقولوا لهم: إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثًا ولا أربعًا، حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فَسَّرَ لهم ذلك(١).

فتكون هذه الصحيحة حاكمة على جميع تلك الروايات، وموضحة للمراد منها، وأن ذكر اسم أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الروايات قد كان بعنوان التفسير، أو بعنوان التنزيل، مع عدم الأمر بالتبليغ.

ويضاف إلى ذلك أن المتخلفين عن بيعة أبي بكر، لم يحتجوا بذكر اسم علي في القرآن. ولو كان له ذكر في الكتاب لكان ذلك أبلغ في الحجة، ولا سيما أن جمع القرآن

---

(١) الوافي 2/ 63 باب 30 ما نص الله ورسوله عليهم ص 63.

-بزعم المستدل- كان بعد تمامية أمر الخلافة بزمان غير يسير، فهذا من الأدلة الواضحة على عدم ذكره في الآيات.

الطائفة الثالثة:

هي الروايات التي دلت على وقوع التحريف في القرآن بالزيادة والنقصان، وأن الأئمة بعد النبي ﷺ غيَّرت بعض الكلمات وجعلت مكانها كلمات أخرى.

فمنها: ما رواه علي بن إبراهيم القمي، بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام: «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين».

ومنها: ما عن العياشي، عن هشام بن سالم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران/ 33]. قال: «هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين، فوضعوا اسمًا مكان اسمٍ، أي أنهم غيرا فجعلوا مكان آل محمد آل عمران».

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة بعد الإغضاء عما في سندها من الضعف:

أنها مخالفة للكتاب والسنة ولإجماع المسلمين على عدم الزيادة في القرآن ولا حرفًا واحدًا حتى من القائلين بالتحريف. وقد ادعى الإجماع جماعة كثيرون على عدم الزيادة في القرآن، وأن مجموع ما بين الدفتين كله من القرآن.

وممن ادعى الإجماع الشيخ المفيد والشيخ الطوسي والشيخ البهائي وغيرهم من الأعاظم قدس الله أسرارهم، وقد تقدمت رواية الاحتجاج الدالة على عدم الزيادة في القرآن.

الطائفة الرابعة:

هي الروايات التي دلت على التحريف في القرآن بالنقيصة فقط.

والجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة:

أنه لا بد من حملها على ما تقدم في معنى الزيادات في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام وإن لم يمكن ذلك الحمل في جملة منها، فلا بد من طرحها؛ لأنها مخالفة للكتاب والسنة، وقد ذكرنا لها في مجلس بحثنا توجيهًا آخر أعرضنا عن ذكره هنا حذرًا من الإطالة، ولعله أقرب المحامل، ونشير إليه في نحل آخر إن شاء الله تعالى.

على أن أكثر هذه الروايات بل كثيرها ضعيفة السند، وبعضها لا يحتمل صدقه في نفسه، وقد صرح جماعة من الأعلام بلزوم تأويل هذه الروايات أو لزوم طرحها.

وممن صرح بذلك المحقق الكلباسي حيث قال على ما حُكي عنه: «إن الروايات الدالة على التحريف مخالفة لإجماع الأمة إلا من لا اعتداد به». وقال: «إن نقصان الكتاب مما لا أصل له، وإلا لاشتهر وتواتر؛ نظرًا إلى العادة في الحوادث العظيمة، وهذا منها بل أعظمها».

وعن المحقق البغدادي شارح «الوافية» التصريح بذلك، ونقله عن المحقق الكركي الذي صنف في ذلك رسالة مستقلة، وذكر فيها: «إن ما دَلَّ من الروايات على النقيصة لا بد من تأويلها أو طرحها، فإن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة والإجماع ولم يمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه وجب طرحه».

أقول: أشار المحقق الكركي بكلامه هذا إلى ما أشرنا إليه سابقًا من أن الروايات المتواترة قد دَلَّتْ على أن الروايات إذا خالفت القرآن، لا بد من طرحها.

فمن الروايات:

ما رواه الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بسنده الصحيح عن الصادق عليه السلام: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، إن على كل حق

حقيقة، وعلى كل صواب نورًا، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[١].

وما رواه الشيخ الجليل سعيد بن هبة الله القطب الراوندي بسنده الصحيح إلى الصادق عليه السلام: «إذا ورد عليكم حديثان مختلفان، فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فردوه»[٢]. انتهى بنصه.

---

(١) الوسائل، كتاب القضاء، باب وجوه الجمع بين الأحاديث المختلفة وكيفية العمل، 3/ 380.

(٢) المصدر السابق.

تحريف القرآن بين أهل السنة والشيعة

بعدما فرق اليهود المسلمين بالأحاديث النبوية التي ابتدعوها، وجعلوهم طائفتين: سنة وشيعة.

قال المنافقون منهم للشيعة: إن أهل السنة يعترفون بتحريف القرآن، وقالوا لأهل السنة: إن أهل الشيعة يعترفون بتحريف القرآن. وكل طائفة ألصقت التهمة بالطائفة الأخرى، حتى أنك إذا جلست مع الشيعة أو قرأت كتب الأحاديث الموثقة عند أهل السنة -وهي البخاري ومسلم والنسائي...إلخ-، تجد التصريح بإثبات التحريف، ونفس الحال في كتب الأحاديث الشيعية.

ويقول الشيعة في موضوع التحريف:

1- إن مصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يغاير المصحف الموجود مع أهل السنة في ترتيب السور.

2- وإن الزيادات التي هي في مصحف علي عليه السلام ليست من القرآن، وإنما كانت تفسيرًا[1].

3- وإنه تجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام.

التعليق:

لقد اعترفوا بمصحف للإمام علي رضي الله عنه، واعرفوا بأن الزيادات كلمات تفسيرية وضعها القارئ في هامش الصفحة، واعترفوا بجواز القراءة بغير ما في المصحف السني بشرط أن تكون مروية عن أهل البيت. وهذا كله يكفي في اعترافهم بالتحريف، فلماذا ينكرونه؟

---

(١) وهذا مأخوذ من قول اليهود في شأن التوراة. راجع كتاب: اللاهوت والسياسة لاسبينوزا.

فالإمام الخوئي يقول تحت عنوان: «جواز القراءة بها في الصلاة» ما نصه: «وصفوة القول أن تجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام». اهـ.

حجية القراءات

ويقول الإمام الخوئي في كتابه المذكور ما نصه(١):

ذهب جماعة إلى حجية هذه القراءات، فيجوزوا أن يستدل بها على الحكم الشرعي، كما استدل على حرمة وطء الحائض بعد نقائها من الحيض وقبل أن تغتسل، بقراءة الكوفيين -غير حفص- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ ﴾ [البقرة/ 222] بالتشديد.

الجواب:

ولكن الحق عدم حجية هذه القراءات، فلا يُستدل بها على الحكم الشرعي، والدليل على ذلك أن كل واحد من هؤلاء القراء يحتمل فيه الغلط والاشتباه، ولم يرد دليل من العقل ولا من الشرع على وجوب اتباع قارئ منهم بالخصوص، وقد استقل العقل وحكم الشرع بالمنع عن اتباع غير العلم. وسيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى.

ولعل أحدًا يحاول أن يقول: إن القراءات -وإن لم تكن متواترة- إلا أنها منقولة عن النبي ﷺ فتشملها الأدلة القطعية التي أثبتت حجية الخبر الواحد، وإذا شملتها هذه الأدلة القطعية خرج الاستناد إليها عن العمل بالظن بالورود أو الحكومة أو التخصيص.

---

(١) ص 164 وما بعدها.

الجواب:

أولا: أن القراءات لم يتضح كونها روايةً لتشملها هذه الأدلة، فلعلها اجتهادات من القراء، ويؤيد هذا الاحتمال ما تقدم من تصريح بعض الأعلام بذلك، بل إذا لاحظنا السبب الذي من أجله اختلف القراء في قراءاتهم -وهو خلو المصاحف المرسلة إلى الجهات من النقط والشكل- يقوى هذا الاحتمال جدًّا.

قال ابن أبي هاشم: «إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها: أن الجهات التي وُجِّهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل». قال: «فثبَّت أهلُ كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعًا عن الصحابة، بشرط موافقة الخط، وتركوا ما يخالف الخط... فمن ثَمَّ نشأ الاختلافُ بين قراء الأمصار»[(١)].

وقال الزرقاني: «كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله؛ مبالغة منهم في المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف، وخوفًا من أن يؤدي ذلك إلى التغيير فيه... ولكن الزمان تغير -كما علمت- فاضطر المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله لنفس ذلك السبب، أي: للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف، وخوفًا من أن يؤديَ تجردُه من النقط والشكل إلى التغير فيه»[(٢)].

ثانيا: أن رواة كل قراءة من هذه القراءات لم تثبت وثاقتهم أجمع، فلا تشمل أدلة حجية خبر الثقة روايتهم، ويظهر ذلك مما قدمناه في ترجمة أحوال القراء ورواتهم.

ثالثا: أنا لو سلمنا أن القراءات كلها تستند إلى الرواية، وأن جميع رواتها ثقات، إلا أنا نعلم علمًا إجماليًّا أن بعض هذه القراءات لم تصدر عن النبي قطعًا، ومن

---

(١) التبيان ص 86.

(٢) مناهل العرفان ص 403.

الواضح أن مثل هذا العلم يوجب التعارض بين تلك الروايات وتكون كل واحدة منها مكذبة للأخرى، فتسقط جميعها عن الحجية، فإن تخصيص بعضها بالاعتبار ترجيح بلا مرجح، فلا بد من الرجوع إلى مرجحات باب المعارضة، وبدونه لا يجوز الاحتجاج على الحكم الشرعي بواحدة من تلك القراءات.

وهذه النتيجة حاصلة أيضًا إذا قلنا بتواتر القراءات، فإن تواتر القراءتين المختلفتين عن النبي ﷺ يورث القطع بأن كلًّا من القراءتين قرآن منزل من الله، فلا يكون بينهما تعارض بحسب السند، بل يكون التعارض بينهما بحسب الدلالة، فإذا علمنا إجمالًا أن أحد الظاهرين غير مراد في الواقع فلا بد من القول بتساقطهما، والرجوع إلى الأصل اللفظي أو العملي؛ لأن أدلة الترجيح، أو التخيير تختص بالأدلة التي يكون سندها ظنيًّا، فلا تعم ما يكون صدورها قطعيًّا، وتفصيل ذلك كله في بحث التعادل والترجيح من علم الأصول.

جواز القراءة بها في الصلاة:

ذهب الجمهور من علماء الفريقين إلى جواز القراءة بكل واحد من القراءات السبع في الصلاة، بل ادعي على ذلك الإجماع في كلمات غير واحد منهم. وجوَّز بعضهم القراءة بكل واحدة من العشر، وقال بعضهم: بجواز القراءة بكل قراءة وافقت العربية ولو بوجهٍ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها. ولم يحصرها في عدد معين.

والحق أن الذي تقتضيه القاعدة الأولية: هو عدم جواز القراءة في الصلاة بكل قراءة لم تثبت القراءة بها عن النبي الأكرم ﷺ أو من أحد أوصيائه المعصومين عليهم السلام؛ لأن الواجب في الصلاة هو قراءة القرآن، فلا يكفي قراءة شيء لم يحرز كونه قرآنًا، وقد استقل العقل بوجوب إحراز الفراغ اليقيني بعد العلم باشتغال الذمة.

وعلى ذلك فلا بد من تكرار الصلاة بعد القراءات المختلفة أو تكرار مورد الاختلاف في الصلاة الواحدة، لإحراز الامتثال القطعي، ففي سورة الفاتحة يجب الجمع بين قراءة ﴿ مَٰلِكِ ﴾ [الفاتحة/ 4]، وقراءة ﴿ مَلِكِ ﴾ أم السورة التامة التي تجب قراءتها بعد الحمد -بناء على الأظهر- فيجب لها إما اختيار سورة ليس فيها اختلاف في القراءة، إما التكرار على النحو المتقدم.

وأما بالنظر إلى ما ثبت قطعًا من تقرير المعصومين عليهم السلام شيعتهم على القراءة بآية واحدة من القراءات المعروفة في زمانهم، فلا شك في كفاية كل واحدة منها. فقد كانت هذه القراءات معروفة في زمانهم، ولم يرد عنهم أنهم ردعوا عن بعضها، ولو ثبت الردع لوصل إلينا بالتواتر، ولا أقل من نقله بالآحاد، بل ورد عنهم عليهم السلام إمضاء هذه القراءات بقولهم: «اقرأ كما يقرأ الناس، اقرءوا كما علمتم»(١). وعلى ذلك فلا معنى لتخصيص الجواز بالقراءات السبع أو العشر، نعم يعتبر في الجواز ألا تكون القراءة شاذة، غير ثابتة بنقل الثقات عند علماء أهل السنة، ولا موضوعة.

أما الشاذة فمثالها قراءة ﴿ مَٰلِكِ ﴾ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ بصيغة الماضي ونصب «يوم».

وأما الموضوعة فمثالها: قراءة: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر/ 28] برفع كلمة «الله» ونصب كلمة «العلماء» على قراءة الخزاعي عن أبي حنيفة.

وصفوة القول: أنه تجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) الكافي: باب النوادر، كتاب فضل القرآن.

عبث الرواة

وقال مؤلف «فصل الخطاب» تحت عنوان: في ذكر ما يدل واستدلوا به على وقوع التغيير والنقصان في القرآن»:

إن التوراة والزبور والإنجيل قد وقع فيهم التحريف، وما يحدث عندهم وما قد حدث لا بد أن يقع مثله في القرآن... وقد نبه النبي ﷺ إلى ذلك في قوله: «ما كان في الأمم السالفة، فإنه يكون في هذه الأمة مثله، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة».

وفسر الشيعة قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق/ 19] بقولهم: لتركبن سبيل من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، لا تخطئون طريقهم، ولا تخطى شبر بشبر، وذراع بذراع وباع بباع، حتى أن لو كان من قبلكم دخل حجر ضب خرب لدخلتموه. قالوا: اليهود والنصارى تعني يا رسول الله. قال: «فمن أعني؟ لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الأمانة وآخر الصلاة».

أمثلة على القراءات من كتاب «فصل الخطاب»

1- قرأ ابن مسعود: إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأه فاتبعوا قرآنه.

2- وأمر أبو بكر مناديًا، فنادى في الناس: من كان نده من القرآن شيء، فليجيء به. فقالت حفصة: إذا انتهيتم إلى هذه الآية فأخبروني: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة/ 238]. فلما بلغوا إليها قالت: اكتبوا: «والصلاة الوسطى وهي العصر». فقال لها عمر: ألك بهذا بينة؟ قالت: لا. قال: فوالله لا تدخل في

القرآن ما تشهد به امرأة بلا إقامة بينة. وقال عبد الله بن مسعود: اكتبوا: «والعصر إن الإنسان له خسر، وأنه فيه إلى آخر الدهر». قال عمر: نحُّوا عنها هذه الأعرابية.

3- سقط من مصحف عبد الله بن مسعود سورة الفاتحة والمعوذتين.

4- وسقط منه سورة الحفد وسورة الخلع وسورة الولاية.

5- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ [الأنفال/ 1] سقطت ﴿ عَنِ ﴾ في بعض المصاحف.

6- وفي مصحف: «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم بآل عمران».

7- ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة/ 82] وفي مصحف: «شكركم».

8- «أكنتم خير أمة» وفي المصحف: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران/ 110].

9- «أفمن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه إمامًا ورحمة ومن قبله كتاب موسى». يخالف نص المصحف في الترتيب.

10- وروى عبد الرازق عن ابن جريج قال: وجد مصحف في حجر غلام في المسجد فيه: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أب لهم». فقال: احككها يا غلام. فقال: والله ما أحككها، وهي في مصحف أبي بن كعب. فانطلقوا إلى أبي فقال له أبي: «شغلني القرآن وشغلك الصفق بالأسواق».

11- ذكر الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ [طه/ 63]. وروي عن عثمان قال: إن في المصحف لحنًا وستقيمه العرب بألسنتهم. وقيل له: ألا تغيِّرُه؟ قال: دعوه؛ فإنه لا يحلل حرامًا ولا يحرم حلالًا.

12- وذكر الراغب في «المحاضرات»: إن عثمان أحرق مصحف ابن مسعود وأن ابن مسعود يقول: «لو ملكتُ كما ملكوا، لصنعتُ بمصحفهم مثل الذي صنعوا بمصحفي».

13- وذكر الراغب أيضًا في «المحاضرات»: قالت عائشة: «لقد نزلت آية الرجم ورضاع الكبير، وكانت في رقعة تحت سريري، وشغلنا بشكاية رسول الله ﷺ، فدخلت داجن للحي فأكلته».

14- روى ابن الأثير الجزري في «جامع الأصول» عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن». وقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة/ 1]. وقرأ فيها: «إن الدين عند الله الحنفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية، ومن يعمل خيرا فلن يكفره». وقرأ عليه: «لو أن لابن آدم واديًا من مال لابتغي إليه ثانيًا، ولو أن له ثانيًا لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب على من تاب».

15- صاحب كتاب «دبستان في المذاهب» بعد ذكر عقائد الشيعة ما معناه: وبعضهم يقول: إن عثمان حرق المصاحف وأتلف السور التي كانت في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام؛ منها هذه السورة: «يأيها الذين آمنوا، آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم، نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم. إن الذين يوفون ورسوله في آياتهم جنات نعيم، والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم وظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول أولئك يسقون من حميم، إن الله الذي نور السماوات والأرض ما يشاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلق يفعل الله ما يشاء لا إله إلا الله هو الرحمن الرحيم قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إن أخذي شديد أليم، إن الله قد أهلك عادًا وثمودًا بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون، وفرعون بما طغى على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آيته وإن أكثركم فاسقون، إن الله يجمعهم في يوم الحشر

فلا يستطيعون الجواب حين يسألون، إن الجحيم مأواهم وأن الله عليم حكيم، يأيها الرسول بلغ إنذاري فيوف يعلمون، قد خسر الذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضون مثل الذين يوفون بعهدك إني جزيتهم جنات النعيم، إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم، وإن عليا من المتقين وإنا لنوفيه حقه يوم الدين، ما نحن عن ظلمه بغافلين وكرمناه على أهلك أجمعين، فإنه وذريته لصابرون، إن عدوهم إمام المجرمين، قل للذين كفروا بعد ما آمنوا أطلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله ورسوله ونقضتم العهود من بعد توكيدها وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون، يأيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفاه مؤمنًا ومن يتوله من بعدك يظهرون فاعرض عنهم إنهم معرضون، أنا لهم محضرون في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون إن لهم في جهنم مقامًا عنه لا يعدلون فسبح باسم ربك وكن من الساجدين، ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فبغى هارون فصبر جميل فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعناهم إلى يوم يبعثون، فاصبر فسوف يبصرون، ولقد آتينا بك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصيا لعلهم يرجعون، ومن يتول عن أمري فإني مرجعه فليتمتعوا بكفرهم قليلًا فلا تسأل عن الناكثين، يأيها الرسول قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهدًا فخذه وكن من الشاكرين، إن عليًا قانتًا بالليل ساجدًا يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه، قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون، يستعجل الأغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون، إنا بشرناك بذريته الصالحين وأنهم لأمرنا لا يخلفون فعليهم مني صلوات ورحمة أحياء وأمواتًا يوم يبعثون، وعلى الذين يبغون عليهم من بعدك غضبه إنهم قوم سوء خاسرين وعلى الذين سلكوا مسلكهم مني رحمة وهم في الغرفات آمنون والحمد لله رب العالمين».

قلت: ظاهر كلامه أنه أخذها من كتب للشيعة، ولم أجد لها أثرًا فيها، غير أن الشيخ محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني في كتاب «المثالب» على ما حكى عنهم أنهم أسقطوا من القرآن تمام سورة الولاية، ولعلها هذه السورة، والله العالم.

وعن علي بن عيسى الأزبكي في «كشف الغمة» عن طريق العامة[1] وعن زر بن عبد الله قال: كنا على عهد رسول الله نقرأ: «يأيها الرسول، بلغ ما أنزلنا إليك من ربك أن عليًّا مولى المؤمنين، فإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس».

انتهى كلام «فصل الخطاب».

---

(١) يقصد: أهل السنة.

التحريف في كتب السنة

1- روى ابن عباس أن عمر قال فيما قال وهو على المنبر: إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله أية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله: إن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو: إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم..[١].

وذكر السيوطي: أخرج ابن أشتة في المصاحف عن الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد... وإن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها؛ لأنه كان وحده[٢].

أقول: وآية الرجم التي ادعى عمر أنها من القرآن،ولم تقبل منه ورويت بوجوه: منها: إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله، والله عزيز حكيم. ومنها: إن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وكيف كان فليس في القرآن الموجود ما يستفاد منه حكم الرجم، فلو صحت الرواية فقد سقطت آية من القرآن لا محالة.

2- وأخره الطبراني بسند موثق عن عمر بن الخطاب مرفوعًا: القرآن ألف ألف وسبعة وعشرون ألف حرف[٣]. بينما القرآن الذي بين أيدينا لا يبلغ ثلث هذا المقدار، وعليه فقد سقط من القرآن أكثر من ثلثيه.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: الحدود/ باب: رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت/ رقم الحديث: 6830).

(٢) الإتقان للسيوطي 1/ 101.

(٣) الإتقان للسيوطي 1/ 121.

3- وروى ابن عباس عن عمر أنه قال: إن الله عز وجل بعث محمدًا بالحق، وأنزل معه الكتاب فكان مما أنزل إليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، ثم قال: كنا نقرأ: ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، أو: إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم(١).

4- وروى نافع أن ابن عمر قال: ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل: أخذت منه ما ظهر(٢).

5- وروى عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في ومن النبي ﷺ مئتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن(٣).

6- وروت حميدة بنت أبي يونس قالت: قرأ علي أبي -وهو ابن ثمانين سنة- في مصحف عائشة: إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، وعلى الذين يصلون الصفوف الأول. قالت: قبل أن يغير عثمان المصحف(٤).

7- وروى أبو حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال: وبعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب العرب من كان قبلكم، وأنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها، غير أني قد حفظت منها: ولو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى

---

(١) مسند أحمد 1/ 74.

(٢) الإتقان للسيوطي 2/ 40، 41.

(٣) الإتقان للسيوطي 2/ 40، 41.

(٤) الإتقان للسيوطي 2/ 40، 41.

المسبحات فأنسيتها، غير أني حفظت منها: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة»[(١)].

8- وروى زر قال: أبي بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب قلت: ثلاث وسبعين آية، قال: إن كانت لتضاهي سورة البقرة، أو هي أطول من سورة البقرة[(٢)].

9- وروى ابن أبي داود وابن الأنباري عن ابن شهاب قال: بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير، فقتل علماؤه يوم اليمامة، الذين كانوا قد وعوه، ولم يعلم بعدهم ولم يكتب[(٣)].

10- وروى عمرة عن عائشة أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرمن». ثم نسخن بـ«خمس معلومات»، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ القرآن[(٤)].

11- وروى المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل علينا، أن جاهدوا أول مرة، فإنا لا نجدها. قال: أسقطت فيما أسقط من القرآن[(٥)].

12- وروى أبو سفيان الكلاعي: أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم: أخبروني بآيتين في القرآن لم يكتبا في المصحف، فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال ابن مسلمة: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون، والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[(٦)].

---

(١) صحيح مسلم (كتاب: الزكاة/ باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا/ رقم الحديث: 1050).

(٢) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد 2/ 43.

(٣) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد 2/ 50.

(٤) صحيح مسلم (كتاب: الرضاع/ باب: التحريم بخمس رضعات/ رقم الحديث: 1452).

(٥) الإتقان للسيوطي 2/ 42.

(٦) الإتقان للسيوطي 2/ 42.

وقد نقل بطرق عديدة عن ثبت سورتي الخلع والحفد في مصحف ابن عباس وأبي بن كعب: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وأليك نسعى ونحفد، ونرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكافرين ملحق. وغير ذلك مما لا يهمنا استقصاؤه(١).

وغير خفي أن القول بنسخ التلاوة هو بعينه القول بالتحريف والإسقاط.

وبيان ذلك أن نسخ التلاوة هذا إما أن يكون قد وقع من رسول الله ﷺ وإما أن يكون ممن تصدى للزعامة من بعده، فإن أراد القائلون بالنسخ وقوعه من رسول الله ﷺ فهو أمر يحتاج إلى الإثبات. وقد اتفق العلماء أجمع على عدم جواز نسخ الكتاب بخبر الواحد، وقد صرح بذلك جماعة في كتب الأصول وغيرها(٢).

بل قطع الشافعي وأكثر أصحابه وأكثر أهل الظاهر بامتناع نسخ الكتاب بالسنة المتواترة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، بل إن جماعة ممن قال بإمكان نسخ الكتاب بالسنة المتواترة منع وقوعه(٣).

وعلى ذلك فكيف تصح نسبة النسخ إلى النبي ﷺ بأخبار هؤلاء الرواة؟ مع أن نسبة النسخ إلى النبي تنافي جملة من الروايات التي تضمنت أن الإسقاط قد وقع بعده، وإن أرادوا أن النسخ قد وقع من الذين تصدوا للزعامة بعد النبي ﷺ فهو عين القول بالتحريف.

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 122.

(٢) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي 3/ 106.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي 3/ 217.

وعلى ذلك فيمكن أن يدعي القول بالتحريف هو مذهب أكثر علماء أهل السنة؛ لأنهم يقولون بجواز تلاوة الجنب ما نسخت تلاوته، وفي جواز أن يمسه المحدث، واختار بعضهم عدم الجواز، نعم ذهبت طائفة من المعتزلة إلى عدم جواز نسخ التلاوة[١].

جمع القرآن وتدوينه[٢]

إن موضوع جمع القرآن من الموضوعات التي يتذرع بها القائلون بالتحريف، إلى إثبات أن في القرآن تحريفًا وتغييرًا، وإن كيفية جمعه مستلزمة -في العادة- لوقوع هذا التحريف والتغيير فيه.

فكان من الضروري أن يعقد هذا البحث إكمالًا لصيانة القرآن من التحريف وتنزيهه عن نقص أو أي تغيير.

إن مصدر هذه الشبهة هو زعمهم بأن جمع القرآن كان بأمر من أبي بكر بعد أن قتل سبعون رجلا من القرآن في بئر معونة، وأربعمائة نفر في حرب اليمامة فخيف ضياع القرآن وذهابه من الناس.

فتصدى عمر وزيد بن ثابت لجمع القرآن من العسب والرقاع واللخاف ومن صدور الناس بشرط أن يشهد شاهدان على أنه من القرآن، وقد صرح بجميع ذلك في عدة من الروايات، والعادة تقضي بفوات شيء منه على المتصدي لذلك، إذا كان غير معصوم، كما هو مشاهد فيمن يتصدى لجمع شعر شاعر واحد أو أكثر، ولا أقل من احتمال وقوع التحريف، فإن من المحتمل عدم إمكان إقامة شاهدين على بعض ما سمع من النبي ﷺ فلا يبقى وثوق بعدم النقيصة.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي 3/ 303.

(٢) كلام الإمام الخوئي.

والجواب:

إن هذه الشبهة مبتنية على صحة الروايات الواردة في كيفية جمع القرآن والأولى أن نذكر هذه الروايات ثم نعقبها بما يرد عليها.

أحاديث جمع القرآن:

1- روى زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر،مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني لأرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/ 128] حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر[١].

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: فضائل القرآن/ باب: جمع القرآن/ رقم الحديث: 4986).

2- وروى ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال ابن شهاب وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب/ 23] فألحقناها في سورتها في المصحف(١).

3- وروى ابن أبي شيبة بإسناده عن علي قال: أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر، إن أبا بكر أول من جمع ما بين اللوحين.

4- وروى ابن شهاب عن سالم بن عبد الله وخارجة: إن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس، وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر في ذلك فأبى حتى استعان

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: فضائل القرآن/ باب: جمع القرآن/ رقم الحديث: 4988).

عليه بعمر ففعل، فكانت الكتب عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى توفي، ثم كانت عند حفصة زوج النبي ﷺ فأرسل إليها عثمان هذه المصاحف ثم ردها إليها فلم تزل عندها.

5- وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: لما قتل أهل اليمامة أمر أبو بكر عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت فقال: اجلسا على باب المسجد فلا يأتينكما أحد بشيء من القرآن تنكرانه يشهد عليه رجلان إلا أثبتماه وذلك لأنه قتل باليمامة ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جمعوا القرآن.

6- وروى محمد بن سيرين قال: قتل عمر ولم يجمع القرآن.

7- وروى الحسن: إن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان يوم اليمامة، فقال: إن لله وأمر بالقرآن فجمع أول من جمعه في المصحف.

8- وروى يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام في الناس فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في المصاحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان، فقتل وهو يجمع ذلك إليه، فقام عثمان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به. وكان لا يقبل من ذلك شيئًا حتى يشهد شهيدان. فجاءه خزيمة بن ثابت، فقال: إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما، قالوا: ما هما. قال: تلقيت من رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/ 128] إلى آخر السورة. فقال عثمان: وأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: اختم بهما آخر ما أنزل من القرآن، فختمت بها براءة.

9- وروى عبيد بن عمير، قال: كان عمر لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد رجلان، فجاءه رجل من الأنصار بهاتين الآيتين: لقد جاءكم رسول من أنفسكم... إلى آخرها. فقال عمر: لا أسألك عليها ببينة أبدا، وكذلك كان رسول الله[1].

10- وروى سليمان بن أرقم، عن الحسن وابن سيرين وابن شهاب الزهري قالوا: لما أسرع في قراء القرآن يوم اليمامة قتل منهم يومئذ أربعمائة رجل، لقي زيد بن ثابت عمر بن الخطاب، فقال له: إن هذا القرآن هو الجامع لدينا فإن ذهب القرآن ذهب ديننا، وقد عزمت على أن أجمع القرآن في كتاب. فقال له: انتظر حتى أسأل أبا بكر. فمضينا إلى أبي بكر فأخبراه بذلك، فقال: لا تعجل حتى أشاور المسلمين، ثم قام خطيبًا في الناس فأخبرهم بذلك، فقالوا: أثبت. فجمعوا القرآن فأمر أبو بكر مناديًا فنادى في الناس: من كان عنده شيء من القرآن فليجيء به.

11- وروى خزيمة بن ثابت قال: جئت بهذه الآية ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/ 128] إلى عمر بن الخطاب وإلى زيد بن ثابت. فقال زيد: من يشهد معك؟ قلت: لا والله ما أدري. فقال عمر: أنا أشهد معه على ذلك.

12- وروى أبو إسحاق عن بعض أصحابه قال: لما جمع عمر بن الخطاب المصحف سأل: من أعرب الناس؟ قيل: سعيد بن العاص. فقال: من أكتب الناس؟ فقيل: زيد بن ثابت. قال فليمل سعيد وليكتب زيد، فكتبوا مصاحف أربعة، فأنفذ مصحفًا إلى الحجاز.

---

(١) الروايات التي نقلناها عن المنتخب مذكورة في كنز العمال «جمع القرآن» الطبعة الثانية 2/ 361 عدا هذه الرواية، ولكن بمضمونها رواية عن يحيى بن جعدة.

13- وروى عبد الله بن فضالة قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرًا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مصر، فإن القرآن نزل على رجل من مصر.

14- وروى أبو قلابة قال: لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون ويختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بقراء بعض، فبلغ ذلك عثمان فقام خطيبًا، فقال: أنتم عندي تختلفون وتلحنون، فمن نأى عني مني من الأمصار أشد اختلافًا وأشد لحنًا فاجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إمامًا، قال أبو قلابة: فحدثني مالك بن أنس قال أبو بكر بن أبي داود: هذا مالك بن أنس جد مالك بن أنس قال: كنت فيمن أملى عليهم فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من سول الله ﷺ ولعله يكون غائبًا أو في بعض البوادي ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها، ويدعون موضعها حتى يجيء أو يرسل إليه، فلما فرغ من المصحف كتب إلى أهل الأمصار أني قد صنعت كذا وصنعت كذا، ومحوت ما عندي، فامحوا ما عندكم.

15- وروى مصعب بن سعد قال: قام عثمان يخطب الناس فقال: يأيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، تقولون قراءة أبي، وقراءة عبد الله، يقول الرجل والله ما تقيم قراءتك، فاعزم على كل رجل منكم كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن، حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان ودعاهم رجلا رجلا، فناشدهم لسمعت رسول الله ﷺ وهو أمله عليم فيقول: نعم فلما فرغ من ذلك عثمان، قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد، فكتب زيد وكتب مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب محمد ﷺ يقول: قد أحسن.

16- وروى أبو المليح قال: قال عثمان بن عفان حين أراد أن يكتب المصحف: تملي هذيل وتكتب ثقيف.

17- وروى عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه، فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنتها.

18- وروى عكرمة قال: لما أتى عثمان بالمصحف رأى فيه شيئًا من لحن فقال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا.

19- وروى عطاء أن عثمان بن عفان لما نسخ القرآن في المصاحف، أرسل إلى أبي بن كعب فكان يملي على زيد بن ثابت، وزيد يكتب ومعه سعيد بن العاص يعربه، فهذا المصحف على قراءة أبي وزيد.

20- وروى مجاهد: أن عثمان أمر أبي بن كعب يملي، ويكتب زيد بن ثابت ويعربه سعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث.

21- وروى زيد بن ثابت: لما كتبنا المصاحف فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ فوجدتها عند خزيمة بن ثابت: ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب/ 23] وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين أجاز رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

22- وقد أخرج ابن أشتة عن الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشهادة عدلين، وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع أبي خزيمة بن ثابت، فقال: اكتبوها فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين، فكتب،وإن عمر أتى بآية الرجم فلم نكتبها لأنه كان وحده(١).

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 101.

هذه أهم الروايات التي وردت في كيفية جمع القرآن وهي مع أنها أخبار آحاد لا تفيدنا علمًا مخدوشة من جهات شتى:

1- تناقض أحاديث جمع القرآن:

إنها متناقضة في أنفسها فلا يمكن الاعتماد على شيء منها، وكمن الجدير بنا أن نشير إلى جملة من مناقضاتها في ضمن أسئلة وأجوبة.

- متى جمع القرآن في المصحف؟

ظاهر الرواية الثانية أن الجمع كان في زمن عثمان، وصريح الروايات الأولى والثالثة والرابعة وظاهر البعض الآخر أنه كان في زمان أبي بكر وصريح الروايتين السابعة والثانية عشرة أنه كان في زمان عمر.

- من تصدى لجمع القرآن زمن أبي بكر؟

تقول الروايتان الأولى، والثانية والعشرون أن المتصدي لذلك هو زيد بن ثابت، وتقول الرواية الرابعة: أنه أبو بكر نفسه، وإنما طلب من زيد أن ينظر فيما جمعه من الكتب، وتقول الرواية الخامسة، ويظهر من غيرها أيضًا أن المتصدي هو زيد وعمر.

- هل فوض لزيد جمع القرآن؟

يظهر من الرواية الأولى أن أبا بكر قد فوض إليه ذلك، بل هو صريحها فإن قوله لزيد: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه. صريح في ذلك، وتقول الرواية الخامسة وغيرها: إن الكتابة إنما كانت بشهادة شاهدين، حتى إن عمر جاء بآية الرجم فلم تقبل منه.

- هل بقي من الآيات ما لم يدون إلى زمان عثمان؟

ظاهر كثير من الروايات بل صريحها أنه لم يبق شيء من ذلك، وصريح الرواية الثانية، بقاء شيء من الآيات لم يدون إلى زمان عثمان.

- هل نقص عثمان شيئًا مما كان مدونًا قبله؟

ظاهر كثير من الروايات بل صريحها أيضًا أن عثمان لم ينقص مما كان مدونًا قبله، وصريح الرواية الرابعة عشرة أنه محا شيئًا مما دون قبله، وأمر المسلمين بمحو ما محاه.

- من أي مصدر جمع عثمان المصحف؟

صريح الروايتين الثانية والرابعة: أن الذي اعتمد عليه في جمعه هي الصحف التي جمعها أبو بكر، وصريح الروايات الثامنة والرابعة عشر والخامسة عشر أن عثمان جمعه بشهادة شاهدين، وبأخبار من سمع الآية من رسول الله ﷺ.

- من الذين طلب من أبي بكر جمع القرآن؟

تقول الرواية الأولى أن الذي طلب ذلك منه هو عمر، وأن أبا بكر إنما أجابه بعد الامتناع، فأرسل إلى زيد وطلب منه ذلك، فأجابه بعد الامتناع، وتقول الرواية العاشرة أن زيدًا وعمر طلبا ذلك من أبي بكر، فأجابهما بعد مشاورة المسلمين.

- من جمع المصحف الإمام وأرسل منه نسخًا إلى البلاد؟

صريح الرواية الثانية أنه كان عثمان، وصريح الرواية الثانية عشرة أنه كان عمر.

- متى ألحقت الآيتان بآخر سورة براءة؟

صريح الرواية الأولى، والحادية عشر، والثانية والعشرين أن إلحاقهما كان في زمان أبي بكر، وصريح الرواية الثامنة، وظاهر عرها كان في عهد عمر.

- من أتى بهاتين الآيتين؟

صريح الروايتين الأول، والثانية والعشرين أنه كان أبا خزيمة، وصريح الروايتين الثامنة، والحادية عشرة أنه كان خزيمة بن ثابت، وهما رجلان ليس بينهما نسبة أصلا، على ما ذكره ابن عبد البر[١].

- بماذا أثبت أنهما من القرآن؟

بشهادة الواحد، على ما هو ظاهر الرواية الأولى، وصريح الروايتين التاسعة، والثانية والعشرين، وبشهادة عثمان معه، على ما هو صريح الرواية الثامنة، وبشهادة عمر معه، على ما هو صريح الرواية الحادية عشر.

- من عينه عثمان لكتابة القرآن أو إملائه؟

صريح الرواية الثانية أن عثمان عين للكتابة زيدًا، وابن الزبير، وسعيد وعبد الرحمن، وصريح الرواية الخامسة عشر أنه عين زيدًا للكتابة وسعيدًا للإملاء، وصريح الرواية السادسة عشرة أنه عين ثقيفًا للكتابة، وهذيلًا للإملاء من هذيل وصريح الرواية التاسعة عشرة أن المملي كان أبي بن كعب وأن سعيدًا كان يعرب ما كتبه زيد، وهذا أيضًا صريح الرواية العشرين بزيادة عبد الرحمن بن الحارث للإعراب.

2- تعارض روايات الجمع:

إن هذه الروايات معارضة بما دل على أن القرآن كان قد جمع، وكتب على عهد رسول الله ﷺ فقد روى جماعة، منهم ابن أبي شيبة وأحمد بن حنبل والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي والضياء المقدسي عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي

---

(١) تفسير القرطبي 1/ 56.

من المثين فقرنتم بينهما ولن تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ووضعتموهما في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟

فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه السورة ذات العدد وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآيات فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أول ما أنزل في المدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولًا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ووضعتهما في السبع الطوال(١).

وروى الطبراني وابن عساكر عن الشعبي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستة من الأنصار: أبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وسعد بن عبيد وأبو زيد، وكان مجمع بن جارية قد أخذ إلا سورتين أو ثلاث(٢).

وروى قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبي؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد(٣).

وروى مسروق ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود فقال: لا أزال أحبه، سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب»(٤).

---

(١) منتخب كنز العمال 2/ 48.

(٢) منتخب كنز العمال 2/ 52.

(٣) صحيح البخاري (كتاب: المناقب/ باب: مناقب زيد بن ثابت/ رقم الحديث: 3810).

(٤) صحيح البخاري (كتاب: فضائل القرآن/ باب: القراء من أصحاب النبي/ رقم الحديث: 5003).

وأخرج النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال: «اقرأه في شهر...»[1]. وستجيء رواية ابن سعد في جمع أم ورقة القرآن.

ولعل قائلًا يقول: وإن المراد من الجمع في هذه الروايات هو الجمع في الصدور لا التدوين، وهذا القول دعوى لا شاهد عليها، أضف إلى ذلك أنك ستعرف أن حفاظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ كانوا أكثر من أن تحصى أسماؤهم، فكيف يمكن حصرهم في أربعة أو ستة؟! وإن المتصفح لأحوال الصحابة، وأحوال النبي ﷺ يحصل له العلم اليقيني بأن القرآن كان مجموعًا على عهد رسول الله ﷺ وأن عدد الجامعين أنه لا يستهان به.

وأن ما رواه البخاري بإسناده عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. فهو مردود مطروح لأنه معارض للروايات المتقدمة حتى لما رواه البخاري بنفسه.

ويضاف إلى ذلك أنه غير قابل للتصديق به، وكيف يمكن أن يحيط الراوي بجميع أفراد المسلمين حين وفاة النبي ﷺ على كثرتهم وتفرقهم في البلاد ويستعلم أحوالهم ليمكنه أن يحصر الجامعين للقرآن في أربعة وهذه الدعوى تخرص بالغيب وقول بغير علم.

وصفوة القول: أنه مع هذه الروايات كيف يمكن أن يصدق أن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بعد خلافته؟ وإذا سلمنا ذلك فلماذا أمر زيدًا وعمر بجمعه من اللخاف والعسب وصدور الرجال، ولم يأخذه من عبد الله ومعاذ وأبي، وقد كانوا

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 124.

عند الجمع أحياء، وقد أمروا بأخذ القرآن منهم ومن سالم؟ نعم إن سالمًا قد قتل في حرب اليمامة، فلم يمكن الأخذ منه، على أن زيدا نفسه كان أحد الجامعين للقرآن على ما يظهر من هذه الرواية، فلا حاجة إلى التفحص والسؤال من غيره، بعد أن كان شابًا عاقلًا غير متهم كما يقول أبو بكر، أضف إلى جميع ذلك أخبار الثقلين المتضافرة تدلنا على أن القرآن كان مجموعًا على عهد رسول الله ﷺ على ما سنشير إليه.

3- تعارض أحاديث الجمع من الكتاب:

إن هذه الروايات معارضة بالكتاب، فإن كثيرًا من آيات الكريمة دالة عن سور القرآن كانت مميزة في الخارج بعضها عن بعض، وإن السور كانت منتشرة بين الناس حتى المشركين وأهل الكتاب، فإن النبي ﷺ قد تحدى الكفار والمشركين على الإتيان بمثل القرآن، وبعشر سور مثله مفتريات وبسورة مثله، ومعنى هذا أن سور القرآن كانت في متناول أيديهم.

وقد أطلق لفظ الكتاب على القرآن في كثير من آياته الكريمة، وفي قول النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي». وفي هذا دلالة على أنه كان مكتوبًا مجموعًا، لأنه لا يصح إطلاق الكتاب عليه وهو في الصدور، بل ولا على ما كتب في اللخاف والعسب والأكتاف إلا على نحو المجاز والعناية، والمجاز لا يحمل اللفظ عليه من غير قرينة، فإن لفظ الكتاب ظاهر فيما كان له وجود واحد جمعي، ولا يطلق على المكتوب إذا كان مجزءًا غير مجتمع، فضلًا عما إذا لم يكتب وكن محفوظًا في الصدور فقط.

4- مخالفة أحاديث الجمع مع حكم العقل:

إن هذه الروايات مخالفة لحكم العقل، فإن عظمة القرآن في نفسه، واهتمام النبي ﷺ بحفظه وقراءته، واهتمام المسلمين بما يهتم به النبي ﷺ وما يستوجبه ذلك من

الثواب، كل ذلك ينافي جمع القرآن على النحو المذكور في تلك الروايات، فإن في القرآن جهات عديدة كل واحدة منها تكفي لأن يكون القرآن موضعً لعناية المسلمين، وسببًا لاشتهاره حتى بين الأطفال والنساء منهم، فضلًا عن الرجال وهذه الجهات هي:

1- بلاغة القرآن:

فقد كانت العرب تهتم بحفظ الكلام البليغ، ولذلك فهم يحفظون أشعار الجاهلية وخطبها، فكيف بالقرآن الذي تحرى ببلاغته كل بليغ وأخرس بفصحاته كل خطيب لسن، وقد كانت كل خطيب لسان، وق كانت العرب بأجمعهم متوجهين إليه، سواء في ذلك مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن يحفظه لإيمانه، والكافر يتحفظ به لأنه يتمنى معارضته، وإبطال حجته.

2- إظهار النبي رغبته بحفظ القرآن والاحتفاظ به:

وكانت السيطرة والسلطة له خاصة، والعادة تقضي بأن الزعيم إذا ظهر رغبته بحفظ كتاب أو بقراءته فإن ذلك الكتاب يكون رائجًا بين جميع الرعية، الذين يطلبون رضاه لدين أو دنيا.

3- إن حفظ القرآن سبب لارتفاع شأن الحافظ بين الناس وتعظيمه عندهم:

فقد علم كل مطلع على التاريخ ما للقراء والحفاظ من المنزلة الكبيرة والمقام الرفيع بين الناس، وهذا أقوى سبب لاهتمام الناس بحفظ القرآن جملة، أو بحفظ القدر الميسور منه.

4- الأجر والثواب الذي يستحقه القارئ والحافظ بقراءة القرآن وحفظه:

هـذه أهـم العوامـل التـي تبعـث عـلى حفـظ القـرآن والاحتفـاظ بـه، وقـد كـان المسلمون يهتمون بشأن القرآن، ويحتفظون به أكثر من اهتمامهم بأنفسهم، ربما يهمهـم من مال وأولاد، وقد ورد أن بعض النساء جمعت جميع القرآن.

وأخرج ابن سعد في الطبقات: أنبنا الفضل بن دكين، حـدثنا الوليـد بـن عبـد الله ابن جميع قال: حدثتني جدتي عـن أم ورقـة بنت عبـد الله بـن الحـارث، وكـان رسـول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة وكانت قد جمعت القرآن.

أن رسـول الله ﷺ حـين غـزا بـدرًا، قالـت لـه: أتـأذن لي فـأخرج معـك أداوي جرحـاكم وأمـرض مرضـاكم لعـل الله يهـدي لي شـهادة؟ قـال: إن الله مهـد لـك شهادة(١).

وإذا كان هذا حال النساء في جمع القرآن فكيف يكون حال الرجال؟ وقد عد من حفاظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ جم غفير.

قال القرطبي: «قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد»(٢).

وقد تقدم في الرواية العاشرة أنه قتل من القراء يوم اليمامية أربعمائة رجـل عـلى أن شدة اهتمام النبي ﷺ بالقرآن، وقد كان له كتاب عديدون، ولا سيما أن القـرآن نـزل نجومًا في مدة ثلاث وعشرين سنة، كل هذا يورث لنا القطع بـأن النبـي ﷺ كـان قـد أمر بكتابة القرآن على عهده.

روى زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع.

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 125.

(٢) الإتقان 1/ 122، وقال القرطبي في تفسيره: 1/ 50: «وقتل منهم القراء في ذلك اليوم يوم اليمامة فيما قيل سبعمائة».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وفيه الدليل الواضح أن القرآن إنما جمع على عهد رسول الله[١].

وأما حفظ بعض سور القرآن أو بعض السورة فقد كان منتشرًا جدًّا، وشذ أن يخلو من ذلك رجل أو امرأة من المسلمين.

روى عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ يشغل فإذا قدم رجل مهاجر على سول الله ﷺ دفعة إلى رجل منا يعلمه القرآن[٢].

وروى كليب قال: كنت مع علي فيمع ضجتهم في المسجد يقرأون القرآن فقال: طوبى لهؤلاء[٣].

وعن عبادة بن الصامت أيضًا: كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[٤].

نعم إن حفظ القرآن ولو ببعضه كان رائجًا بين الرجال والنساء من المسلمين، حتى أن المسلمة قد تجعل مهرها تعليم سورة من القرآن أو أكثر[٥]، ومع هذا الاهتمام كله كيف يمكن أن يقال: إن جمع القرآن قد تأخر إلى زمان خلافة أبي بكر، وإن أبا بكر احتاج في جمع القرآن إلى شاهدين يشهدان أنهما سمعا ذلك من رسول الله ﷺ.

---

(١) مستدرك الحاكم 2/ 611.

(٢) مسند أحمد 5/ 324.

(٣) كنز العمال 2/ 185.

(٤) مناهل العرفان ص 324.

(٥) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي، التاج 2/ 332.

5- مخالفة أحاديث الجمع للإجماع:

إن هذه الروايات مخالفة لما أجمع عليه المسلمون قاطبة من أن القرآن لا طريق لإثباته إلا التواتر، فإنها تقول: إن إثبات آيات القرآن حين الجمع كان منحصرًا بشهادة شاهدين، أو بشهادة رجل واحد إذا كانت تعدل شهادتين، وعلى هذا فاللازم أن يثبت القرآن الواحد أيضًا، وهل يمكن لمسلم أن يلتزم بذلك؟ ولست أدري كيف يجتمع القول بصحة هذه الروايات التي تدل على ثبوت القرآن بالبينة، مع القول بأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، أفلا يكون القطع بلزوم كون القرآن متواترًا سببًا للقطع بكذب هذه الروايات أجمع؟ ومن الغريب أن بعضهم كابن حجر فسر الشاهدين في الروايات بالكتابة والحفظ[١].

وفي ظني أن الذي حمله على ارتكاب هذا التفسير هو ما ذكرناه من لزوم التواتر في القرآن، وعلى كل حال فهذا التفسير واضح الفساد من جهات:

أما أولا: فلمخالفته صريح تلك الروايات في جمع القرآن، وقد سمعتها.

وأما ثانيا: فلأن هذا التفسير يلزمه أنهم لم يكتبوا ما ثبت أنه من القرآن بالتواتر، إذا لم يكن مكتوبًا عند أحد، ومعنى ذلك أنهم أسقطوا من القرآن ما ثبت بالتواتر أنه من القرآن.

وأما ثالثا: فلأن الكتابة والحفظ لا يحتاج إليهما إذا كان ما تراه كتابته متواترًا، وهما لا يثبتان كونه من القرآن، إذا لم يكن متواترًا، وعلى كل حال فلا فائدة في جعلهما شرطًا في جمع القرآن.

---

(١) الإتقان 1/ 100.

وعلى الجملة لا بد من طرح هذه الروايات، لأنها تدل على ثبوت القرآن بغير التواتر، وقد ثبت بطلان ذلك بإجماع المسلمين.

6- أحاديث الجمع والتحريف بالزيادة:

إن هذه الروايات لو صحت، وأمكن الاستدلال بها على التحريف من جهة النقص، لكتن اللازم على المستدل أن يقول بالتحريف من جهة الزيادة في القرآن أيضًا، لأن كيفية الجمع المذكورة تستلزم ذلك، لا يمكن له أن يعتذر عن ذلك بأن حد الإعجاز في بلاغة القرآن يمنع من الزيادة عليه، فلا تقاس الزيادة على النقيصة، وذلك لأن الإعجاز في بلاغة القرآن وإن كان يمنع عن الإتيان بمثل سورة من سوره، ولكنه لا يمنع من الزيادة عليه بكلمة أو بكلمتين، بل ولا بآية كاملة، ولا سيما إذا كانت قصيرة، ولولا هذا الاحتمال لم تكن حاجة إلى شهادة شاهدين، كما في روايات الجمع المتقدمة، فإن الآية التي يأتي بها الرجل تثبت نفسها أنها من القرآن أو من غيره، وإذن فلا مناص للقائل بالتحريف من القول بالزيادة أيضًا وهو خلاف إجماع المسلمين.

وخلاصة ما تقدم: أن إسناد جمع القرآن إلى الخلفاء أمر موهوم، مخالف للكتاب والسنة والإجماع والعقل، فلا يمكن القائل بالتحريف أن يستدل به على دعاوه، ولو سلمنا أن جامع القرآن هو أبو بكر في أيام خلافته، فلا ينبغي الشك في كيفية الجمع المذكورة في الروايات المتقدمة مكذوبة، وأن جمع القرآن كان مستندًا إلى التواتر بين المسلمين غاية الأمر أن الجامع قد دون في المصحف ما كان محفوظًا في الصدور على نحو التواتر.

نعم لا شك أن عثمان قد جمع القرآن في زمانه لا بمعنى أنه جمع الآيات والسور في مصحف بل بمعنى أنه جمع المسلمين على قراءة إمام واحد، وأحرق المصاحف

الأخرى التي تخالف ذلك المصحف، وكتب إلى البلدان أن يحرقوا ما عندهم من مصاحف، ونهى المسلمين عن الاختلاف في القراءة، وقد صرح بهذا كثير من أعلام السنة.

قال الحارث المحاسبي: المشهور عند الناس عند الناس أن جامع القرآن عثمان وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطابقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن.

أقول: أما أن عثمان جمع المسلمين على قراءة واحدة، وهي القراءة التي كانت متعارفة بين المسلمين، والتي تلقوها بالتواتر عن النبي ﷺ وأنه منع عن القراءات الأخرى المبتنية على أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف، التي تقدم توضيح بطلانها.

أما هذا العمل من عثمان فلم ينتقده عليه أحد المسلمين، وذلك لأن الاختلاف في القراءة كان يؤدي إلى الاختلاف بين المسلمين وتمزيق صفوفهم وتفريق وحدتهم، بل كلن يؤدي إلى تكفير بعضهم بعضًا. وقد مر –فيما تقدم- بعض الروايات الدالة على أن النبي ﷺ منع عن الاختلاف في القرآن، ولكن الأمر الذي انتقد عليه هو إحراقه لبقية المصاحف، وأمره أهالي مصر بإحراق ما عندهم من المصاحف، وقد يكون اعترض على عثمان في ذلك جماعة من المسلمين، حتى سموه بحراق المصاحف.

النتيجة:

ومما ذكرناه قد تبين للقارئ أن حديث تحريف القرآن حديث خرافة وخيال، لا يقول به إلا من ضعف عقله، أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل، أو من ألجأه إليه يجب القول به، والحب يعمي ويصم، وأما العاقل المنصف المتدبر فلا يشك في بطلانه وخرافته.

كتاب «الهداية» المسيحي ومحاولة النيل من القرآن

في كتاب «الهداية» الذي أرسله المرسلون الأميركان في سنة 1898 ضد القرآن مكتوب:

بعض المسلمين يدعون على المسيحيين واليهود بأنهم حرفوا وغيروا وبدلوا. هذا كلام ناشئ عن تعصب وطيش وخفة وعدم ترو في الأمر وعدم اطلاع على مستندات المسيحيين لأنهم لا يرغبون في الحق.

وثانيًا: إنهم لو اطلعوا على أحوال قرآنهم وكيفية جمعه وكيف غيروه وبدلوه حسب أقوال علمائهم، لعرفوا أنه هو الذي تغير وتبدل بخلاف الكتب المقدسة. اهـ.

وقد رددنا عليهم في الجزء الأول من كتابنا «تهافت الهداية» بما نصه:

مكاتبة النبي للملوك والأمراء بالقرآن الكريم

وبعد ما بينا أن روايات جمع القرآن وتدوينه بعد موت النبي ﷺ ضعيفة لا يحتج بها؛ لأن اليهود هم الذين كتبوها وأدخلوها خلسة في الكتب الإسلامية التفسيرية، نبين من القرآن نفسه أن النبي ﷺ جمع كتب القرآن في حياته، وبلغه بواسطة رسله -أصحابه- إلى اليهود والصابئين والمسيحيين في بلادهم من قبل نزع الملك منهم وبيان ذلك:

إن في التوراة عن محمد ﷺ أنه سيحارب الكافرين بنبوته(١) والرادين لشريعته من اليهود وشركائهم ليجعل المؤمنين شعبًا واحدًا على شريعته، وأن هذه الحروب ستكون في حالة بعثته. وسيبيد ليهود الكافرين به من أرض العرب ومن فلسطين

---

(١) في سفر التثنية: «ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب». وفي سفر الأعمال أيضًا [تث 18: 15 – 22، أعمال 3].

ومن بلاد فارس، ومن سيتبقى منهم بعد الهزيمة سيسبون إلى جميع الأمم وهلاكهم في حال بعثته هو عذاب شديد لهم. وقد جرت عاد الله في خلقه أنه لا يهلك أحدًا إلا من بعد إنذاره؛ لئلا يحتج بعدم الإنذار أمام الله. وحيث قد وقعت الحروب بين النبي ﷺ وأصحابه وبين اليهود في أرض العرب، فإنه قبل وقوعها يكون اليهود قد أنذروا منه بالهلاك على يديه ﷺ فالإنذار دائمًا يسبق الحروب، وما يريده المهاجم من الذين يريد حربهم، هو يبيده لهم من قبل الحرب مشفوعًا بالإنذار، وهذا متفق عليه بين الأمم ويعمل به.

وعلى هذا المتفق عليه، يكون محمد ﷺ قد:

1- أبدى لهم ما يريده منهم.

2- وقد شفعه بإنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا به.

وإذا وقعت الحروب بالفعل في أرض العرب بينه وبين اليهود، فإنه يكون قد أبدى لهم ما يريده منهم، فما هو هذا الذي قد أبداه؟ وكيف بلغه؟ هذان سؤالان عليهما مدار كتاب النبي للقرآن كله في حياته أو عدم كتابته.

وقد جاء في الأحاديث: أن مهاجري الحبشة قرأوا على النجاشي صدر سورة مريم رضي الله عنها، وهذا يدل على أن ما يريده رسول الله من اليهود والنصارى وهو تبليغ القرآن إليهم، قد وقع بالفعل.

ولماذا يبلغ القرآن إليهم؟ ليعلموا منه أنه النبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل وكيف يعلمون أنه هو النبي؟ بقراءتهم للقرآن لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء/ 197] ولكي يعلموا أنه هو النبي من قراءتهم للقرآن فإنه يجب عليه من قبل أن يحاربهم أن يبلغهم هذا القرآن ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام/ 19]

لذلك كاتب الملوك والرؤساء وأرسل مع كل كتاب نسخة من القرآن. وقد قال الرواة إنه كاتبهم ولم يقولوا إنه أرسل إليهم مصاحف كاملة، ليقدروا على اللغو في كتابة القرآن فيما بعد.

وفي القرآن: إن التوراة ذكر، والقرآن ذكر آخر. وفي القرآن أن ما سلم من التحريف في الذكر الأول قد نزل في القرآن ليكون محفوظًا فيه ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء/ 10] أي ذكرهم الذي نزل قبل نزول الزبور.

وفي أسفار التوراة وأسفار الإنجيل: أن ملك بني إسرائيل على فلسطين والأمم سيزول في يوم الرب على يد النبي الآتي، الذي وعد الله به اليهود في سفر التثنية: يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون. ويزول الملك بحرب شديدة، يشبه عذاب اليهود فيها عذابهم في جهنم في الدار الآخرة، ويكون فناء تامًّا كفناء الكافرين بطوفان الماء في زمن نوح عليه الإسلام.

وقد أنذر أنبياء بني إسرائيل اليهود والأمم بالفناء التام على يد النبي المنظر إذا هم ردوه ولم يؤمنوا به: وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات ولا الابن.

وقال المسيح: إن ساعة هذه المعركة يتأتى بغتة، وقد وقعت هذه المعركة في زمان عمر بن الخطاب الذي يكرهه اليهود والصابئون والمسيحيون كرهًا شديدًا؛ لنها تمت في زمانه، ففي الأصحاح الحادي والعشرين من إنجيل لوقا: وإذ كان قوم يقولون عن الهيكل أنه مزين بحجارة حسنة وتحف قال: هذه التي ترونها ستأتي أيام لا يترك فيها حجر على حجر لا ينقض، فسألوا قائلين: يا معلم متى يكون هذا؟ وما هي العلامة عندما يصير هذا؟ فقال: انظروا لا تضلوا، فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: إني أنا

هو والزمان قد قرب فلا تذهبوا وراءهم، فإذا سمعتم بحروب وقلاقل فلا تجزعوا لأنه لا بد أن يكون هذا أولا ولكن لا يكون المنتهى سريعًا.

ثم قال: تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون زلازل عظيمة في أماكن ومجاعات وأوبئة، وتكون مخاوف وعلامات عظيمة في السماء. وقبل هذا كله يلقون أيديهم عليكم ويطردونكم ويسلمونكم إلى مجامع وسجون وتُساقون أمام ملوك وولاة اسمي فيول ذلك لكم شهادة فضعوا في قلوبكم أن لا تهتموا من قبل لكي تحتجوا لأني أنا أعطيكم فمًا وحكمة لا يقدر جمع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها، وسوف تسلمون من الوالدين والإخوة والأقرباء والأصدقاء، ويقتلون منكم، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي، ولكن شعرة من رءوسكم لا تهلك، بصبركم اقتنوا أنفسكم.

ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها، حينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال. والذين في وسطها فليفروا خارجًا والذين في الكور فلا يدخلوها؛ لأن هذه أيام انتقام، ليتم كل ما هو مكتوب، وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب، ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم، وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكَمَّل أزمنة الأمم.

وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كرب أمم بحيرة، البحر والأمواج تضج، والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتي على المسكونة لأن قوات السماوات تتزعزع.

وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحابة بقوة ومجد كثير، ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رءوسكم لأن نجاتكم تقترب.

وقال لهم مثلا: انظروا إلى شجرة التين وكل الأشجار، متى أفرخت تنظرون وتعلمون من أنفسكم أن الصيف قد قرب، هكذا أنتم أيضًا متى رأيتم هذه الأشياء صائرة، فاعلموا أن ملكوت الله قريب، الحق أقول لكم: إنه لا يمضي هذا الجيل حتى يكون الكل، السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول، فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسكر وهموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة. لأنه كالفخ يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض، اسهروا إذن وتضرعوا في كل حين لكي تحسبوا أهلًا للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون، وتقفوا قدام ابن الإنسان. [لوقا 21: 5-16].

وجاء في القرآن الكريم عن هذه المعركة كلام كثير، ولكن الرواة فسروا الساعة بيوم القيامة، لئلا يفطن المسلمون إلى معناها الحقيقي، وهو انتهاء ملك بني إسرائيل على أيدي المسلمين، في الأيام الأولى لظهور محمد ﷺ وقد عبر القرآن الكريم عن ساعة هذه المعركة التي سيزول فيها الملك من اليهود إلى الأبد بأنها قريبة وسيعقبها زوال ملك الروم من فلسطين، وأنذر الله اليهود الكافرين بالهلاك التام في هذه المعركة.

والإنذار لا يكون لأهل مكة المكرمة، وذلك لأن الإنذار يكون بعده هلاك للمنذرين إذا لم ينتفعوا بالإنذار. وقد صان الله أهل مكة من الهلاك.

وإذ هو صانها وحرمها، لا يكون الإنذار في جميع سور القرآن لأهلها، وإنما يكون لليهود الذين جعلوا أورشليم عاصمة لملكهم في فلسطين، من أيام داود عليه السلام.

وعن هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل/ 91].

أم القرى: إما أن تكون مكة، وإما أن تكون أورشليم، لا جائز أن تكون مكة؛ لأن الله حرمها، فتكون أم القرى في الشر لا في الخير هي القرية أورشليم، وقد كانت

أم القرى على شريعة موسى عليه السلام وإذ النبي ﷺ مكلف بالإنذار من قبل هذه المعركة المشبهة بطوفان نوح عليه السلام.

والمسلمون مكلفون بالإنذار في شخصه، من قبل هذه المعركة، يكون النبي ﷺ وأصحابه قد أنذروا اليهود والصابئين والمسيحيين في بلادهم من قبل المعركة، ويكونون قد بلغوهم القرآن كله مكتوبًا من أوله إلى آخره، حتى يكون للإنذار فائدة، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن النبي ﷺ قد بلغ القرآن إلى اليهود في بلادهم من قبل موته، بلغهم به في فلسطين وفي مصر، وفي اليمن وفي الحبشة وفي بلادهم فارس وفي أرض العرب، خاصة أرض نجران التي كان فيها نصارى قد قتلوا بسبب التعريف بمحمد ﷺ من قبل مجيئه، ولا يعقل إنسان أن يكتب النبي ﷺ كتابًا إلى ملك من الملوك يدعوه فيه إلى الإسلام، ولا يرفق بالكتاب نسخة من القرآن الذي منه يعرف الإسلام حق المعرفة، وكيف تثبت نبوته عند أهل الكتاب الذين يريد حربهم للدخول في شريعته، وكيف تثبت نبوته عند أهل الكتاب الذين يريد حربهم للدخول في شريعته؟ إنه إذا لم يثبت لهم نبوته، فإن الإنذار لا يعتد به، لأنه ربما يكون من مدعي نبوة، والنبوة له لا تثبت إلا من قرآنه لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء/ 197] وقد تحداهم بسورة وبعشر سور مثله مفتريات وبه كله، ولا يكون التحدي به إلا بعد وصوله إليهم كاملًا غير منقوص، واليهود يفهمون هذا المعنى ولذلك رووا أن التحدي لم يكن لليهود وإنما كان للعرب، ولسنا هاهنا بصدد مناقشة من هم المتحدون به؟ وإنما نحن بصدد بيان أن نبوة محمد ﷺ لا تثبت عند اليهود إلا به، وإذ هو أنذرهم، يكون هو قد أبلغهم به.

ففي القرآن الكريم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت/ 13] وفي سبب النزول: أنه قرأ عليهم صدر السورة من قبل

الإنذار، وهذا يدل على أن التبليغ يسبق الإنذار، فيكون القرآن قد بلغ لليهود في جميع بلادهم من قبل القرآن، فيكون القرآن مكتوبًا كله في حياة رسول الله ﷺ ولكن الرواة جعلوا سبب النزول في العرب وهم يعلمون أن العرب لا ينذرون.

ومن آيات الإنذار:

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل/ 14] والإنذار لليهود. وكنى بالنار عن شدة المعركة، لما جاء عنها في سفر إشعياء، لأنه ذا الرب بالنار يأتي، ومركباته كزوبعة، ليرد بحمو غضبه وزجر بلهيب نار، لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر، ويكثر قتلى الرب... [إش 66-15] والرب ههنا هو السيد النبي المنتظر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة/ 6] ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام/ 19] والمخاطبون هم اليهود ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام/ 92] ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ﴾ [مريم/ 97] والقوم اللد: اليهود ﴿ وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص/ 46] المراد بالقوم: اليهود، ولم يأتهم من العرب نبي غير محمد ﷺ ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف/ 2] والإنذار لليهود وللمسيحيين معا ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٍ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾ [التوبة/ 122] يخبر أن الدين في اليهود كان قصرا على الهارونيين واللاويين وقد نسخ هذا الحكم بطائفة من كل فرقة من الذين آمنوا منهم، ولينذروا

اليهود إذا رجعوا إليهم ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم/ 44]. المراد بالناس في جميع سور القرآن اليهود، والعذاب المعهود هو عذابهم على أيدي المسلمين في يوم الرب.

أهل نجران:

ولنستدل أيضًا بما جاء في أسباب النزول عن وفد نجران:

ووفد نجران مسيحيون –لا نصارى كما جاء في أسباب النزول- فإن أتباع عيسى الأولين إلى حين تحريف الإنجيل، كانوا يعرفون بالنصارى، وأما من بعد تحريفه فإنهم يعرفون بالمسيحيين، لأن المحرفين جعلوا عيسى هو المسيح، الذي ينتظره اليهود، والمسيح –على حسب لغتهم- هو النبي الآتي مثل موسى وهو محمدﷺ فالنصارى كانوا يبشرون بمحمد ﷺ والمسيحيون إلى هذا الزمان ينكرونه ويزعمون أن المسيح هو يسوع الذي يدعى المسيح.

واليهود كانوا في زمان أهل نجران يحكمون بلاد اليمن وملكهم كان هو ذو نواس، والحبشة كانوا مسيحيين، فالجميع ينكرون محمدًا ﷺ واختلف المسيحيون في أول من بشر بالمسيحية في أرض العرب، فمنهم من قال هو «برثوا لماوس» وكان معه نسخة من إنجيل متى، وقد رآه «بنينوس» سنة 180م ومنهم من قال هو «توما».

والمسيحيون المختلفون هؤلاء كاذبون، فإن إنجيل متى كان بيد النصارى وقد كتب بمساعدة برنابا وكان فيه اسم محمد ﷺ وفي سنة مائة وثمانين ميلادية لم تكن النصرانية قد حرفت إلى المسيحية، والعرب يقبلون النصرانية ولا يقبلون المسيحية، لأن النصرانية ليست دينًا مستقلا عن دين بني إسرائيل، وإنما هي التبشير برسول اللهﷺ والعرب لا يرفضون معرفته، ولن يكفروا به إذا جاء، لأنهم به سيملكون على

العالم، أما المسيحية فإنها إنكار رسول ﷺ إلى الأبد وأيضًا: هي موضوعة على أن الله يغفر الخطايا للمذنبين بلا أعمال، فلما وصل النصارى إلى نجران وبشروا بمحمد ﷺ أحرقهم ذو نواس داخل كنيس لهم، وقيل: حفر لهم ذو نواس اليهودي 523-525م أخدودًا. وقيل: إن الأخدود هو خزان ماء، وهو الذي وضع فيه ذو نواس الوقود لإحراق النصارى فيه(١).

ويقول المسيحيون في كتبهم: إن مذهب الأبيونيين **Ebionism** وهم اليهود المتنصرون كان منتشرًا في تلك البلاد. وكانوا ينكرون إلاهية المسيح، ويرون فيه معلمًا فقط، ويحبون أعمال البر، ويرفضون الذبائح المذبوحة باسم الأصنام.

ولم يحضر في نيقية سنة 325م وفد نصارى العرب، وهذا يدل على أن النصرانية كانت تبشيرًا ولم تكن دينًا، ويقول المسيحيون: إن الذي حضر في نيقية هو يوحنا أسقف الهند، ويعنون بالهند بلاد اليمن، وهذا عبث؛ لأن اليمن غير الهند.

وفي كتب المسيحيين:

1- أن ذا نواس أحرقهم داخل معبد لهم وكان ذلك في الخامس عشر من شهر نوفمبر من سنة خمسمائة وثلاثة وعشرين ميلادية وأن امرأة وهي تلقى في النار قالت لرضيع لها: إن طبيعة الأمومة تمنعني من أن ألقيك معي في النار. وإذا بالرضيع ينفتح فمه ويخاطب أمه بقوله: هيا بنا يا أمي إلى هذه النار، فإنه لن توجد نار لنا بعدها.

2- قيل: إن الحرق في خزان ماء، جعلوه أخدودًا لحرقهم فيه، ولما ظهر محمد ﷺ وسمع به فيمن سمعوا به أهل نجران، ذهب إليه نفر كثير منهم وآمنوا به، ويقول الرواة: إن الذين ذهبوا إليه هم المسيحيون وأنهم لم يؤمنوا به، ولذلك طلب منهم المباهلة.

---

(١) كتاب الحميريين xlix lxiii. أيضا شهداء نجران وعلى ظهر الغلاف صورة الأخدود.

ويقول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران/ 61-64] أنه يتكلم عن المجادلين في شأن عيسى عليه السلام، فمن أدرى هؤلاء الرواة أن المجادلين هم قوم مخصوصون، وأنهم أهل نجران؟ فليقرأ الناس الآيات أكثر من مرة، وإنهم لن يجدوا فيها أي أثر يدل على وفد لنجران أو لغير نجران، فمن أدراهم أنهم هم أهل نجران؟ وقد كانوا نصارى مجاهدين في سبيل الله قتل اليهود آباءهم بسبب تصريحهم بمجيء محمد ﷺ قبل مولده بسنوات معدودة.

وفي مدة هذه السنوات المعدودة لم يكن قد نسي الأبناء ثأرهم من اليهود، ولم يكونوا أيضًا قد نسوا شهادات آباءهم عنه، ولذلك عكس الرواة شهادات آبائهم في صورة امتناع أبنائهم عن الإسلام، للغو في هذه الشهادة التاريخية القيمة شهادة أهل نجران لمحمد ﷺ وهي شهادة ثابتة من كتب السريان وكتب المسيحيين، وكتب الرومانيين وكتب الأحباش، وفوق الكل هي شهادة ثابتة بالقرآن الكريم بما حدث لهؤلاء المجاهدين في سبيله.

وقال الرواة بغير علم إرضاء للشيعة: إن النبي ﷺ جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها، وهو يقول لهم «إن أنا دعوت فأمنوا» والآية لا تشهد للرواة فإن فيها الأبناء وهم جمع ابن وفيها النساء، وهن جمع امرأة وفيها النفوس، وهم جمع نفس في

مقابل أنفسهم التي هي أيضًا جمع، والكاذبون جمع فلنحسب الحسن والحسين. وهما اثنان ولنحسب النساء وليس غير فاطمة وهي مفردة، ولنحسب محمدًا وعليًا، وهما نفسان اثنان، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ ﴾ [آل عمران/ 64] عقب آية المباهلة يدل على اليهود والصابئين والمسيحيين إلى يوم القيامة، ولا يدل على نصارى نجران من دون أهل الكتاب ، وإلا فليكن كل ما في القرآن عن أهل الكتاب لقوم بأعيانهم، وهذا لا يقول به عاقل، ولذلك جاء في تفسير القرطبي: وقيل: هو لليهود والنصارى جميعًا، وقوله والنصارى خطأ، وصحته والمسيحيين كما قد بينا من قبل.

وفي تفاسير القرآن: أن السورة كانت تنزل، فيكتبها كتاب الوحي في وقت نزولها، فسورة الأنعام وهي سورة عدد آياتها مائة وخمسة وستون آية نزلت جملة واحدة، وشيعها سبعون ألف ملك، نزلوا بها ليلًا لهم زجل بالتسبيح والتحميد. فدعا رسول الله ﷺ الكُتَّاب فكتبوها من ليلتهم، وعن أنس بن مالك عن رسول ﷺ أنه نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين، والأرض ترتج لهم ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان ربي العظيم».

فنزول السورة جملة، وكتابتها وقت نزولها بإملاء من فم النبي ﷺ الذي يقف وراءه جبريل عليه السلام وقت الإملاء يدل على أن النبي ﷺ قد كتب القرآن كله للناس في حياته، في أوراق كثيرة، لا على عظام جمال، ولا على لحاء شجر، ومن هو هذا الذي يصدق أن سورة كبيرة كالأنعام تكتب على عظم كتف جمل، أو لحاء شجر؟ ولما كمل القرآن نزولا، نزل عليه جبريل ورتب له السور وعارضه مرتين.

فإذا استعد النبي ﷺ لغزوة من الغزوات، وعنده سورة الأنعام مثلا فأي مانع يمنعه من أن يطلب من الكُتَّاب أن يكتبوا منها نسخة ليرسلها إلى الذين يريد حربهم من قبل الحرب، بلاغًا وإنذارًا؟ وأي يمنعه من أن يوافق على كتابه نسخة منها لمن يريد نسخة منها؟ ليس من مانع. وبذلك كثرت سور القرآن في البيوت، وكثر الحفاظ، ففي كتب التفاسير: أن أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه واسمها فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد، وخباب بن الأرت كانوا يقرءون سورة طه في بيت زوجها، وأن عمر أخذ منهم السورة وقرأها، وهذا يدل على أن السورة وهي مائة وخمس وثلاثون آية كانت مكتوبة في غير بيت النبي ﷺ وأن المعلم لهما هو خباب بن الأرت ولا يستبعد العقل تعليمه هو وغيره لغيرهما، فتكون السور منتشرة في البيوت، كتابة في الأوراق وحفظًا في الصدور.

ولما عارضه جبريل في نهاية أيامه، صار عنده القرآن كما هو عندنا اليوم بلا زيادة وبلا نقصان.

ولما أراد أبو بكر رضي الله عنه تسيير الجيوش لفتح فلسطين عاصمة ملك بني إسرائيل، أمر بكتابة نسخة من القرآن ليحملها رئيس الجيش إلى أهل الكتاب فيها، لتكون دليلا على إثبات نبوة محمد ﷺ بإعجاز القرآن، ولتكون إنذارًا من قبل الحرب.

وهي النسخة التي لغا الرواة فيها بقولهم: إن القرآن لم يكن مجموعًا في حياة النبي، وأن أبا بكر جمعه من أفواه الناس ومن فوق العظام والرقاع والعسب وما شابه ذلك.

من الكتب النادرة في مقارنة الأديان

تنوير الأذهان
في
الرد على مدعي تحريف القرآن

تأليف

العلامة/ مُحمّد زكِيّ الدّين سَنَد

دراسة وتحقيق وتعليق

نادِى فَرَج دَرْيش العطّار

كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر

والدراسات العليا بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مَركز ابن العَطّار للتراث

القاهرة

ت 00224052600

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي نَزَّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه الجلود، فرقانًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل الواجب الوجود، أنزله على رسوله الصادق الأمين قرآنًا عربيًا غير ذي عوج، وجعله تأييدًا لرسالته، أكبر معجزات وأبهر حجج، فأفحم مَدَاره المصاقِعَ من مهرة ذوي اللسان، وأعجز فطاحل البلغاء من سحرة أولي البيان؛ فنطقت بالقصور عن مباراته العرب العرباء، وشهدت بالعجز عن مجاراته خُلَّص الفصحاء.

والصلاة والسلام على المرسل بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، المؤيَّدِ بمحكمِ كتابٍ، أعجز فحول البلاغة عن أن يأتوا بسورةٍ من مثله، المنزَّل عليه في ذلك الكتاب المكنون: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر/ 9].

سيدنا محمد الفائض على نوابغ كلمه صوب الصواب، الآتي في بوالغ حِكَمِه بالعَجَبِ العُجَاب؛ وعلى آله وأصحابه الذين بلغوا بلسان الحق بلاغه، وأتباعِه وأحزابِه الذين بلغوا منتهى الفصاحة والبلاغة.

أما بعد

فيقول المتعلق بذيل العلم الأطهر، المنتظم في سلك طلبة جامع الأزهر، الفقير إلى مولاه رب العالمين، عبدُه محمد زَكِيّ الدين:

لما كان العلم بتوفيق الله وفتوحه، لا بحواشي زيد وشروحه، وبالقسم المقدور لا بالاسم المشهور، وبالمناوبة لا بالمناهبة، عَنَّ لي أن أردَّ على مدعي تحريف القرآن

العظيم الجليل العلي الشان؛ فجمعتُ من الرد عليه ما لنافع لا ابن كثير؛ لينصف المنصف، وما أولو الإنصاف في الدنيا بكثير. فإن العلم على عفاء ودروس، أو على خفاء وطموس، وأهله يقاسون من عيوب الزمن ما لا يُعهد، ويعانون من خطوب الدهر ما لا يُحمد، فصار ما يكابدونه قاطعًا عن سلوك مناهجه، مانعًا من صعود معارجه، فالناس بين رجلين: رجل ذاهب عن الصدق ذاهل عن الحق، وآخر مكدود في صنعته مصدود عن نصرته؛ حتى أدى ذلك إلى ما يدخل في باب النادر الشاذ، وبالله العياذ.

فمن ذلك: ما زعم مؤلف «البرهان الجليل على صحة التوراة والإنجيل» أنه رأى أنه استدل فيه على صحة هذين الكتابين ببعض آياتٍ قرآنيةٍ، وزعم أن بالعمل بهما تنال السعادة الدنيوية والأخروية. ثم ادعى إثر ذلك تحريفَ القرآن العظيم الشأن. وهذا هو الداعي لتأليفي هذه الرسالة، والباعث على تصنيفي تلك العجالة المسماة:

تنوير الأذهان في الرد على مدعي تحريف القرآن

وقد جئتُ في الرد عليه ونفي ما ثبت لديه ببراهين نقلية، ودلائل عقلية؛ ليرجع المطلع بالفائدتين، ويجمع المحصِّل بين الحسنيين. ومن نظر في رسالتي هذه بعين الإنصاف وجانب طريق التعصب والاعتساف، رأى أن المدعيَ قال شططًا، وارتكب فيما توهم غلطًا.

ومن لم يقدم رجله مطمئنة ويثبتها في مستوي القاع؛ يزلق

فإن مركب التعصب عثور، ومذهب التعسف محذور.

ولكن إذا ما القلب أُشرب حب شيء فلا تأمل له عنه انصرافا

كلام المسيحيين في تحريف القرآن

قال المدعي بعد أن تخيَّل أنه أثبت صحة النسختين الموجودتين الآن من التوراة والإنجيل ببعض آيات القرآن: «وليتنا نرى أصحابنا المسلمين يدققون في الفحص عن كتابهم؛ ليقفوا على كيفية جمعه وتأليفه وتصحيحه وحفظه؛ ليتضح لهم: هل الكتاب الذي في أيديهم اليوم باقٍ على أصله وموافق لما كان في أيدي محمد وأصحابه، أو وقع فيه التحريف والتبديل والتغيير؟ إننا نرى أكثرهم غير معتنين بهذه المسائل المهمة، بل يتوهمون أن القرآن أنزل على محمد، وأن محمدًا سلَّمه إلى أصحابه، وأصحابه إلى الذين بعدهم، وهكذا السلف للخلف، حتى وصل إليهم على ما كان عليه في الأصل، من دون أدنى تغيير وتحريف، والحال أن الأمر ليس كذلك كما يشهد به أشهرُ علمائهم، في جملةٍ من كتبهم المعتبرة أشد الاعتبار عندهم، كما سنبينه على سبيل الاختصار فنقول...».

الرد على المسيحيين

أقول وبالله الهداية والتوفيق إلى أقوم سبيل وأوضح طريق:

سيأتي قريبا إن شاء الله تعالى الإيضاح الكافي والإثبات الشافي على أن القرآن ليس بمحرف ولا بمبدل؛ لأن الكلام الذي سيأتي بعدُ من المدعي أقوى مما هنا، ولكن لا ينبغي ترك هذه العبارة التي ذكرتُها بدون التكلم عليها، ولو من قبيل إبداء الملحوظات. فأقول:

قد تمنى المدعي أننا -معشر المسلمين- ندقق الفحص عن كتابنا؛ لنقف على كيفية جمعه وحفظه. ولكن غير خافٍ على المطلع الخبير والناقد البصير أن الإنسان لا يتمنى إلا ما لم يكن داخلًا في حيز الوجود ومعدودًا من زمرة الواقع، وإلا كان من قبيل تحصيل الحاصل وتمنِّي وجود الموجود.

فيؤخذ من ذلك: أن المدعيَ يرى أننا لم ندقق الفحص عن كتابنا، وهو أمر لا حقيقة له ولا قائل به سواه، فستقف عند التكلم على حفَّاظ القرآن وترتيب سوره وآياته ما تنقشع به سحائبُ الريب، وتتبدد به غياهب الشك، وتتأيد به جوانب اليقين، فينادي داعي الحق وطالب الصواب: أن لا التفات إلى قول المدعي ولا تعويل على دعواه؛ فإنها لم تكن عند القول إلا كصرير باب أو طنين ذُباب، ولم يكن تمنيه لنا ذلك إلا من قبيل من يهرف بما لا يعرف.

اللهم إلا أن يقال لنا: إن المراد بـ«أصحابه» في قوله: «وليتنا نرى أصحابنا المسلمين... إلخ». هم الذين لم يذوقوا حلاوة العلم والمعرفة، ولم يكرعوا من موارد الفضل غير كأس الجهل والسفه، أخذًا من الإضافة في قول أصحابنا:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وعلى فرض أننا لم ندقق الفحص عن كتابنا، فلا يخلو تمنيه لنا ذلك من أمور، أقربها: أننا متى دققنا في الفحص عن كتابنا، وقفنا -حسبما ادعاه- على ما فيه من التحريف والتبديل، وحينئذٍ فلا يسوغ عقلًا ولا يجوز طبعًا أن نقول: إن كتبهم محرفة، وعباراتها حادثة، وأحكامها متناقضة. فإننا حينئذٍ نَعِيبهم بأمرٍ واقع في أساس ديننا وحاصل في نور شريعتنا -كما أراد المدعي إقناعنا على زعمه بذلك-؛ ظنًّا منه أن أوهامه الباطلة وتخيلاتِه الفاسدة تؤثر على الأفكار؛ فتكثر طائفتُه وتكبر أمتُه.

والأغلب أن هذا مراد المدعي؛ بدليل قوله في خاتمة رسالته: «ومن كان على ضلال، فلا يجوز له أن يُقِيم على ضلاله متى ظهر له الهدى ببرهان مقنع».

فلاحظ قوله: «ببرهان مقنع» مع قوله قُبيل ذلك ببضعة سطور: «إذِ القصدُ الخصوصي من هذه الرسالة ليس إلا إقناع أصحابنا المسلمين».

هذا وبالجملة إننا نرى المدعيَ قد أفرغ لنا نصيحةً في قالب التمني لا يقولها بزعمه إلا من طُبع على الإخلاص، ومَحَّضَ نصحه عمومَ الناس غيرَ مُفرِّقٍ بين عدوه وصديقه، وحبيبه وبغيضه. وهذا غايةٌ[1] في مكارم الأخلاق، ونهاية في محاسن الطباع، وكذلك فلتكن العقلاء وهكذا فلتفعل الألبَّاء، فإنه لم يَرْضَ لنا أن نثبت على مزلقة الأقدام، ولا أن نُدلج في مضلة عمياء. فيا حبذا لو وجد لهذه النصيحة أهلًا، ومن يقول لها: مرحبًا وسهلًا. أو يا حبذا لو انتفع هو أوَّلًا بمثلها، وعَضَّ بنواجذه على شكلها، فإن الأجدر به أن يسلك هو في تلك المسالك، ويُجيل النظر فيما هنالك.

أما قوله: «ليتضح لهم: هل الكتاب الذي في أيديهم اليوم باقٍ على أصله وموافق لما كان في أيدي محمد وأصحابه، أو وقع فيه التحريف والتبديل والتغيير؟» فهو قول يُبطل دعواه ويؤيد قولنا؛ لأن عبارته فيما يأتي تفيد أنه لم يكن في العصر النبوي من يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب... إلى آخر ما قاله؛ مما يؤخذ منه أن التحريف من مستلزماته، وهنا أقر بأن القرآن كله كان في أيدي الصحابة ﷺ، وإلا فما معنى قوله: «ليتضح لهم... إلخ».

وعليه فحيث انتفى الملزوم -وهو أنه لم يكن في الزمن الأول من يحفظ القرآن كله-، انتفى اللازم -وهو توهم التحريف والتبديل-؛ لأن أبا بكر الصديق وعثمان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم ممن وقفوا على جمع القرآن ووافقوا على صحة جمعه هم من أخصاء الصحابة، وملازمي أعتاب النبوة الذين بالغوا في حفظ الشريعة وصيانة الدين بجمعهم للقرآن على ما وَقَّفهم عليه النبي ﷺ بدون تغييرٍ ولا تحريفٍ؛

---

(١) المؤلف يتهكم بالمسيحي.

إذ ليس هناك من باعث يقضي عليهم بذلك كما لا يخفى، فكيف لم يكن ما في أيدينا اليوم باقيًا على أصله وموافقًا لما كان في أيديهم؟! إن هذا لشيء عجاب.

ولو قيل: مراده أن القرآن كان في أيدي الصحابة على التوزيع، وكان جمعه على يد نفرٍ ليس بكثير.

قلت: إن جمعه لم يكن إلا علنًا مع إحاطة علم الجميع به؛ بدليل قول عمر ﷺ: «من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن، فليأتِ به»[1]. وقد ذكر ذلك المدعي فيما سيأتي.

أما قوله: «إننا نرى أكثرهم غير معتنين بهذه المسائل المهمة».

فهو قول مردود بالبداهة غير مقبول من أول وهلة؛ لأن المراد بـ«الأكثر» لا يخرج عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يراد به: العلماء المتقدمون. وهي دعوى عريضة، لا تصدر إلا عن رجل استقصى ما في كتبهم وأحاط علمًا بما في مؤلفاتهم، ورأى -وإن كان بعيدًا أو مستحيلًا- أنها خالية من هذا الموضوع أو فيما لا يقوم بالواجب. فإن كان المدعي كذلك، فجدير بأن تُضرب إليه أكباد[2] الإبل وتُشد إليه الرحال وتُؤخذ عنه العلوم وتُتَلَقَّى منه المعارف، ولكن يحول بيننا وبينه أنه مخفي الاسم.

الأمر الثاني: أن يراد به: علماء عصرنا. وهذا أيضًا لا يتصوره منصف ولا يقوم بفكره خبير؛ لأنهم ما سُمُّوا علماء إلا لعلمهم ولا عُرفوا بالفضل إلا لفضلهم، فكم فرَّقوا نومهم في جمع شوارده، وفارقوا قومهم لوصال خرائده، فهم المكلفون صناعةً وشرعًا بإملاء الفوائد وإلقاء الدروس على اختلاف أنواعها وتباين ضروبها، وهم

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر 16/ 365.

(٢) المؤلف يتهكم بالمسيحي ويقصد أنه مخفي الاسم.

ذوو الفحص الدقيق والبحث القوي، وأولو التنقيب الشديد والتنقير السديد. وعلى فرض أنهم لم يدققوا الفحص عن كتابنا، فقد كفاهم مُؤْنة ذلك العلماء المتقدمون، كما يشهد به كل منصف اطلع على كتبهم ورأى ما فيها من ضروب الاعتراضات وأنواع التوجيهات والأخذ والرد والحل والعقد، وتصحيح هذه الرواية وتضعيف ذاك الطريق، مع الرجوع إلى الإذعان بأن ما بين الدفتين هو المنزَّل على نبينا ﷺ للإعجاز بأقصر سورة منه، المتعبَّد بتلاوته. مستدلين على ذلك بأقوى الحُجَج وأثبت البراهين من صحاح الأحاديث ومحاسن الطرق، وإن من تلك الحجج ما سيأتي ردًّا على المدعي في دعواه، فإني ما نقلتُه إلا من كتب المتقدمين ولا جئتُ به إلا من مؤلفات السابقين.

الأمر الثالث: أن يراد به: الجهلاء. وهذا أيضًا فاسد لا فائدة فيه ولا تقوم به الحجة؛ لأنهم ليسوا قائمين بهذه المهنة، ولا هم أرباب تلك الصناعة، ولا هم مكلفون بذلك؛ لأنه سقط عنهم لقيام العلماء الأعلام به ودراسة الفضلاء الفحول له.

أما قوله: «بل يتوهمون أن القرآن أنزل على محمد، وأن محمدًا سلَّمه إلى أصحابه، وأصحابه إلى الذين بعدهم، وهكذا السلف للخلف، حتى وصل إليهم على ما كان عليه في الأصل من دون أدنى تغيير وتحريف».

فهو على حقيقته، لكننا لا نتوهم ذلك بل نعتقده بعد البحث الدقيق والتأمل الفكري؛ كاعتقاد كل إنسان بأن الواحد نصف الاثنين، والكل أعظم من الجزء، وأن الضدين لا يجتمعان، والإيجاب والسلب لا يرتفعان.

ونحن -معاشر المسلمين- موافقون على ذلك ما بين علماء وجهلاء، وخواص وعوام. غاية الأمر أن العلماء يعرفون ذلك حق المعرفة، ويعلمونه علم اليقين؛ نظرًا لوقوفهم التام على ما في هذا الباب من الأحاديث والروايات، مع اختلاف طبقاتها وتباين درجاتها واطلاعهم العام على ما في ذلك الصدد من الأسانيد الثابتة والطرق

المتصلة، مع ثقة الرواة وصدق الرجال. وهذا لا محالة يستلزم التصديق ويستوجب التسليم؛ بخلاف ما إذا لم يكن عندهم سند متصل وطريق ثابت؛ لأنه لا بد لكون كل كتاب سماوي واجب التسليم من دليل تام وسند متصل، إذ لا يكفي في ذلك - عند انقطاع السند وعدم اتصاله- القول بالظن والرجم بالغيب.

وكذلك عزو التصنيف إلى شخص ذي إلهام بمجرد الظنون والأوهام، لا يكفي فيه أيضًا مجرد ادعاء فرقة أو فرق؛ لأن الظن لا يغني شيئًا ولا يجدي الادعاء نفعًا، فما دام الإتيان بدليل شافٍ وبرهان وافٍ مفقودًا غيرَ مشهود أو معدومًا غيرَ موجود؛ فالادعاء باطل وتسليمه أبطل منه، وإيراد الدليل يكون في ذمة القائل بالظن والراجم بالغيب.

ونحن -معاشر المسلمين، والحمد لله- عندنا السند المتصل والطريق الثابت، ولا نقول بالوهم ونرجم بالغيب، ولا ندعي الإلهام بمجرد الأوهام، ولم نتمسك بالقرائن ونتعلق بالحدس والتخمين، ولم تقم قيامة المصائب علينا وتُشن غارة النوائب بنا إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة[1]، ولم يُفقد كتابنا مرارًا عديدة أو مرةً واحدةً، ولم يكن ناطقًا بأوصاف نبي يأتي بعد نبينا ﷺ، فحرفنا تلك الأوصاف وبدلناها محافظة على المركز، وخوفًا من ضياع الرئاسة، ولم يسوِّل لنا الشيطان معتقداتٍ فقوَّمناها وقوَّيناها بوضع النافع لمعتقدنا وحذف الضار به. كل ذلك لم يحصل ولا غيره مما تحكم البديهة بسببه أنه وقع فيه التحريف ويقضي الطبع بأنه ثبت به التغيير والتبديل.

فتأمل أيها المدعي في هذه الكلمات الوجيزة، وراجع ذمتك ولا تتحرج.

أما قوله: «والحال أن الأمر ليس كذلك».

---

(١) السنة التي اعترف فيها الرومان بالمسيحية، وكفوا أيديَهم فيها عن تعذيب النصارى وحرق كتبهم وإتلافها.

فإنه نظرًا لما ساقه التعصب إليه وبعثه التعسف عليه أو لما أدَّاه إليه فهمُه وعوَّل عليه وهمُه على فرض خلوه من الأغراض والعلل والأمراض، فإن التعصب حجاب بين الإدراك والحقيقة، وستر بين العقل والواقع. فيأيها المدعي، كان الواجب عليك - إن كنت ممن يهتدي بالبحث أو يزداد به رسوخًا- أن تغسل فكرك من درن التعسف بماء الإنصاف، وتجلو ذهنك من صدأ التعصب بصقال الاعتراف؛ حتى تتوخى الصدق في كلامك، وتثبت البِرَّ في عبارتك وإلا:

فإذا لم تَرَ الهلال فسلم   لأناس رأوه بالأبصار

أما قوله: «كما يشهد به أشهر علمائهم في جملةٍ من كتبهم».

فهو قول عارٍ عن الصحة خالٍ من الحقيقة؛ لأنه لم يقل فردٌ من أفراد العلماء بمُدَّعَاه، ولم يَرَ أحدٌ منهم ما رآه، فإن ما أوردوه من البخاري حجة لنا لا له، وعليه لا علينا. وإنما الذي أوقعه في ذلك هو التعصب، ليس إلا كما أشرنا إليه فيما تقدم، وما نسبه للسيوطي في كتابه «الإتقان»، لم يجئ به إلا على سبيل المغالطة أو الإيهام، وسيأتي لذلك مزيد بيان.

أما قوله: «المعتبرة أشد الاعتبار عندهم».

فليس فيه ما يستدعي الملاحظة سوى أنه قيد اعتبار تلك الكتب بقوله: «عندهم»، وكأنه أتى بهذه الظرفية خوفًا من ملاحظة أحد أفراد الناس بأن تلك الكتب معتبرة عنده أيضًا، ولكن من المعلوم بالضرورة أن كتبنا غير معتبرة عنده وعند أمثاله، وكذلك العكس. فهذا القيد في الحقيقة ما أفاده بشيء، وربما أضر به كما يدركه كل منتقد ظريف.

على أنه لو قيل: أراد الخروج من دائرة العموم، مع الإشارة إلى أنه حريص في كتابته خوفًا من الوقوع فيما يقال.

لقلت إلى حيث يشاء: لكن كان الأولى أن يحترس، مما وقع فيه سابقًا ولاحقًا.

أما قوله: «كما سنبينه على سبيل الاختصار».

فغير مُسَلَّم؛ لأنه لم يُقِم حجةً على مُدَّعاه، ولم يأتِ ببرهانٍ على ما توهمه وقال به، فإن جميع ما استدل به لم يخرج عن كونه حجةً لنا كما يتضح لكل خبير. وغاية ما يُفهم منه أن القرآن محرف: إنما هو من جُمَلِه المبتكرة التي جعلها عنوانًا للدخول في الموضوع، وهذا أشبه شيء بمقدمات لا نتائج لها، يتلقاها النقل بأكف التسليم، ويتقبلها العقل بقبول حسن؛ إذ لا حقيقة لها ولا دليل عليها، فهي بحت افتراء ومحض ادعاء:

ومن ادعى شيئًا بغير دليله لا بد يوما أن يُكَذَّبَ ما ادعى

كلام المسيحي في أن القرآن كان مكتوبا على سعف النخيل

قال المدعي: «أولًا: أن القرآن في حياة محمد لم يكن مجموعًا في كتاب واحد كما هو الآن، بل كان -على قول العلماء- محفوظًا في صدور الناس، وكان كل من المسلمين يتعلم ويحفظ جزءًا منه على حسب اقتداره، فكان واحد يحفظ سورة وآخر سورة أخرى، وهذا بعض آيات وذاك بعض آيات أخرى، وكان بعض أجزاء القرآن مكتوبًا على جلد، وبعضها على سعف النخل، وبعضها على عظام محفوظة في بيت حفصة إحدى نساء محمد، ولم يكن القرآن حينئذٍ مجموعًا في صحف ولا مرتب السور والآيات كما هو الآن، ويشهد بصحة ما قلناه البخاري في صحيحه وجلال الدين السيوطي في كتابه المسمى «كتاب الإتقان في علم القرآن» وآخرون من العلماء المشهورين لا حاجة إلى ذكرهم هنا».

الرد على شبهة أن القرآن كان مكتوبا على سعف النخيل

أقول: قد أنكر المدعي في هذه الجمل ثلاثة أمور:

أحدها: أنه لم يكن في العصر النبوي من يحفظ القرآن كله عن ظهر قلبه ويجمعه على صفحات صدره.

ثانيها: أن القرآن لم يكن إذ ذاك مرتب السور حتى جمعه أصحاب رسول الله ﷺ.

ثالثها: أنه لم يكن مرتب الآيات أيضًا.

وأراد بإنكاره هذه الأمور الثلاثة إثباتَ التحريف والتغيير. وهيهات أن يتمَّ له ذلك هيهات! ولكن يجب علينا وجوبًا صناعيًّا أو على سبيل المجاراة له حيث قال: «ويشهد بصحة ما قلناه البخاري في صحيحه والسيوطي في إتقانه» أن نثبت تلك الأمور ببعض الأحاديث النبوية والآثار المحمدية، مقسمين ذلك إلى ثلاث فصول:

الفصل الأول
في
ترتيب الآيات

لقد نطقت الأحاديث ودلَّت الآثار على أنه ﷺ وقَّف أصحابه على ترتيب آيات القرآن وعلَّمهم مواضعها ومواقعها من سُوَره. فكون ترتيب الآيات أمرًا توقيفيًّا مما لا شبهة فيه؛ حتى نقل جمع -منهم الزركشي في «البرهان» وأبو جعفر في «المناسبات»- الإجماع عليه من غير خلاف بين المسلمين، والنصوص متضافرة على ذلك والأدلة متساوقة إليه:

فمنها: عن أُبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ عرض عليَّ القرآن في السنة التي مات فيها مرتين، وقال لس: «يا أُبي، إن جبريل عليه السلام أمرني أن أقرأ عليك القرآن». قال أُبي: لما قرأ رسول الله ﷺ عليَّ القرآن. قلت: يا رسول الله، كما كنت لي خاصة بقراءة القرآن، فخصني بثواب القرآن مما علمك الله وأطلعك عليه. قال: «نعم يا أُبي، أيما مسلم قرأ فاتحة الكتاب، أُعطي من الأجر كمن قرأ ثلثي القرآن، وأُعطي من الأجر كمن تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، ومن قرأ سورة البقرة إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة/ 157]. أُعطي من الأجر كالمرابط في سبيل الله لا تسكن روعته». وقال: «يا أُبي، مُرِ المسلمين أن يتعلموا سورة البقرة؛ فإن تعلمها بركة، وفي تركها حسرة، ولا يستطيع تعلمها البطلة». قلت: يا رسول الله، وما البطلة؟ قال: «السحرة». أهـ.

فهذا يدل على أن القرآن كان مرتبَ الآيات في زمن النبي ﷺ، وإلا لما أمكن الحكم على الآية أو الآيات بأنها في سورة كذا، فضلًا عن كونها على ما أخبر به ﷺ من هذا الترتيب في قراءته، ولو كان ترتيب الآيات على ما هو عليه الآن اجتهادًا من

الصحابة؛ لوقع اختلاف كثير بينه وبين ما جاء في الآثار النبوية والأخبار المحمدية، وليس الأمر كذلك كما يُعلم من الحديث المتقدم وغيره مما يأتي.

ومنها: ما أخرجه الحاكم بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع». الحديث(١).

ومنها: ما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ إلى آخرها [النحل/ 90](٢).

ومنها: ما رواه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة؛ حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: «تكفيك آية النصف التي في آخر النساء»(٣).

ومنها: ما روي عن أبي أمامة مرفوعًا عن النبي ﷺ: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى في ثلاثة سور: في البقرة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة/ 255]، وفي أول آل عمران: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران/ 2]، وفي طه: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ ﴾ [طه/ 111]».

---

(١) مستدرك الحاكم 2/ 249 (2901)، 2/ 668 (4217). صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٢) مسند أحمد 4/ 218 (17947). وإسناده ضعيف؛ ففيه ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب.

(٣) هذا لفظ رواية أحمد 1/ 26 (179) لا مسلم. أما رواية مسلم فلفظها: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري فقال: «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وإني إن أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن، ومن لا يقرأ القرآن». ينظر: صحيح مسلم (كتاب: المساجد ومواضع الصلاة/ باب: نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها/ رقم الحديث: 567).

ومنها: ما ورد أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل منها بعضها ويكف عنا. قالوا: بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال عتبة: يابن أخي، إنك منا حيث قد علمتَ من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومكَ بأمر عظيم فرَّقتَ به جماعتهم وسفَّهتَ به أحلامهم وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرتَ من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها؛ لعلك تقبل منا بعضها.

فقال ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أَسمع».

قال: يابن أخي، إن كنتَ إنما جئتَ بهذا تطلب مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تطلب الشرف منا فنحن نسوِّدك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الأمر الذي يأتيك رِئيًا -أي: مسًّا من الجن- قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك أو نعذر.

فقال رسول الله ﷺ: «أفرغتَ يا أبا الوليد؟»

قال: نعم.

فقال: «فاسمع مني».

قال: فافعل.

فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت/ 1-3]. فمضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه. فلما سمعها عتبة، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره، معتمدًا عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: «سمعتَ يا أبا الوليد؟»

قال: سمعتُ.

قال: «فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال: بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: والله سمعتُ قولًا ما سمعتُ بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها فيَّ، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب كُفيتموه، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به.

قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه؟

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالًا:

ما ثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء في حديث حذيفة والأعراف في صحيح البخاري أنه ﷺ قرأها في المغرب.

وقد روى النسائي أنه ﷺ قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون/ 1] في الصبح حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أخذته سعلة، فركع(٢).

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ص 182، ودلائل النبوة للبيهقي 2/ 79.

(٢) سنن النسائي (كتاب: الافتتاح/ باب: قراءة بعض السور/ رقم الحديث: 1007).

وروى الطبراني أنه ﷺ قرأ سورة الروم في الصبح، و﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ [السجدة/ 1، 2]، و﴿ هَلۡ أَتَىٰ ﴾ [الإنسان/ 1][(١)]. وروى الشيخان أنه ﷺ كان يقرأها في صبح الجمعة[(٢)].

إلى غير ذلك من السور التي تشهد الأحاديث أنه ﷺ كان يقرأها بمشهد من الصحابة، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه.

وقال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا».

وقال أيضًا: «الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله، هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زِيد فيه شيء، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور، ولم يقدم من ذلك مؤخر ولا أُخر منه مقدم، وأن الأمة ضبطت عنه ﷺ ترتيب آي كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة». أهـ.

وقال ابن وهب: «سمعت مالكًا يقول: «إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ».

وقال البغوي في شرح السنة: «الصحابة ﷺ جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئًا خوف ذهاب بعضه بذهاب

---

(١) المعجم الكبير للطبراني 10/ 100 (10105)، والمعجم الأوسط له 2/ 101 (1385)، والمعجم الصغير له أيضًا 1/ 170 (267).

(٢) صحيح البخاري (كتاب: الجمعة/ باب: ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة/ رقم الحديث: 891)، وصحيح مسلم (كتاب: الجمعة/ باب: ما يقرأ في يوم الجمعة/ رقم الحديث: 879).

حفظته، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا فيه شيء أو أخرجوا أو وضعوا له ترتيبًا لم يأخذوه من رسول الله ﷺ، فقد كان يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيت جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا. فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه». أهـ.

فهذه أدلة قاطعة وبراهين ساطعة من الآثار النبوية وأقوال الفضلاء الفحول وإجماع العلماء الأعلام على أن ترتيب الآيات بتوقيف النبي ﷺ وتعليمه، ولو تتبعنا الدلائل على إثبات ذلك، لجئنا بأضعاف ما أوردنا، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فافهم ذاك، والله ﷻ يتولى هداك.

الفصل الثاني

في

ترتيب السور

قد اتفقت كلمة الجمهور على أن ترتيب السور كان في عهد النبي ﷺ، مقيمين على ذلك أقوى الحجج وأصح البراهين، مما لا يرده قول ولا تزيِّفه شبهة.

فمن هذه البراهين: ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف... الحديث. وفيه: فقال لنا رسول الله ﷺ: «طرأ عليَّ حزب من القرآن، فأردتُ ألا أخرج حتى أقضيَه». فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا: كيف تحزِّبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاثة عشرة، وحزب المفصَّل من ق حتى نختم[(١)].

قال ابن حجر: «فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ»[(٢)].

ومنها: حديث واثلة: «أعطيتُ مكان التوراة السبع الطول، وأعطيتُ مكان الزبور المئين، وأعطيتُ مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصَّل»[(٣)].

---

(١) سنن أبي داود (كتاب: الصلاة/ باب: تحزيب القرآن/ رقم الحديث: 1393)، ومسند أحمد 4/ 9 (16211)، 4/ 343 (19043). وهو حديث ضعيف.

(٢) فتح الباري لابن حجر 9/ 43.

(٣) مسند أحمد 4/ 107 (17023). وهو حديث حسن.

ومنها: ما روى عن محمد بن نصر عن أنس مرفوعًا: «إن الله أعطاني السبع مكان التوراة، وأعطاني الراءات مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي»(١).

ومنها: ما أخرجه البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص/ 1]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق/ 1]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس/ 1] ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات(٢).

ومنها: ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه أنه ﷺ قرأ بالسبع الطوال في ركعة(٣). وفي المصنف أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصل في ركعة(٤).

ومنها: ما أخرجه مسلم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن»... وذكر الحديث وفيه: «اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران»(٥).

وقال أبو بكر الأنباري: «إن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قدّم أو أخّر فقد أفسد نظم القرآن». أهـ(٦).

---

(١) أخرجه محمد بن نصر كما في مختصر قيام الليل للمقريزي ص 275 (197). قال المناوي في الفيض 2/ 213: «إسناده ضعيف».

(٢) صحيح البخاري (كتاب: فضائل القرآن/ باب: فضل المعوذات/ رقم الحديث: 5018).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة 1/ 323 (3699).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة 1/ 323 (3702).

(٥) صحيح مسلم (كتاب: صلاة المسافرين وقصرها/ باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة/ رقم الحديث: 5018).

(٦) البرهان للزركشي 1/ 260، والإتقان للسيوطي 1/ 171.

وعلى قوله: «فمن قدَّم أو أخَّر، فقد أفسد نظم القرآن».

أقول: قد استنبط بعضهم عُمْرَ النبي ﷺ من قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون/ 11]. فإنها رأس ثلاث وستين سورة وعقَّبها بالتغابن؛ للإشارة إلى ظهور الفتن بعد فقده ﷺ.

وقال السيوطي: «ومما يدل على أن ترتيب السور توقيفي: كون الحواميم رتبت ولاء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فُصِل بين سورها وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس، مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت طسم عن القصص»(١).

وقال البيهقي في المدخل: «كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتب السور والآيات على هذا الترتيب، إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان؛ وهو ما أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء -أي: منها- دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال من أوائل ما نزل، وكانت براءة من آخر القرآن نزولًا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها؛ فظننتُ أنها منها. فَقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها؛ فمن أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما ولم أكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال». أهـ(٢).

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 173.

(٢) المدخل إلى السنن للبيهقي 1/ 160.

فهذا ما ذهب إليه البيهقي، والذي عليه الجمهور: أن ما بين الدفتين موافق لما في اللوح المحفوظ من القرآن، وحاشا أن يهمل ﷺ أمر القرآن وهو نور نبوته وبرهان شريعته، فلا بُدَّ إما من التصريح بمواضع الآي والسور، وإما من الرمز إلى الصحابة بذلك، كما أفاده الزركشي في «البرهان».

على أن إجماع الصحابة في المآل على هذا الترتيب وعدولهم عما كان أولًا من بعضهم على غيره من الأساليب -وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل ولا يصدهم عن الحق لوم لائم ولا قول قائل- أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علمًا ولم يدع عندهم خيالًا ولا وهمًا.

وعثمان ﷺ وإن لم يقف على ما يفيده القطع في براءة والأنفال وفعل ما فعل بناء على اجتهاده، إلا أن غيره وقف؛ ولذلك قُبِل ما فعله ولم يتوقف، وكم لعمر ﷺ من موافقات لربه أدَّى إليها ظنُّه، فليكن لعثمان هذه الموافقة التي ظفر غيره بتحقيقها من النصوص أو الرموز، كما تقدمت الإشارة إليه على ما أفاده الزركشي.

وبالجملة -بعد إجماع الأمة على هذا المصحف- لا ينبغي أن يصاخ إلى آحاد الأخبار، ولا يشرأبَّ إلى تطلع غرائب الآثار.

الفصل الثالث

في

حفاظ القرآن

كان الصحابة ﷺ في عهد النبي ﷺ يحفظون القرآن، غير أنهم كانوا في حفظه على طبقات مختلفة ودرجات متنوعة:

فمنهم: من يحفظه كله عن ظهر قلبه ويجمعه على صفحات صدره.

ومنهم: من يحفظ بعضه على حسب اقتداره وفراغه من حوائج المعاش وتدبير المصالح الدنيوية وملازمة الحضرة النبوية.

ومنهم: من يكتبه على الصحف والرقاع والألواح والعسب والأكتاف خوف ضياعه ونسيانه؛ لعدم الوثوق بأن المفكرة تؤدي وظيفتها على الاستمرار والدوام، وتبركًا باستوداعه في المنازل منقوشًا وتحصيلًا للذَّتَيْ المسامع والأبصار عند القراءة في الصحف والرقاع.

أما الذين حفظوا القرآن في قلوبهم وجمعوه في صدورهم فيتعذر ضبطهم أو يتعسر حصرهم -كما لا يخفى هذا-. فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبي بن كعب»[١].

والظاهر أنه ﷺ أمر بالأخذ عنهم في الوقت الذي صدر فيه ذلك القول، ولا يلزم منه أن لا يكون أحد في ذلك الوقت شاركهم في حفظ القرآن، ففي الصحيح في غزوة بئر معونة: أن الذين قتلوا بها من الصحابة كان يقال لهم «القُرَّاء» وكانوا

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: المناقب/ باب: مناقب أبي بن كعب/ رقم الحديث: 3808).

سبعين رجلًا. وروى البخاري أيضًا عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن؟ -أي: حفظه- على عهد النبي ﷺ؟ فقال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي. أهـ(١).

قال بعضهم: إن أبا زيد هذا هو المذكور في حديث قتادة، وهو سعد بن عبيد بن النعمان أحد بني عمرو بن عوف، واستبعده ابن الأثير قال: «لأن سعد بن عبيد أوسي، وأنس من بني عدي بن النجار وهو خزرجي، وقد قال: «إنه أحد عمومتي». فكيف يكون هذا؟»(٢).

قال ابن حجر: «وجدت عند أبي داود ما رفع الإشكال؛ فإنه روى بإسنادٍ على شرط البخاري عن أنس: أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن. قال -أي: أنس- وكان -أي: أبو زيد- رجلًا منا من بني عدي بن النجار أحد عمومتي، ومات ولم يدع عقبًا ونحن ورثناه. أهـ(٣).

وروى البخاري من طريق ثابت عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. أهـ(٤).

وفي هذا الحديث مخالفة لحديث قتادة من وجهين:

أحدهما: التصريح بصيغة الحصر في الأربعة.

والآخر: ذكر أبي الدرداء بدل أُبي بن كعب.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: المناقب/ باب: مناقب زيد بن ثابت/ رقم الحديث: 3810).

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير 2/ 426.

(٣) فتح الباري لابن حجر 9/ 53.

(٤) صحيح البخاري (كتاب: فضائل القرآن/ باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ/ رقم الحديث: 5004).

والأمر سهل. قال المازري: لا يلزم من قول أنس: «لم يجمعه غيرهم» أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك؛ لأن التقدير أنه لا يعلم سواهم جَمَعَهُ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد؟ وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده وأخبره عن نفسه أنه لم يكن يكمل له جمع في عهد النبي ﷺ وهذا في غاية البعد في العادة. وإذا كان المرجع إلى ما في علمه، لم يلزم أن يكون الواقع كذلك.

وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة. ولا متمسك لهم فيه؛ فإنا لا نسلم حمله على ظاهره. سلمناه، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك؟ فإن الأحاديث والآثار تفيد أكثر من هذا العدد بأضعاف الأضعاف.

على أن هؤلاء الذين تمسكوا بهذا الحديث يمكن الاعتذار عنهم من بعض الوجوه بخلاف المدعي؛ فإنه ادعى أنه لم يكن في عهده ﷺ من يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب، مع أنه يشاع عنه من بعض إخوانه في دينه أنه مطلع واقف على كتب القوم، فلو كان لهذه الإشاعة أثر من الصحة وجانب من التحقق وكان من رجال البحث والمناظرة -لا لعلة سوى الوقوف على الحقائق واتباع الأقوى الأقوم- لما ادعى هذه الدعوى وارتكب ذلك المفترى.

وقال ابن حجر: المراد بقول أنس: «لم يجمعه غيرهم» إثبات الجمع للخزرج دون الأوس فقط لا دون كل قبيلة؛ لأنه لم يقل ذلك إلا في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج؛ كما أخرجه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس هذا.

وقد عدَّ أبو عبيدة من قراء المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعدًا، وابن مسعود، وحذيفة، وسالمًا، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة ﷺ. ومن النساء: عائشة، وحفصة، وأم سلمة. لكن بعض هؤلاء إنما أكمله بعده ﷺ. وعدَّ ابن أبي داود في كتاب «الشريعة» من المهاجرين أيضًا: تميم بن أوس الداري، وعقبة

بن عامر. ومن الأنصار: عبادة بن الصامت، ومعاذًا الذي يُكنَّى أبا حليمة، ومجمع بن حارثة، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد. وممن جمعه أيضًا: أبو موسى الأشعري - فيما ذكره الداني-، وعمرو بن العاص.

وقد قدمنا أن الضبط متعذر والحصر متعسر، فكل يُعَدُّ ما ظفر به، ووصل إليه من أسماء الصحابة الذين حفظوا القرآن في عهده عليه الصلاة والسلام، فاختلف العدد واتفقت الكثرة؛ ولذلك قال بعضهم:

لقد حفظ القرآن في عهد أحمد　　علي وعثمان وزيد بن ثابت
أُبي أبو زيد معاذ وخالد　　تميم أبو الدرداء وابن الصامت

ولو قلنا: إن هؤلاء العشرة ليس إلا هم الذين حفظوا القرآن كله في عهده عليه الصلاة والسلام، لكان كافيًا في المطلوب وافيًا بالمقصود، وكان عندنا الطريق الثابت والسند المتصل لكتابنا العزيز.

الشك في تواتر التوراة التي كتبها موسى

بخلاف المدعي وأمثاله، فإن تواتر هذه التوراة منقطع قبل زمان يوشيا بن آمون، والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة لا اعتماد عليها يقينًا، ومع كونها غير معتمدة ضاعت غالبًا قبل حادثة بُخْتنَصَّر.

وفي حادثته انعدم التوراة وسائر كتب العهد العتيق عن الوجود بالكلية، وانمحى أثرها عن صفحة العالم رأسًا.

ولما كتب عَزْرَا هذه الكتب على زعمهم، ذهبت نسخها وأكثر نقولها في حادثة أنتيوكس[1].

---

(١) يزعم اليهود أن عزرا كتب بعض الأسفار في بابل، لكن ما كتبه عزرا ضاع في اكتساح أنتيوكس «أنطيوخس الرابع» بلاد فلسطين. فقد حكم أنتيوكس سوريا ما بين سنتي 175-163 ق. م، وأراد أن يمحق ديانة اليهود ويصبغ فلسطين بالصبغة الهيلينية، فباع مناصب أحبار اليهود بالثمن، وقتل منهم =

وبالجملة: إذا وعيتَ ما في هذه الفصول وعرفتَ ما فيها من الأصول؛ انتفت أوجهُ الريب وتأيّدت جوانبُ الحق وعاد المدعي صِفْرَ اليدين، ورجع بخُفَّيْ حُنين، مقلبًا كفيه على ما أنفق في دعواه كأنها لم تكن شيئًا مذكورًا أو صارت هباءً منثورًا.

كلام المسيحيين في أن القرآن وقع فيه الاختلاف بين قرائه في حياة محمد

قال المدعي: «ثانيا: أنه وقع اختلاف بين قُرَّاء القرآن ليس بعد وفاة محمد فقط، بل في مدة حياته أيضًا، وكان هذا يقرأ آية على طريقةٍ وذاك يقرأها على طريقةٍ أخرى؛ وذلك إما لأن محمدًا كان يلقِّن الناس بعض الآيات على روايات مختلفة، وإما لأن البعض منهم لم يحفظوها على صحتها.

قال البخاري في صحيحه: إن عمر بن الخطاب كان يقول: سمعت هشام بن حكيم في حياة الرسول ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرِئْنيها رسولُ الله ﷺ، فكدت أن أساوره[(١)] في الصلاة، فتصبر حتى سلم، فلببته[(٢)] بردائه فقلت له: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت؛ فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتُ. فانطلقتُ أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروفٍ لم

حوالي 80 ألفًا، ونهب أمتعة الهيكل كلها، وقرب خنزيرة وقودًا على مذبح اليهود، وأمر عشرين ألف جندي بمحاصرة القدس، فانقضوا عليها يوم السبت أثناء اجتماع اليهود للصلاة، فنهبوها ودمروا البيوت والأسوار، وأشعلوا فيها النيران، وقتلوا كل إنسان فيها حتى النساء والصبيان، ولم ينجُ في ذلك اليوم إلا من فَرَّ إلى الجبال أو اختفى في المغائر والكهوف.

(١) كدت أن أساوره: أي: آخذ برأسه أو أواثبه. ينظر: فتح الباري لابن حجر 1/ 135.

(٢) فلببته بردائه: أي: جمع عليه ثوبه عند صدره في لَبّته وهو بالتشديد والتخفيف. واللَّبَّة بالفتح والتشديد: المنحر. ينظر: فتح الباري لابن حجر 1/ 182.

تُقْرِئْنِيها. فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام». فقرأ عليه القراءة التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». ثم قال: «اقرأ يا عمر». فقرأت القراءة التي أقرأني. فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر»(١).

فلنكتفي بقول البخاري هذا، شهادةً على وجود اختلاف في روايات القرآن حتى في أيام النبي».

الرد على المسيحيين في شبهة اختلاف القراء في حياة النبي ﷺ

أقول: قد نقل المدعي هذا الحديث استدلالًا على وجود اختلاف في القراءات، ولم يدرِ أن ذلك لم يكن منه عليه الصلاة والسلام إلا تسهيلًا للأمة وتوسعةً عليها حسبما أمره الله به وشرح له صدره؛ كما يشير لذلك قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث: «فاقرءوا ما تيسر منه». مع ما في ذلك من شرط السماع من النبي ﷺ كما يُومئ إليه في هذا أيضًا قول كل من عمر وهشام: «اقرأني رسول الله ﷺ».

فإن الله ﷻ بعث سيدنا محمدًا ﷺ والعرب متباينين في كثير من الألفاظ مختلفين في لغات شتى كالإمالة والفتح وغيرهما -مما يستدعي بيانه مقامًا فسيحًا-، ولكل أمة لغة دلَّت عليها ألسنتهم بألفاظ تنبئ عما تدركه أفهامهم وتألفه أذواقهم وتناله حواسهم، ولكل قبيلة لهجة اتجهت إليها مخاطباتهم ومحاوراتهم بعبارات تُفصح عما تميل إليه طباعهم وتقضي به عاداتهم وأخلاقهم، وتجرى عليه معاملاتهم وسائر أحوالهم، التي اقتضتها جامعتهم الخاصة بهم. وفيهم الكبير العاسي والشيخ الفاني والأعرابي القُحُّ والعجوز الهمة والفتاة المترعرعة والشاب الحدث والغلام اليافع.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: الخصومات/ باب: كلام الخصوم بعضهم في بعض/ رقم الحديث: 2419).

ومن لازم نفي عادته وحمل لسانه على غير دُرْبته؛ تكلف منه حملًا ثقيلًا وعالج منه عناءً شديدًا، ثم لم يكسر غربه ولم يملك استمراره إلا بعد التمرين الشديد والتدريب السديد؛ فأسقط الله عنهم هذه المحنة وأراحهم من متاعب التكليف بما ليس من أخلاقهم، وأباح لهم القراءة على لهجاتهم، وحمل حروفهم على عاداتهم، بشرط السماع من النبي ﷺ والأخذ عنه، كما أجمعت عليه أئمةُ الدين وعلماءُ الأمة وشهدت به الآثار النبوية والأخبار المصطفوية.

فقد كان ﷺ يُقرئهم بما يفقهون ويعلمهم بما يفهمون ويخاطبهم بالذي يستعملون، مما طوقه الله من ذلك وشرح له صدره وفتق به لسانه وفضَّله على جميع خلقه، لا أنهم يقرءون حسبما تقتضيه لهجات وتستدعيه عاداتهم بلا شرط السماع منهﷺ، فإن في السماع منه والأخذ عنه -مع اختلاف القراءات- فوائد غير إسقاط التكليف بالقراءة على لهجة واحدة وإباحة القراءة على لهجاتهم المختلفة، وحمل حروفهم على عاداتهم.

فمن تلك الفوائد: أن بعض القراءات يبين ما لعله مُجمل في القراءة الأخرى؛ فقراءة: ﴿ يَطَّهَّرْنَ ﴾ [البقرة/ 222] بالتشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف، وقراءة: «فامضوا» إلى ذكر الله تبين أن المراد بقراءة: ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة/ 9] هي الذهاب لا المشي السريع.

ومنها: إظهار فضل الأمة وشرفها على سائر الأمم؛ إذ لم ينزل كتاب غيرهم إلا على وجه واحد.

ومنها: إعظام أجر الأمة من حيث إنهم يسعون جهدهم ويجتهدون وسعهم في تحقيق القراءات وضبطها لفظةً لفظةً حتى مقادير المدَّات وتفاوت الإمالات.

ومنها: إظهار سر الله في كتابه وصيانته له، رغم أنف المكابر عن التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

ومنها: المبالغة في إعجازه بإيجازه؛ إذ تنوُّع القراءات بمنزلة تعدد الآيات.

كالبدر من حيث التفتَّ رأيتَه ... يُهدي إلى عينيك نورًا ثاقبا

كالشمس في كبد السماء وضوءها ... يغشى البلادَ مشارقًا ومغاربا

وما قدمناه في معنى الحديث هو الذي اختاره المحققون، ورضيت به العلماء الأعلام من أن المراد بالسبعة أحرف: سبع لهجات، مع شرط السماع من النبي ﷺ.

فقد روي عن صفوان بن سالم -وفي رواية: ابن عسال-: أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ: «يا يحيِى». فقيل له: يا رسول الله، تُميل وليس هي لغة قريش؟ فقال: «هي لغة الأخوال بني سعد»(١).

وقال الداني: «الفتح والإمالة لغتان مشهورتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم؛ فالفتح لهجة أهل الحجاز، والإمالة لهجة عامة نجد من تميم وأسد وقيس؛ والأصل فيها حديث حذيفة مرفوعاً: «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم وأصوات أهل الفسق وأهل الكتابين».

فالإمالة لا شك أنها من الأحرف السبعة، ومن لحون(٢) العرب وأصواتها». أهـ.

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 244.

(٢) جرت عادة الكُتَّاب أن يكتبوا «لحون العرب» وأن يكتبوا «لغات العرب» وهم يقصدون بـ«اللحون»: لهجات العرب، ويقصدون بـ«اللغات»: اللهجات؛ وذلك لأن اللغة العربية لغة متميزة عن اللغة العبرانية، وهما متميزان عن اللغة اليونانية واللغة الفارسية.

فإذا قلنا: إن للعرب لغات متميزة، يكون هذا مخالفًا للقرآن الكريم في قوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء/ 195]؛ لأنه أثبت لسانًا واحدًا، هو لغة واحدة. وكان القرآن ينزل بحسب هذا اللسان الذي قال عنه في آية أخرى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت/ 44]

=

وأخرج بن مردويه في تفسيره أن رجلًا قرأ على عبد الله بن مسعود: ﴿طه﴾ [طه/ 1] ولم يكسر؛ فقال عبد الله «طِهِ» وكسر عبد الله الطاء والهاء؛ فقال الرجل: ﴿طه﴾ ولم يكسر؛ فقال عبد الله: «طِهِ» وكسر، ثم قال: والله هكذا علمني رسول الله ﷺ وكذا نزل بها جبريل.

وفي ذلك صراحة تامة وبيان واضح على أن المراد بـ«السبعة أحرف»: سبع لهجات مع شرط السماع.

وما قيل: أن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة وقبيلة واحدة وقد اختلفت قراءتهما. فدلَّ ذلك على أن المراد بـ«الأحرف السبعة» غير اللهجات، مردود بما قاله شهاب الدين أبو الثناء الألوسي: «ليت شعري هل ادعى أحد أن معنى إنزال القرآن على هذه السبع من لهجات هؤلاء العرب؛ أنه أُنزل كيفما كان، وإنهم هم الذين هذَّبوه بلهجاتهم ورشحوه بكلماتهم بعد الإذن لهم بذلك؛ فإذن لا تختلف أهل قبيلة واحدة في كلمة واحدة، ولا يتنازع اثنان منهم فيها أبدًا، أم أن الله

يستويان؟ والعربي المبين يكون بلغة اصطلح عليها العرب جميعًا، وعرفها العالم منهم، وتخاطبوا بها جميعًا. وغرض الكُتَّاب من وضع اللغات مكان اللهجات هو: إثبات أن القرآن نزل بروايات شتى. فـ«عتَّى حين» قراءة بلغة قبيلة و﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قراءة بلغة قبيلة. ويتوصلون بتعدد لغات القبائل إلى التلاعب بألفاظ القرآن، والتلاعب يهدم إعجازه هذا.

فليعلم المسلمون جميعًا أن القرآن نزل بلغة واحدة، وبهذه اللغة التي كانت معروفة للكل كتب النبي القرآن قبل موته. ويدل على ذلك: أن سورة الأنعام لما نزلت، صاحب نزولها سبعون ألف ملك، وكتبها الكُتَّاب من ليلتها، فكيف وقد كُتبت وقت نزولها، تكون فيها قراءات؟ ومتى نزلت هذه القراءات؟ هل في الليلة التي نزلت فيها أم من بعدها؟ وهل لما جدَّت هذه القراءات أرسل النبي إلى كل من اكتتب منها لنفسه نسخة: أن ائت بما كتبتَ؛ لأنه نزلت قراءات؟ لذلك يجب على المسلمين حذف القراءات من كتب القراءات، والقراءة تكون في جميع أنحاء العالم على الموجود في المصحف فقط.

-تعالى شأنه- أظهر كلامه في مزايا هذه اللهجات على حسب ما فيها من المزايا والنكات، فنزل بها وحيُه وأدَّاها نبيه ﷺ ووعاها أصحابه؟ فكم صحابي وعى كلمة بلهجة قبيلة أخرى غير قبيلته، وكلاهما من السبع وليس له أن يغير ما وعى، بل كثيرًا ما يختلف صحابيان من قبيلة في الرواية عن رسول الله ﷺ، وكلٌّ من روايتهما على غير لهجتيهما، كل ذلك اتباعًا لما أنزل الله تعالى، وتسليمًا لما جاء به رسول الله ﷺ.

وقد ينفي صحابي غير روايته غيره كما حصل بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم، وكل ذلك يدل على أن مرجع السبع الرواية لا الدراية.

هذا وقد ورد كثير من الأحاديث تدل على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، لا الحديث الذي نقله المدعي فقط، وفيها ما يفيد أن ذلك للتسهيل للأمة والتوسعة عليها.

فمنها: حديث أُبي عند مسلم أنه ﷺ قال: «إن ربي أرسل إليَّ أن: أقرأ القرآن على حرفٍ، فرددتُ إليه أن: هوِّن على أمتي. فأرسل إليَّ أن: أقرأه على سبعة أحرف»(١).

ومنها: ما ذكره الترمذي أنه ﷺ قال لجبريل: «إني بُعثتُ إلى أمة أمية فيهم الشيخ الفاني والعجوز الكبير والغلام». قال: فمرهم أن يقرءوا على سبعة أحرف(٢).

ومنها: ما ذكره ابن حجر أن جبريلَ قال للنبي ﷺ: إن الله يأمرك أن تُقرأ أمتك على سبعة، فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا(٣).

---

(١) صحيح مسلم (كتاب: صلاة المسافرين وقصرها/ باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه/ رقم الحديث: 820).

(٢) سنن الترمذي (كتاب: القراءات/ باب: ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف/ رقم الحديث: 2944).

(٣) فتح الباري لابن حجر 9/ 24.

ومنها: ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرفٍ، فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[١].

ومنها: ما أخرجه أحمد والطبراني عن أبي بكرة أن جبريل قال بعد أن استزاده النبي ﷺ حتى بلغ سبعة أحرف: «كل شافٍ كافٍ، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب»[٢].

كل ذلك دليل على أن اختلاف القرَّاء لم يكن إلا من تلقين النبي ﷺ وتعليمه كما شرح الله له صدره وأمره به؛ تسهيلًا للأمة وتوسعةً عليها. وليس اختلافهم ناشئًا عن عدم حفظ الآيات على صحتها كما توهمه المدعي، فإنه لم يَقُمْ دليلٌ على ذلك ولا حجة تؤيده، ولو كان هناك حجة ودليل لثبت ما حاوله المدعي ورام إقناعنا به حسب أوهامه الفاسدة وتخيلاته الباطلة التي لا طائل تحتها ولا فائدة عندها.

كلام المسيحيين في جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ

قال المدعي: «ثالثا: إن في شدة اختلاف القراء في روايات القرآن وعدم وجود مصحف متفق على صحته يُعتمد عليه؛ ألجأ أبا بكرٍ إلى الاهتمام في جمع الآيات المتفرقة وترتيبها في سور وتدوينها في مصاحف. ويشهد لهذا: ما أخبر به البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل -أي: يوم قُتل- أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر ﷺ: إن عمر أتاني فقال: القتل قد

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: بدء الخلق/ باب: ذكر الملائكة/ رقم الحديث: 3219)، وصحيح مسلم (كتاب: صلاة المسافرين وقصرها/ باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه/ رقم الحديث: 819).

(٢) مسند أحمد 5/ 41 (20441)، 5/ 51 (20533)، 5/ 114 (21130)، 5/ 122 (21170)، 5/ 124 (21187)، والمعجم الكبير للطبراني 20/ 150 (17069)، والمعجم الأوسط له أيضًا 6/ 142.

استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر بالقراء في المواطن؛ فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟!

قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نَتَّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآن واجمعْه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟

قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي حذيفة لم أجدها مع أحد؛ وهي: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة/ 128] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

ثم قام عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتِ به. وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب. قال: وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان[1].

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: تفسير القرآن/ باب: قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾/ رقم الحديث: 4679).

وعن أبي داود أن أبا بكر قال لعمر وزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[١].

فهذه قصة اهتمام أبي بكر بجمع آيات القرآن وتنقيحها وتدوين ما رآه صحيحًا في الصحف بعد وفاة محمد».

الرد على شبهة المسيحيين وهي أن القرآن مجموع بعد وفاة النبي ﷺ

أقول: إن ما ذكره المدعي هنا من حديثٍ وغيره يجب بيان الحقيقة فيه، وشرح المغلق منه، وإظهار تخليط المدعي وعدم أمانته في النقل؛ مكرًا منه لأجل تأييد دعواه. وإني أبين جميع ذلك بالتتابع والتوالي؛ فأقول:

قوله: «إن شدة اختلاف القراء»... إلى قوله: «وتدوينها في مصاحف». قد استجمع أمرين لا قائل بهما ولا حقيقة لهما ولا ينطبقان على ما استشهد به المدعي:

الأمر الأول: قوله: «إن الباعث على اهتمام أبي بكر بجمع القرآن هو شدة اختلاف القراء وعدم وجود مصحف متفق على صحته يعتمد عليه». ليس كذلك، فإن في حديث البخاري النص الصريح والقول الواضح على أن سبب ذلك اشتداد القتل بالقراء واستحراره في مواطن القتال، وكثرته بحفاظ القرآن، مع الخوف من استحراره في بقية الأماكن.

الأمر الثاني: قوله: إنه كان في ذاك العصر مصحف غير معتمد عليه وغير متفق على صحته كما يفهم من قوله: «وعدم وجود مصحف متفق على صحته يعتمد عليه»... إلخ. هذا أيضًا قول ليس به أثر من الصحة ولا دليل عليه غير أن المدعي جاء به تأييدًا لدعواه وإدخالًا للأوهام على أفكار العوام.

---

(١) هذا الأثر غير موجود في سنن أبي داود، بل وجدته في كتاب المصاحف لابن أبي داود 1/ 26 (18).

وقوله: «أرسل إلى أبي بكر مقتل أهل اليمامة»(١). معناه: أي عقب قتل أهلها، والمراد بهم هنا: من قُتل من الصحابة في وقعة مُسيلمة الكذاب(٢)، وكان من شأنها:

---

(١) إذا كان رواة الأحاديث وكتاب السيرة النبوية قد كذبوا على سيد العالم وهو النبي ﷺ، فهل نصدق ما يرونه عن ارتداد العرب من بعد موت النبي ﷺ.

لقد رووا أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة، وكانت فيها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما البتة؛ نكالًا من الله، والله عزيز حكيم». وقال القرطبي في هذا الكذب: «هذا وجه من وجوه النسخ». أي: أنهم لم يكتفوا بأن القرآن ناقص، فوضعوا فيما اتفقوا على أنه قرآن ما يثبت نسخه. أي: رفع أحكامه الشرعية؛ أي: لا يُعمل به.

وزادوا على ذلك: أن النبي نطق بمدح الأصنام وهو يقرأ على الناس سورة النجم.

وفي البخاري أن الذي أخذ قبضة من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بن خلف. روى الليث عن يونس عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم/ 1] فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم/ 19، 20] سها. فقال: «إن شفاعتهن تُرتجى». فلقيه المشركون والذين في قلوبهم مرض، فسلَّموا عليه وفرحوا. فقال: «إن ذلك من الشيطان».

وأفظع من هذا: ما ذكره الواقدي عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال: سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة؛ فإنه أخذ ترابًا من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا.

وغرض الرواة من هذا الحديث هو إثبات أن الشياطين قد أدخلت في القرآن ما ليس منه، وهذا يردُّه قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء/ 210]. وأيضا: إثبات أن العرب كانت تعبد الأصنام عند الكعبة، وأن أصنام اللات والعزى ومناة كانت عند الكعبة، وهي في كتب التوراة كانت في بلاد اليهود، وكان اليهود يعبدونها.

وإذا كان هذا من كذب الرواة على سيد العالم، أفلا يكذبون على أصحابه وأنصاره بإثبات الردة عليهم؟ وهم ممدوحون في التوراة والإنجيل والقرآن.

والسبب في أن الرواة نسبوا الارتداد إلى العرب: هو أن اليهود ارتدوا من بعد خروجهم من مصر مباشرةً، وعبدوا العجل وموسى على جبل الله يتلقى الشريعة، وعبدوا أصنام الأمم الوثنية وجعلوا لها هياكل، وعبدوا صنم البعل في زمان إلياس عليه السلام؛ لذلك وضعوا ما فيهم في العرب، والعرب هم أهل الله وخاصة أهل بيته.

(٢) هو: مُسيلمة الكذاب بن ثُمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، أبو ثمامة. متنبئ، من المعمرين. ولد ونشأ باليمامة. وتلقب في الجاهلية بـ«الرحمن»، وعرف بـ«رحمن اليمامة». ولما ظهر الإسلام في غربي الجزيرة، وافتتح النبي ﷺ مكة ودانت له العرب، جاءه وفد من بني حنيفة، قيل: كان مُسيلمة معهم إلا أنه تخلف مع =

أن مسيلمة ادعى النبوة وقوي أمرُه بعد موت النبي ﷺ بارتداد كثير من العرب. فجهز له أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جمعٍ كثيرٍ من الصحابة، فحاربوه أشد المحاربة، إلى أن خذله الله وقتله.

وقُتل يومئذٍ من الصحابة سبعمائة أو أكثر، وكان منهم -كما روى القرطبي- سبعون رجلا يقال لهم «القراء».

وقوله: «استحر». معناه: أي اشتد وكثر. وهو استفعل من الحر؛ لأن المكروه غالبًا يضاف إلى الحر.

وقوله: «بالمواطن». معناه: أي في الأماكن التي يقع فيها القتال مع الكفار. ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة/ 25].

الرحال خارج مكة، وهو شيخ هرم، فأسلم الوفد وذكروا للنبي ﷺ مكان مُسيلمة فأمر له بمثل ما أمر به لهم، وقال: «ليس بشركم مكانًا». ولما رجعوا إلى ديارهم كتب مسليمة إلى النبي ﷺ: «من مُسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك، أما بعد، فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون». فأجابه: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى مُسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين». وذلك في أواخر سنة 10هـ. وأكثر مُسيلمة من وضع أسجاع يُضاهي بها القرآن. وتوفى النبي ﷺ قبل القضاء على فتنته، فلما انتظم الأمر لأبي بكر، انتدب له أعظم قواده خالد بن الوليد على رأس جيش قوي هاجم ديار بني حنيفة. وصمد هؤلاء، فكانت عدة من استشهد من المسلمين على قلتهم في ذلك الحين 2200 رجل، منهم 450 صحابيًّا، وانتهت المعركة بظفر خالد ومقتل مُسيلمة سنة 12هـ.

ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 3/ 74، والروض الأُنُف للسُّهيلي 1/ 340، ونسب قريش لمصعب الزبيري ص 321، وفتوح البلدان للبلاذرى ص 94-100، والبدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي 1/ 162، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ص 162-169، والكامل في التاريخ لابن الأثير 1/ 137-140، وشذرات الذهب لابن العماد 1/ 23.

وقوله: «قلت لعمر». معناه: أنه هو خطاب أبي بكر لعمر حكاه ثانيًا لزيد بن ثابت.

وقوله: «قال عمر: هذا والله خير». معناه: هو رد لقول أبي بكر: «كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟!» وإشعار بأن من البدع ما هو حسن وخير.

وقوله: «إنك رجل شاب»... إلخ. معناه: أنه ذكر له أبو بكر أربع صفات مقتضية خصوصيته بجمع القرآن: كونه شابًّا فيكون أنشط لما يطلب منه، وكونه عاقلًا فيكون أوعى لذلك وأضبط له، وكونه لا يُتَّهم فتركن النفس إليه، وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر من غيره ممارسة له.

وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره من الصحابة ﷺ لكن مفرَّقة. ولله در حسان بن ثابت حيث قال:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ... ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

وقد قال عبد الرحمن السلمي: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة، وهي التي قرأها ﷺ على جبريل مرتين في العام الذي قُبض فيه؛ وكان زيد شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات. ولذلك اعتمده الصديق في جمعه، وولاه عثمان كتب المصاحف.

قوله: «فوالله لو كلفوني»... إلخ. معناه: إنما جمع هنا باعتبار أبي بكر ومن وافقه. وأفرد في قوله: «مما أمرني به» باعتبار أن أبا بكر هو الآمر وحده.

وإنما استعظم زيد جمع القرآن واستسهل نقل الجبل عما أُمر به؛ لما خشيه من التقصير في إحصائه وجمعه، لكن الله يسَّر له ذلك وسهَّله؛ مصداقًا لقوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر/ 17].

وقوله: «حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما».

معناه: أي لأن الذي فعله أبو بكر الصديق ﷺ من جمع القرآن فرض كفاية؛ لأن كل أمر يرجع إلى إحصائه وحفظه وصيانته واجب على الكفاية، وقد فهم عمر بن الخطاب ﷺ أن ترك النبي ﷺ جمعه، لا دلالة فيه على المنع، ورجع إليه أبو بكر لما عرف وجه الإصابة في ذلك وأنه ليس في المنقول ولا المعقول ما ينافيه، مع ما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه، ثم تابعهما زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك.

وقوله: «العُسُب». بضم العين والسين المهملتين، هو جمع: عسيب؛ وهو: جريد النخل، كانوا يكشطون الخُوص ويكتبون في الطرف العريض.

وقوله: «واللِّخاف». بكسر اللام وبخاء معجمة خفيفة آخره فاء، جمع: لَـخْفة بفتح اللام وسكون الخاء؛ وهي: الحجارة الرقاق. وقال الخطابي: «هي صفائح الحجارة».

وقوله: «حتى وجدت آخر سورة التوبة».. إلخ. يؤخذ منه ما يرد به على قول المدعي: «إن الآيات لم تكن مرتبة في عهده عليه الصلاة والسلام»؛ فإن زيد بن ثابت ما أثبت الآخرية لسورة التوبة إلا وهو يعلم ترتيب الآيات بتوقيفٍ منه ﷺ، وإلا فكيف يمكن إثبات الآخرية لسورةٍ مع عدم العلم بالترتيب.

قوله: «ثم قام عمر». هذا يفيد أنه تابع لحديث البخاري وليس كذلك؛ إذ آخر حديثه قوله: «ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما». وإنما قوله: «ثم قال عمر» هو حديثه أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن حاطب قال: قدم عمر فقال: «من كان تلقى»... إلخ[1].

---

(١) المصاحف لابن أبي داود 1/ 37 (27)، 1/ 99 (82).

غير أن المدعي أتى بـ«ثُم وقام» بدل «قدم»؛ ليجعل الحديثين حديثًا واحدًا؛ فيكون قول عمر: «من كان تلقى»... إلخ. بعد أن جمع القرآن في الصحف، ويكون الذي أتى به حينئذٍ زيادة على ما في الصحف.

فصنيع المدعي ليس من شأن الباحث الطالب الوقوف على الحقيقة، الأمين في نقوله، الحر في أبحاثه، العارف بآداب المناظرة، فلا لوم علينا إذا قلنا: لو لم تقم الحجة على إثبات التحريف والتبديل في كتبهم، لكان مثل لعب المدعي بالنقول وخيانته في الآثار طريقًا موصلًا إلى جزم العقل بالتحريف والتغيير في كتبهم؛ فإنه ما صنع ذلك إلا من قبيل الغش في المباحثة، والخيانة في المناظرة؛ تأييدًا لدعواه وتعضيدا لمفتراه.

قوله: «قال وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهدَ شاهدان». هذا يفيد أيضًا أن القائل البخاري وليس كذلك، بل هو بقية رواية ابن أبي داود. والمراد بـ«من كان لا يقبل شيئًا إلا بشاهدين» هو زيد بن ثابت، وهو يدل على أنه كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوبًا حتى يشهد به من تلقاه سماعًا من النبي ﷺ، مع كون زيد كان يحفظ القرآن كما تقدم، فكان يفعل ذلك مبالغةً في الاحتياط ومغالاةً في التحفظ وغلوًّا في الضبط.

قوله: «وعن أبي داود أن أبا بكر قال لعمر وزيد»... إلخ. هذا دليل على المبالغة في الاحتياط والتحفظ كما قدمنا، والشاهد: أن المراد بهما أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتب بين يدي النبي ﷺ.

وقال أبو شامة: «وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كُتب بين يدي المصطفى لا من مجرد الحفظ؛ ولذلك قال زيد في آخر سورة التوبة: «لم أجدها مع أحد غيره». أي: لم أجدها مكتوبة مع غيره؛ لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة»(١).

وقال السيوطي: «أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك مما عُرض على النبي ﷺ عام وفاته»(٢).

قول المسيحيين في مصحف عثمان بن عفان ﷺ

قال المدعي: «إلا أنه مع كل هذا الاهتمام، لم ينقطع الاختلاف الواقع بين القراء، وأبى بعضهم أن يتركوا قراءتهم ويقرءوا بقراءات مصحف أبي بكر؛ فزاد الاختلاف في البلاد وانتشر، حتى خشي العلماء في خلافة عثمان من وقوع فساد عظيم بين المسلمين لا يمكن رده».

الرد على قول المسيحيين في مصحف عثمان

أقول في قول المدعي: هذا ما يفيد أن صحف أبي بكر كانت على قراءة مخصوصة أو قراءات تخالف باقي القراءات، وإلا فما معنى كونهم أبوا إلا قراءاتهم.

وهذا القول محض افتراء وبحت ادعاء؛ فإن أبا بكر لم يقصد إلا جمع نفس القرآن؛ خشية أن يذهب منه شيءٌ بذهاب حَمَلَتِهِ وحَفَظَتِهِ كما تقدم صريحًا في حديث البخاري الذي نقله المدعي، وخوفًا من ضياع بعضه باستمرار القتل في مواطن القتال؛ لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد، وإن كان محفوظًا في صدور الرجال ومكتوبًا في رقاع مفرقة.

---

(١) الإتقان للسيوطي 1/ 163.

(٢) الإتقان للسيوطي 1/ 163.

فجمعه أبو بكر في صحف مرتبًا لآيات سوره على ما وقَّفهم عليه النبي ﷺ بدون أن يرتب سوره أو أن يجمع القوم على قراءة واحدة[1] ولهجة واحدة، فإن ذلك

---

(١) قال الله تعالى في سورة النمل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل/ 66].

قوله تعالى: ﴿يُبْعَثُونَ ۝ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾. هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي.

وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد: «بَلْ أَدْرَكَ» من الإدراك.

وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: «بَلِ ادَّرَكَ» غير مهموز مشدَّدًا.

وقرأ ابن مُحيصن: «بَلْ آادَّرَكَ» على الاستفهام.

وقرأ ابن عباس: «بَلَى» بإثبات الياء «أَدَّارَكَ» بهمزة قطع والدال مشددة وألف بعدها. قال النحاس: وإسناده إسناد صحيح، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس.

وزعم هارون القارئ أن قراءة أُبيٍّ: «بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ».

القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد؛ لأن أصل ﴿ادَّارَكَ﴾: تدارك؛ أُدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل.

وفي معناه قولان:

أحدهما: أن المعنى: تكامل علمهم في الآخرة؛ لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينةً؛ فتكامل علمهم به.

والقول الآخر: أن المعنى: بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة؛ فقالوا: تكون وقالوا: لا تكون.

القراءة الثانية فيها قولان:

أحدهما: أن معناه: كمل في الآخرة. وهو مثل الأول. قال مجاهد: معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين.

والقول الآخر: أنه على معنى الإنكار، وهو مذهب أبي إسحاق. واستُدل على صحة هذا القول بأن بعده: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لم يدرك علمُهم علمَ الآخرة. وقيل: بل ضل وغاب علمُهم في الآخرة، فليس لهم فيها علم.

القراءة الثالثة: «بَلِ ادَّرَكَ» فهي بمعنى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنًى؛ ولذلك صُحِّح «ازدوجوا» حين كان بمعنى «تزاوجوا».

=

لم يكن من مقصده الباعث على جمعه، فحتَّاما أيها المدعي هذا الافتراء؟ وإلا ما ذلك الادعاء؟ كأنه لا رقيب ولا هول تخشاه بين يديك، أو كأنك من قوم لا يشعرون أو لا يكادون يفقهون، وعلى كل حال فلله در من قال:

إذا رام الفتى غرضا محالا   تقلب في الكلام كما يشاء

قول المسيحيين: إن عثمان أحرق المصاحف

قال المدعي: «فصمم عثمان على تصحيح القرآن مرة ثانية، فقرر في المصحف الجديد الروايات التي رآها صحيحة، وأمر بحرق جميع نسخ المصحف الأول، بل جميع النسخ المخالفة لمصحفه».

القراءة الرابعة ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار؛ كما تقول: أأنا قاتلتك؟! فيكون المعنى: لم يدرك. وعليه ترجع قراءة ابن عباس. قال ابن عباس: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ أي: لم يدرك. قال الفرَّاء: وهو قول حسن كأنه وَجَّهه إلى الاستهزاء بالمكذِّبين بالبعث، كقولك لرجل تكذِّبه: بلى لعمري قد أدركتَ السَّلَف فأنت تَروي ما لا أروي. وأنت تكذِّبه.

وقراءة سابعة: «بَلَ ادَّرَكَ» بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخفتها. وقد حكى نحو ذلك عن قُطْرُب في: «قُمَ اللَّيْلَ» فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و«بِعَ الثوبَ» ونحوه.

وذكر الزمخشري في الكتاب: وقرئ «بَلْ أَأَدَّرَكَ» بهمزتين «بَلْ آأَدَّرَكَ» بألف بينهما «بَلَى أَأَدَّرَكَ» «أَمْ تَدَارَكَ» «أَمْ أَدَّرَكَ» فهذه ثنتا عشرة قراءة.

ثم أخذ يعلّل وجوه القراءات وقال: فإن قلت فما وجه قراءة «بَلْ أَأَدَّرَكَ» على الاستفهام؟

قلت: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم.

وكذلك من قرأ: «أَمْ أَدَّرَكَ» و«أَمْ تَدَارَكَ»؛ لأنها «أم» التي بمعنى «بل» والهمزة.

وأما من قرأ: «بَلَى أَأَدَّرَكَ؟» على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور وقت كونها؛ لأن العلم بوقت الكائن ﴿ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ في شأن الآخرة ومعناها ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أي: في الدنيا. ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل/ 66] أي: بقلوبهم واحدهم «عمو». وقيل: عَمٍ؛ وأصله «عميون» حُذفت الياء لالتقاء الساكنين، ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها.

الرد على إحراق عثمان للمصاحف

أقول: أما قوله: «فصمم عثمان على تصحيح القرآن مرة ثانية». فهو قول رجل متعصب أفرغ ما ساقه التعصب إليه وبعثه التعسف عليه من المعاني المتوهمة التي لا أدلة عليها ولا حقائق لها في قوالب من الألفاظ، تستوجب نفور حر الضمير عند سماعها، وتستلزم سخط الساعي خلف الحقيقة لدى تلاوتها؛ إذ التعبير بتصحيح القرآن مرة ثانية تشمئز منه النفوس وتسودُّ له وجوه الطروس، ويضطرب به البنان، وتقشعر منه الجلود، فإنه يفيد: أن القرآن كان غير صحيح، فصححه أبو بكر، ثم عقد عثمان العزم على تصحيحه مرة ثانية.

وهذا مخالف كل المخالفة لما استدل به المدعي من حديث أبي بكر في جمع القرآن كما لا يخفى على الفطن اللبيب، ولم يكن هناك أثر يفيد ما جاء به، حتى يلتمس له عذرًا في جملته هذه، اللهم إلا أن يلتمس ذلك العذر من قبيل تعصبه أو خطأه في الفهم. والأول أقرب إلى العقول السليمة والأفكار الحرة؛ فإن هذه جمله أثقل منه على قلوب المنصفين وأمرُّ من بقية غلطاته على ألسنة المسلمين. فليخفف الله على قرطاس أقلها، ولو كان ذا عقل لمجها وملها، وليطلق أسر قلم على كُرْه منه خطها. ولو كان ذا بطش لأَمَّ أمَّ[1] رأسه وقدَّها وقطَّها؛ لأنه قد طغى وبغى؛ فلا لعا[2] له حيث عثر ولغا.

---

(١) أم الرأس: هي الدماغ والجلدة الرقيقة التي عليها والقد والشق طولًا والقط والقطع عرضًا. ومنه قولهم: كان علي إذا اعتلى قد وإذا اعترض قط. أهـ. مؤلف.

(٢) يقال: لا لعا لك يا فلان. أي: لا أقامه الله من عثرته ولا نعشه. وقيل: أصل «لعا لك» لعلك من قولهم: لعلك تنعش صحيحًا وسالمًا، فاختصروه لكثره الاستعمال. أهـ. مؤلف.

أما قوله: «فقرر في المصحف الجديد الروايات التي رآها صحيحة». فهو في الثقل مثل الأول، ولا ينقص عنه حبة خردل؛ لأنهم نسخوا صحف أبي بكر بدون نقص ولا زيادة ونقلوها من غير تحريف ولا تبديل؛ كما يشير إليه ما يأتي في الحديث الذي نقله المدعي عن البخاري حيث قال: «فنسخوها -أي: الصحف- في المصاحف». وهذا أيضًا يعارض ما يُستفاد من جملته السابقة بأن القرآن أولًا كان على غير صحة، فصححه أبو بكر، وصمم عثمان على تصحيحه.

ثانيا: ولأنه لو كانت صحف أبي بكر غير صحيحة لما نقلها عثمان بدون تغيير فيها كما علمت، غاية الأمر: أن عثمان اقتصر في مصحفه من اللهجات على لهجة قريش، وإن كان قد وسَّع في القراءة بها وبغيرها في ابتداء الأمر؛ رفعًا للحرج وبعدًا عن التكليف بما ليس من عاداتهم.

على أننا لو سلمنا أن صحف أبي بكر كانت غير صحيحة، وأن عثمان قرر في مصحفه ما رآه صحيحًا؛ لتمَّ لنا المطلوب وظفرنا بالمقصود، وتكون النتيجة أن مصحف عثمان صحيح وأنه غير محرف ولا مبدل؛ لأنه قرر الروايات التي اعتمدها ورآها صحيحة؛ كما أقر به المدعي.

والمصاحف التي بأيدينا اليوم منطبقة على مصحف عثمان كل الانطباق؛ لأنها ما نُقلت إلا منه ولا أُخذت إلا عنه، فهي موافقة له بلا خلاف في كلمة واحدة أو حرف واحد كما تشهد به المقارنة والمقابلة.

والحاصل: أن المدعي أقر بصحة مصحف عثمان، وذلك هو النقطة التي يرجع إليها والقطب الذي دارت عليه رحى المباحثة، فالحمد لله على أن حصحص الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

قال المدعي: «ويؤيد هذا: ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة؛ فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك.

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن زبير وسعد بن العاصي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في مصاحف.

فقال عثمان للرَّهْط القريشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا.

حتى إذا نسخوا الصحف من مصحف حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، أمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. أهـ. كلام البخاري[(١)].

وفي هذا دليلٌ كافٍ على أن المصحف الذي جمعه عثمان لم يكن موافقًا للذي جمعه أبو بكر، وإلا فلم يكن الأمر يُحْوِجُ إلى إحراق جميع نسخ القرآن القديمة».

أقول: في هذا الحديث الصراحة التامة والبيان الواضح بأن جمع عثمان للقرآن إنما هو لشدة اختلاف القراء في القراءات المأخوذة عن النبي ﷺ كما أمره الله بذلك وشرح له صدره تسهيلًا للأمة وتوسعةً عليها كما قدمنا، فرأى عثمان أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، مع ما ترتب عليه من الاختلاف الذي خشي حذيفة أن يكون كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم، فاقتصر على القراءة بلغة قريش جمعًا للأمة

---

(١) صحيح البخاري (كتاب: فضائل القرآن/ باب: جمع القرآن/ رقم الحديث: 4988).

على طريق واحد؛ كما يؤيده قوله الآتي: أرى أن تَجْمَع الناس على مصحف واحد، فلا يكون فرقة ولا اختلاف.

هذا هو السبب في جمع عثمان للقرآن لا ما زعمه المدعي من أن بعضهم أبوا أن يتركوا قراءتهم ويقرءوا بقراءة أبي بكر حتى زاد الاختلاف من أجل ذلك، وكأنه يرى أن صحف أبي بكر كانت على قراءة مخصوصة.

وقد قدمنا أن أبا بكر لم يقصد إلا صيانة القرآن؛ خوفًا من ذهاب بعضه بذهاب حفظته، فجمعه في صحف من غير نظير إلى قراءة مخصوصة.

كلام المسيحيين في القراءة بلهجة قريش

أما قول عثمان: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش».

فإنما أراد الاختلاف في عربيته ورسمه ليس إلا، وقد اختلفوا في بعض الحروف؛ مثل: ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة/ 248] فإنه بالتاء في لهجة قريش وبالهاء في لهجة الأنصار، فكتبوه بالتاء على لهجة قريش التي أمر عثمان أن يكتب بها حين ترافع لديه فيه زيد وأبان رضي الله عنهما. والتابوت: الصندوق، ووزنه فعلوت من التوب، وهو الرجوع؛ لما أنه لا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاجه من مودعتاه، فتاؤه مزيدة كتاء ملكوت وأصله «توبوت» فقلبت الواو ألفًا وليس وزنه بفاعول من التبت؛ لقلة ما كان فاؤه ولامه من جنس واحد كسلس وقلق؛ لأن العرب تستثقل ذلك من حيث أنه توأم التكرار.

أما من قرأ بالهاء فوزنه فاعول على ما اختاره الزمخشري في كشافه[1]. واختياره على القراءة بالهاء أنه على وزن فاعول؛ لأن شبهة الاشتقاق لا تعارض زيادة الهاء وعدم النظير.

وقيل: إنه من «التبه» وهو أصل مفقود لا يمكن التحقيق على معناه الأصلي.

وأما جعل الهاء بدلًا من التاء؛ فلاجتماعهما في الهمس، وأنهما من حروف الزيادة، فضعيف؛ لأن الإبدال في غير تاء التأنيث ليس بثابت.

وذهب الجوهري إلى أن التاء فيه للتأنيث، وأصله عنده تأبوة مثل: ترقوة، فلما سكنت الواو انقلبت هاء التأنيث تاء.

الإحراق للقراءات وللمنسوخ من القرآن

أما قول المدعي: «ففي هذا دليل كاف»... إلخ.

فهو قول رجل يخبط خبط عشواء في ليلة عسواء؛ إذ المراد: إحراق ما هو مختلِط بغيره من التفاسير والقراءات الأخر والمنسوخ، وما يخالف العرضة الأخيرة. فقد قال ابن الجوزي: «وربما كانوا يُدخلون التفسير في القراءات إيضاحًا وبيانًا؛ لأنهم محققون لما تلقوه من النبي ﷺ قرآنًا، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه». أهـ.

وقال القاضي أبو بكر: «لم يقصد عثمان إلا جمعهم على ما وافق العرضة الأخيرة وأخذهم بمصحف لا تأويل فيه، مصحف أُثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كُتب مع مثبت رسمه، ومفروض قراءته وحفظه؛ خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد، مقتصرًا في الرسم على لهجة قريش». أهـ.

---

(١) الكشاف للزمخشري 1/ 293.

وروى عن الحسن أنه كان يقرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم/ 71]. الورود والدخول. قال الأنباري: «قوله: «الورود الدخول» تفسير لمعنى الورود». أهـ.

فذلك كله هو المراد بإحراقه كما يؤيده رواية: «وأمر بما سواه من القراءات أن يحرق».

شدة اختلاف المسلمين في قراءة القرآن بعد خلافة عثمان

قال المدعي: «وأما شدة اختلاف المسلمين في قراءة القرآن في خلافة عثمان فيشهد له ما رواه البخاري في صحيحه عن عمارة أنه قال: إن حذيفة قال: يا أمير المؤمنين، أدرك الناس. قال: وما ذلك. قال: غزوتُ فرج أرمينية، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أُبي بن كعب ويأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام؛ فيكفر بعضهم بعضًا».

الرد على شبهة اختلاف المسلمين في قراءة القرآن بعد خلافة عثمان

أقول: إن الحديث الذي تقدم قبل هذا صريح في أن عثمان لم يجمع القرآن إلا لما أفزع حذيفة من اختلافهم في القراءة، وكان ذلك في خلافة عثمان كما لا يخفى، فلو كان مقصود المدعي بهذا الحديث المذكور هنا الاستدلال على اختلاف القراء في خلافته قبل الجمع فلا فائدة فيه؛ لأنه معلوم من الحديث المتقدم؛ فعُلم من ذلك: أن مقصوده الاستدلال على اختلاف القراء بعد الجمع، وهذا لا يتم له؛ لأن الحديث ليس فيه ما يفيد ذلك مع كونه من رواية عمارة بن غزية، لا من رواية البخاري كما ادعاه المدعي، فقد نقله القَسْطَلَّاني في شرحه على البخاري مريدًا بذلك نقل رواية أخرى في حديث جمع عثمان للقرآن حيث قال: «وفي رواية عمارة بن غزية أن حذيفة... إلخ».

على أن حذيفة قال في الحديث السابق: «يا أمير المؤمنين، أدرك الأمة»... إلخ. فأدركها عثمان بأن جمع القرآن مُقتصِرًا على لهجة قريش؛ فرضي أُبي بن كعب بما ارتضاه عثمان، وقد كان أُبي من جملة الذين جمعوا القرآن، وهو الذي كان أهل الشام يقرءون بقراءته. فكيف يقول حذيفة لعثمان بعد جمعه للقرآن على زعم المدعي: «أدرك الناس؟»... الخ. فهل كان حذيفة لم يعلم أن عثمان أدرك الأمة وجمع القرآن منعًا للاختلاف، أم أن هذا الإدراك لم ينقطع به الاختلاف بين القراء، فأراد حذيفة إدراكًا آخر يجمع القراء على طريق واحد؟!

كل ذلك دليل على أن هذا الحديث عين الحديث المتقدم الذي حمل عثمان على جمع القرآن، إلا أن الرواية اختلفت كما علمتَ مما قاله القَسْطَلَّاني.

رواية أبي داود عن اختلاف المسلمين في قراءة القرآن بعد عثمان ﷺ

قال المدعي: «وما رواه عن ابن أبي داود أنه قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا، وما تقولون في هذه القراءة فقد بلغني أن بعضهم يقول: قراءتي خير من قراءتك. وهذا يكاد يكون كفرًا؟ قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن تُجمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: نِعْمَ ما رأيتَ»[1].

نقد رواية أبي داود

أقول: جاء المدعي بهذا الأثر استدلالًا على اختلاف القراء بعد الجمع في خلافة عثمان؛ لأن قوله: «وما رواه». معطوف على قوله: «فيشهد له ما رواه البخاري»... إلخ. ولكن ليس هو من رواية البخاري بل من رواية ابن أبي داود، فقد نقله

---

(١) كتاب المصاحف لابن أبي داود 1/ 77، 78 (62، 63).

القَسْطَلَّاني بعد نقله رواية عمارة بن غزية حيث قال: «وروى ابن أبي داود بإسناد صحيح من طريق سُويد بن غَفَلَة قال: قال علي»... إلخ.

وهذا الأثر يفيد اختلاف القراء بعد الجمع، ولكن بما جاء به المدعي من الخلل الواضح والزلل الفاضح؛ لأنه حذف لفظ «قال» بعد قوله: «ملأ منا». وحذفها يفيد أن القائل: «وما تقولون في هذه القراءة»... إلخ. هو عليٌّ، وإثباتها يفيد أن القائل هو عثمان. وهو كذلك، ولكن حذفها المدعي؛ تأييدًا لمدعاه وتعضيدًا لمفتراه من أن الاختلاف كان بعد الجمع في خلافة عثمان، وكل منصف فاضل يشهد بأن التصرف في كلام الغير بما يغيِّر معناه ليس من شأن الخبير بشروط المناظرة الواقف على آداب البحث، بل ليس من شأن العقلاء، فإن المستشهِد بكلام الغير مع التصرف المخل به لا يكون مباحثًا حرًّا في أبحاثه، بل يعد عبدَ الأغراض رِقَّ الغايات أسيرَ التعصب حليفَ التعسف.

على أن كون الأثر المذكور من كلام عليٍّ فيه تناقض بيِّنٌ وتعارض لا يخفى، فإنه قال: «لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا»... إلخ، وكيف يتصور كل عاقل بعد ذلك أن يكون هو القائل: «أرى أن تجمع الناس على مصحف واحد»... إلخ؟ أفهل كان عليٌّ ينكر أن عثمان جمع الناس على مصحف واحد منعًا للاختلاف وجمعًا للأمة على طريق واحد، أم ماذا أيها المدعي؟ لا سيما وفي الكامل للمبرد وغيره: أن عليًّا قال: «لو وُليتُ من القرآن ما ولي عثمان، لسلكتُ سبيله».

شق مصحف أبي بكر

قال المدعي: «وأما الصحف التي جمعها أبو بكر فأزالها مَرْوَان. قال البخاري في صحيحه: فكانت الصحف عند حفصة حتى توفيت، فأخذها مَرْوَان حين كان أميرًا

على المدينة من قِبَل معاوية، فأمر بها فَشُقَّتْ، وقال: إنما فعلتُ هذا؛ لأني خشيتُ إن طال بالناس زمان أن يرتاب فيها مرتابٌ». أهـ.

أقول: هذا الأثر لم أره في البخاري، غير أنني رأيته في غيره حتى قال بعضهم بعد أن ذكره هكذا: قال مروان: وفيه ما فيه. تأمل؛ تنل. أهـ.

والذي أقوله: إن أبا بكر لما اشتد القتل بالقراء في مواطن القتال، وخشي اشتداده مرة ثانية، جمع ما تفرق من القرآن وكتبه على الأوراق بعينها صحفًا، ليس فيها الاقتصار على لهجة، ولا ترتيب سورة إثر سورة؛ لأنه لم يكن من مقصده نشر الصحف حتى يكون ترتيب السور فيها كما أخذوه عنه عليه الصلاة والسلام أمرًا واجبًا وحكمًا لازمًا، ولم يكن هناك حينئذٍ من حاجة إلى الاقتصار على لهجة واحدة، وإنما كان مقصده جمعه في مكان واحد؛ خشية من نهايته بذهاب حملته.

أما مصحف عثمان ففيه الأمران:

- الاقتصار على لهجة قريش كما دعت الحاجة إليه؛ منعا للاختلاف وجمعًا للقوم على طريق واحد.

- وترتيب السور كما وقَّفهم عليه النبي ﷺ، فإن ذلك أمر لازم وحكم لازب حسبما يقتضيه العمل به.

ونَشَرَه في المدن والأقطار، فكان مصحفه مخالفًا لصحف أبي بكر من جهة ما ذكرناه ليس إلا، فَفَعَلَ مَرْوَان ما فعل خوفًا من ارتياب ما يأتي بعد فيها بعدما انتشر مصحف عثمان وتداولته الأمة، وهو فعل حسن وعمل مرضي، فلا غبار عليه ولا داعي إلى تأمل فيه.

ثبوت النقص في القرآن بكلام المسلمين

قال المدعي: «ثم يتضح لنا كذلك مما يخبرنا بعض أئمة الإسلام المشهورين: أن القرآن على ما هو عليه اليوم ليس بكاملٍ، بل وقع فيه النقص. قال جلال الدين السيوطي في كتاب «الإتقان في تفسير القرآن»: «إن عبيدًا كان يقول: حدثنا إبراهيم

عن أيوب عن نافع قال: «لا يقولنَّ أحدكم: قد أخذتُ القرآن كله، وما يدريه ما كله، قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل: قد أخذتُ منه ما ظهر»[١].

الرد على كلام المسلمين

أقول: إن السيوطي ذكر هذا الأثر في باب الناسخ والمنسوخ، وذِكْره في ذلك الباب هو عين الجواب عند كل منصف عالم غرير. قال: «فقد أجمع المسلمون على جواز النسخ، واتفقت كلمةُ القوم على تسليمه، ولا يقدح فيه إنكاره من بعض مخالفينا في الدين، وإن ثبت في كتبهم وأقر به بعضهم في مجال المناظرة رغمًا عن مكابرتهم؛ ظنًّا منهم أنه من باب أن يرى الرائي رأيًا ثم يبدو له ما يخالفه ويكون مغايرًا له. وهو باطل؛ لأنه عبارة عن بيان انتهاء مدة الحكم العملي الشرعي المحتمل للوجود والعدم المتخيل دوامه بحسب الأوهام، فإن الحكم لما لم تكن له مدة معينة مذكورة فيه؛ فعند ورود النسخ -أي: مجيء الحكم الثاني- يتخيل المتخيل -لقصور علمه- أنه تغيير للحكم الأول وليس كذلك، فإنه في الحقيقة وبالنسبة إلى الله بيان؛ لانتهاء مدته وانقضائه؛ كالمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى وعكسه، وليس ذلك من باب تغيير الأول بالثاني».

فالأثر الذي نقله المدعي هو راجع لما ذكرنا آيل لما قدمنا، فلا تقوم به حجة كما يشهد به نقل السيوطي له في ذلك الباب، وإذ كان المدعي لم يصرح به ولم يُشِرْ إليه مغالطةً منه ليس إلا.

ضياع قرآن من سورة الأحزاب

قال المدعي: «وقال[٢] أيضًا حدثنا ابن أبي مريم عن أبي لهيقة بن الأسود[٣] عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تُقرأ في زمن النبي ﷺ مائتي

---

(١) الإتقان للسيوطي 2/ 66.

(٢) أي: أبو عبيد.

(٣) «عن أبي لهيعة عن أبي الأسود» هكذا في الإتقان.

آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقرر[1] منها إلا ما هو الآن، وهي الآن ثلاث وسبعون آية»[2].

الرد على ضياع قرآن من سورة الأحزاب

قد ذكر المدعي هذا الأثر كما ذكر الذي قبله استدلالًا على وقوع النقص في القرآن، وقد علمتَ أن ذلك لا تقوم به حجة ولا تثبت به دعوى، حيث ذُكر في باب الناسخ والمنسوخ، وقد ذُكر بعده بدون فاصل في ذلك الباب حديث عن أبي بن كعب يُؤخذ منه الجواب ويدفع ما لعله عند المدعي بإشكال، وأخرجه أيضًا عبد الرزاق في «المصنف» والطيالسي وسعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والنسائي في الضياء وصححه في المختار وآخرون عن زِر بن حُبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كائن[3] تقرأ سورة الأحزاب أو تعدها؟ قلت: ثلاثًا وسبعين آية. فقال: أقط[4]، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ولقد قرأنا فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة، نكالًا من الله، والله عزيز حكيم». فرُفع فيما رُفع. أهـ[5].

---

(١) الذي في «الإتقان» لم يقدر، والمعنى ظاهر.

(٢) قوله: «وهي الآن»... إلخ. ليس من بقية المنقول، وإنما هو من كلام المدعي. قال الطيالسي: «كونها ثلاثًا وسبعين آية بالإجماع». وقال غيره: «هذا متفق عليه».

(٣) أي: كم.

(٤) أي: احسب. أهـ. مؤلف.

(٥) مصنف عبد الرزاق 7/ 329 (13363)، ومسند الطيالسي ص 73 (540)، ومسند أحمد 5/ 132 (21245)، والسنن الكبرى للنسائي(4/ 271 (7150)، والأحاديث المختارة للضياء المقدسي 3/ 371 (1166). والأثر أيضًا في: مستدرك الحاكم 4/ 400 (8068)، وصحيح ابن حبان 10/ 274 (4429).

وقال أبو الثناء الألوسي بعد أن نقل قول عائشة: «وهو ظاهر في الضياع من القرآن، والحق: أن كل خبر ظاهره ضياع شيء من القرآن؛ فهو إما موضوع وإما مؤول». أهـ.

قلت: أما كونه مؤولًا فأراد به: أن مراد عائشة بأن سورة الأحزاب كانت تُقرأ في زمن النبي عليه الصلاة والسلام مائتي آية -أي: قبل النسخ-. وأما كونه موضوعًا فأراد به: أنه من وضع بعض الملاحدة وأصحاب الأهواء؛ ولذلك قال بعض الشيعة: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة الأنعام، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت.

وقال في «الكشاف»: «وأما ما يُحكى من أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فأكلتها الداجن[(١)] فمن تأليفات الملاحدة والروافض. أهـ[(٢)].

فظهر أن ما نقله المدعي على كلا الحالين لا يقوم به برهان على نقص القرآن العلي الشأن.

قول المسيحيين: لا دليل على تحريف التوراة والإنجيل عند المسلمين

قال المدعي: «فلنكتفِ بما أوردناه من الشهادات المقتبسة من كتب بعض أئمة الإسلام المعتبرة إثباتًا لوقوع التغيير والتحريف والنقص في القرآن، فهل يمكن للمسلمين أن يأتوا بمثل هذه البراهين إثباتًا لوقوع التغيير والتحريف والنقص في التوراة والإنجيل؟[(٣)] لا، كلا».

---

(١) الدواجن بالدال وكذا الراجن بالراء: ما يألف البيوت ويأنس من شاء وغيرها. أهـ. مؤلف.

(٢) الكشاف للزمخشري 3/ 518.

(٣) تنقسم أسفار التوراة كلها إلى: 1) التوراة. 2) الأنبياء. 3) المكتوبات.

1) أقسام التوراة

1- التكوين. 2- والخروج. 3- واللاويين (الأحبار). 4- والعدد. 5- والتثنية.

=

الرد على المسيحيين

أقول: أما قوله: «فلنكتف»... إلخ. فليس فيه ما يستدعي الملاحظة ولا الرد عليه، فإن من تأمل فيما أوردتُه عقب جمله وسردته إثر عباراته؛ علم أنه لم يأتِ بدليل يطابق مدعاه، ولم يُقم حجةً على دعواه. فإن ما استشهد به وجعله حجةً له هو عند المتأمل حجة لنا وعليه.

أما قوله: «فهل يمكن للمسلمين»... إلخ.

فجوابه: أنه أمكنهم ذلك وألفوا فيه المؤلفات الكثيرة والمصنفات الوفيرة وما سمعنا لغاية الآن بمعارض فيها ولا منازع ولا مناقض فيها ولا دافع لها. وإن عارضوا فعلى غير الحق وبالأوهام الباطلة؛ مثل دعوى المدعي هنا، فإن تلك الكتب والحق يقال: مشحونة بالأدلة الساطعة القاطعة التي لا تُرَدُّ، والبراهين البالغة الدامغة

---

2) أقسام الأنبياء

1- أقسام الأنبياء الأولون. 2- الأنبياء المتأخرون

1- أقسام الأنبياء الأولين

1- يشوع. 2- القضاة. 3- صموئيل الأول، وصموئيل الثاني. 4- الملوك الأول، والملوك الثاني.

2- أقسام الأنبياء المتأخرين:

1- إِشَعْيَاء 2- إرمياء 3- حِزْقِيَال. كما أنه يحتوى على اثنى عشر سفرا لأنبياء آخرين.

3) أقسام المكتوبات

1- مزامير داود. 2- أمثال سليمان. 3- وفيه أيضًا خمسة أسفار تدعى «مجلات»؛ وهي:

1- نشيد الأناشيد. 2- راعوث. 3- مراثي إرمياء. 4- الجامعة. 5- أستير.

وثلاثة أسفار أخرى:

1- دانيال. 2- عَزْرا. 3- نَحَمْيا. ويوجد في هذا الجزء كتابان تاريخيان:

أ- أخبار الأيام/ الجزء الأول. ب- أخبار الأيام/ الجزء الثاني.

التي لا تُصَدُّ، تنادي كل آنٍ: إنما نحن نظهر القول الثابت ونبلغه، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه حتى يظهر الصبح لذي عينين، والحق كالغمد لا يصلح لسيفين.

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه   هانت عليه ملامة العذال

«الصارم الهندي»

وإن من تلك الكتب كتاب هذا الفقير «الصارم الهندي على رسالة الكندي»، وسيمثل للطبع بعد إتمامه إن شاء الله تعالى.

كلام المسيحيين لإقناع المسلمين

قال المدعي: «وأخيرا نقول: إننا في بحثنا هذا لم نتعرض لذكر شيء من البراهين التاريخية والعقلية، ليس لقلة وجودها أو لضعفها، بل لعدم احتياجنا إليها في هذا المقام، إذا القصد الخصوصي من هذه الرسالة ليس إلا إقناع أصحابنا المسلمين».

الرد على المسيحيين في قولهم: إننا نريد إقناع المسلمين

أقول: لا يوجد في الكتب التاريخية المعتبرة ما يؤيد دعواه، ولا ما يشير إلى حقيقة مدعاه، اللهم إلا إذا كانت تلك الكتب من مؤلفاتهم، وهذه التواريخ من مصنفاتهم؛ لأنهم -كما لا يخفى- ينهجوا في التأليف منهج الصدق قيامًا بتأييد دعاويهم ووفاءً بحق معتقداتهم، فما قاله المدعي هو من باب تغرير العوام وإدخال الأوهام على السُّذَّج ليس إلا.

أما كون غرضه إقناعنا معاشر المسلمين فهو كذلك، ولكنه لم يتمَّ، والحمد لله.

كيف الوصولُ إلى سُعَادَ ودونها   قُلَل الجبال ودونهن حُتُوفُ
الرجلُ حافية وما لك مَركِب   والكفُّ صُفْر والطريقُ مخوفُ

أدلة المسيحيين على صحة التوراة والإنجيل

قال المدعي: «ولذلك على ما تقدم إيراده من الشهادات الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين الراهنة من آيات القرآن والأحاديث الصحيحة التي لا اعتراض عليها».

الرد على المسيحيين بعدم وجود أدلة على صحة التوراة والإنجيل

أقول: قوله: «من آيات القرآن» أي التي استدل بها على صحة التوراة والإنجيل كما تقدمت الإشارة إليه في أول الكتاب. وإنما لم أردَّ عليه في ذلك؛ ارتكانًا على ما كتبه ردًّا[1] عليه حضرةُ الشيخ التميمي الداري من أفاضل نابلس في «السيف الصقيل» ومبادرة بإنجاز ما هو أهم.

---

(١) من الأدلة على تحريف التوراة:

أن فيها أن إسماعيل ﷺ وحيدُ أبيه إبراهيم ووحيد سارة؛ لأنها هي التي أعطت هاجر جاريتها لإبراهيم زوجها قائلة: «لعل الله أن يرزقني منها بنين». وهو أيضًا وحيد هاجر. فإذا قال الله لإبراهيم: «اذبح ابنك وحيدك». فالمراد بالذبيح: إسماعيل. وكاتب التوراة قال: إن الذبيح إسحاق، وهذا لبس للحق بالباطل [تكوين 22].

وإن في التوراة خبرَ موتِ موسى رسول الله ودفنِه في أرض مؤآب، وأنه لا يعرف أحد قبره. ولا يُعقل أن يكتب موسى فيها خبر موته [تثنية 34].

«وصَعِدَ موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نَفْتالي وأرض أفرايم ومنسَّى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صُوغر وقال له الرب: هذه هي الأرض التي أقسمتُ لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلًا: لنسلك أعطيها. قد أريتُكَ إياها بعينيك، ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبدُ الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته. فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات مؤاب ثلاثين يومًا، فكملت أيام بكاء مناحة موسى ويشوع بن نُون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى، ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه في جميع

=

أما قوله: «والأحاديث الصحيحة». فأراد بها ما أورده حسبما زعمه استدلالًا على تحريف القرآن، وقد تقدم بيانُ بطلان هذه الدعوى، وسيتضح بطلانُها أيضًا من البراهين العقلية الآتية.

الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل» [تثنية 34].

وفي الزبور تجد أن المزمور المائة والحادي والخمسين مفقود من النسخة المتداولة للبروتستانت، وهو مقدس عند الأرثوذكس والكاثوليك.

وفي الزبور أنه مكتوب في مدينة بابل بعد موت داود بسنين طويلة، وهذا هو نص المزمور المائة والسابع والثلاثين: «أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضًا عندما تذكرنا صِهْيَوْن، على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا؛ لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحًا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صِهْيَوْن. كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة إن نسيتُكِ يا أورشليم، تنسى يميني ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي، اذكر يا رب لبني أدوم يوم أورشليم القائلين: هدوا هدوا حتى إلى أساسها يا بنت بابل المخربة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة» [مزمور 137].

ومن الأدلة على تحريف الأناجيل:

أن الآيات من 9 إلى نهاية إنجيل مرقس غير موجودات في المخطوطات القديمة. والنص هو:

«وبعدما قام باكرًا في أول الأسبوع، ظهر أولًا لمريم المجدلية التي كان قد أخرج منها سبعة شياطين، فذهبت هذه وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون، فلما سمع أولئك أنه حي وقد نظرته لم يصدقوا، وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما يمشيان منطلقين إلى البرية، وذهب هذان وأخبرا الباقين، فلم يصدقوا ولا هذين، أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه، قد قام وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يُدَنْ. وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يُخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حياتٍ، وإن شربوا شيئًا مميتًا لا يضرهم، ويضعون أيديَهم على المرضى فيبرءون. ثم إن الرب بعدما كلمهم، ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله، وأما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان، والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة، آمين» [مرقس 16: 9-20].

النصيحة للمسيحيين

قال المدعي: «هذا ولم نجد بُدًّا قبل ختم هذه الرسالة من أن نذكِّر كل عاقل منهم ببعض كلمات وجيزة فنقول: لا ريب أن كل إنسان إما على هدى أو في ضلال مبين: فمن كان على هدى، فليس له أن يخاف من البحث والتبحر فيما يراه مخالفًا لاعتقاده؛ لأنه بالبحث يزداد ثباتًا ورسوخًا على الهدى. ومن كان على ضلال، فلا يجوز له أن يُقيم على ضلاله متى ظهر له الهدى ببرهان مقنع، وإلا فلا يُحْسَبُ إنسانًا ويكون الجاهل خيرًا منه؛ لأن الجاهل أعمى فلا يُلام، وهذا متجاهل متعامٍ».

أقول: حقيقةً إن المُباحِث الراغب اتباعَ الحق الطالب للصواب؛ يزداد بالبحث الحر والفحص المطلق ثباتًا على الهدى ورشادًا إلى الحقيقة وبعدًا عن الضلال وتنحيًا عن الفساد، وأين أنت أيها المدعي من المباحِثِ الحر الراغب الوقوفَ على الحقيقة، واتباعَ الأقوم الأقوى؟ فلعن الله الدنيا التي تَذهب بالإنسان مذاهب الضلال، وتسوِّل له أعمال السوء المخالفة للصواب المباينة للحق، ما أحسن الرجل يسعى جهده ويجتهد وسعه فيما ترتضيه النفس المطمئنة من اتباع أصفى المشارب وأسلم المذاهب، ما أحسن الرجل يطرح وراء ظهره المتاع القليل الفاني ويقنع بالحاصل تخلصًا من رِبْقَةِ ما يأخذه على أعماله السيئة، ما أحسن الرجل يرسل عقله رائدًا الكلأ النافع دينا ودنيا، فيبشر نفسه بطيب الإقامة وكرامة الرحيل.

أخاطب دعدًا والمَرَامُ بهندنا فقصدى هند والخطاب لدعد

هذا وحيث وفيَّنا الموضوع بحمد الله تعالى حقَّه من الأحاديث النبوية وأقوال علماء الأمة؛ ردًّا على المدعي فيما ادعاه، يجب علينا أن نرد عليه أيضًا في دعواه بالبراهين العقلية الدالة على صحة القرآن وعدم وقوع التحريف فيه والنقص منه؛ فنقول:

البراهين العقلية الدالة على صحة القرآن

البرهان الأول:

إن النبي ﷺ انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، والصحابة ﷺ مئات من الألوف فئات من العالم، وما من رجل منهم إلا وهو يحفظ الآية والآيتين، والسورة والسورتين، فضلًا عمن يحفظونه كله عن ظهر قلوبهم، ويجمعونه على صفحات صدورهم. ثم إن البعض منهم تشتتوا إثر ذلك في الأقاليم وانتشروا في الأقطار استيطانًا بمواطنهم الأصلية، ورجوعًا إلى أماكنهم النشئية، فلو وقع أي تغيير في كلمة من كلمات القرآن الشريف، أو حصل أدنى تحريف في آية من آياته عند جمع المصاحف ونشرها، ووصلت المصاحف إلى هذه الأعداد الكثيرة والبلاد المتشعبة محرفة أو مغيرة؛ لثارت الأمة وهاجت الخواطر على جامعي المصاحف وقاتلوهم قتالًا شديدًا، وإلا فلا أقل من ارتداد كثير من الناس في زمن عثمان، فإنه الذي جمع القرآن والناس على قراءة واحدة، وبعث بالمصاحف إلى المدن تتميمًا لعمله الحسن وفعله الصائب، وما كان ارتداد الكثير يحصل إلا بسبب تحريف القرآن وتغييره، فإن التصرف فيه بالأفكار يقضي بأنه غير منزل من الله ﷻ وهو حجة النبي عليه الصلاة والسلام على قومه ومعجزته الكبرى، وإذا تحقق الناس أنه غير منزل بسبب التحريف؛ عادوا إلى ما كانوا عليه من عبادة الأوثان وغيرها. ولكننا لم نسمع أن أحدًا من المسلمين وهم ذوو البحث الحُرِّ عارض في شيء من هذا القرآن المنقول من الصدور إلى السطور.

ولو جاز تغيير حرف واحد في العصر الأول، لغيرت العصور الأخيرة معظمه؛ بسبب عوارضهم المَلَكِيَّة والدينية، ولكنه قضى ثلاثة عشر قرنًا وهو هو المقروء في

بلاد العرب والعجم ومصر والشام والغرب والهند والصين والأناضول وما وراء النهر، لا يوجد مصحف يختلف عن الآخر بحرف واحد، بخلاف غيره من الكتب غير الدينية، التي يوجد عند كل طائفة نسخة تغاير الأخرى، وفي كل طبعة تتغير كلمات كثيرة من بدء تداولها إلى الآن.

البرهان الثاني:

قد ترشح في أذهان أتباع كل رسول ورسخ في عقول كل أمة أنه ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه الناس، مع ما جُبلوا عليه من الطباع الجموحة والنفوس النفورة، وما طبعوا عليه من الجدال والخصام؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف/ 54]، وقوله جل شأنه: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل/ 4]. وما خُصَّتِ الأنبياء بهذه المعجزات إلا بيانًا لبعثتهم من جانب الحق ﷻ، وتأييدًا لرسالتهم إلى من أُرسلوا إليهم؛ حتى يمكن إيمانُ المرء بها على ما فيها من الظهور التام والوضوح الجلي، بحيث تجلب القلوب إلى التصديق بها وتستميل النفوس إلى الخضوع لها، مثل انقلاب العصا وانقلاب البحر وشق الجبل وإحياء الموتى بحسب ما تقتضيه أحوال الأزمان ومقتضيات العصور.

ولذلك كانت معجزة النبي ﷺ القرآن الشريف الذي لا يُدرك إعجازه إلا بكمال العقل، وحدة النظر، وجلاء الفكر، وقوة الذهن. فتحداهم به ﷺ حين ما جاء داعيًا إلى الله بإذنه دالًّا على الصراط المستقيم، فلما ضربت طبلةَ آذانهم كلماتُه وقرعت بابَ مسامعهم آياتُه وقطعت فصاحتُه أطماعَهم عن معارضته ومجاراته ومنعت نفوسهم من مناقضته ومباراته، أذعنوا له بخفض الجناح ورفض الجماح، خاضعين لأوامره عاملين بأحكامه، مسلمين ما أنتجته قضاياه الصادقة، مستسلمين لما جاءت به نواهيه من الكف عما لا يحل وتعاطي ما لا ينبغي.

والعقل أعدل حاكم وأصدق شاهد على أن ما من شأنه ذلك، غير ممكن أن ترضى الأمة والآخذون به تحريفه أو نقصه، ولو تساقطت الرءوس وزهقت النفوس وتناثرت الأعضاء وسالت الدماء؛ فدل ذلك على صحة القرآن وعدم تحريفه أو نقصه دلالة تامة.

البرهان الثالث:

يعلم المصنف الواقف على ما كتبناه في فصل «حُفَّاظ القرآن» أتم العلم ما كانت عليه الصحابة ﭬ من الاعتناء الشديد والاهتمام الزائد بحفظ القرآن وضبطه حتى مقادير المدات وتفاوت الإمالات، والعقل يحكم بالضرورة أن الجم الغفير والجمع الكثير الذين أخذوا القرآن تلقيًا عنه ﷺ، وضبطوه حفظًا عن ظهر قلب، لا يجوز عليهم التخليط فيه ولا التغيير. فلو حُرِّف فيه أو نُقِص منه شيء، لظهر ذلك أي ظهور.

ولا أظن المدعي يجهل أن شعر الأقدمين على أنه لا يمكن أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه مساسها للقرآن لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت، بل لو غير فيه لفظ أو حُرِّف منه حرف؛ لتبرأ منه أصحابه وأنكره أربابه وطعن فيه عارفوه، مع التمييز الصادق بأنه مُحَرَّف، وجحد راووه مع الإخبار الصريح بأنه مغير؛ كما شوهد ذلك في كثير مما أخبرنا به السلف من الأشعار والخطب والأراجيز.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر الأقدمين كحسان بن ثابت ونظرائه وامرئ القيس وأمثاله، فكيف يجوز أو يمكن وقوع التحريف في القرآن أو النقص منه؟! مع هذه العناية الصادقة والضبط الشديد وعلمهم بأنه معجزة النبوة ومآخذ العلوم

الشرعية ومصدر الأحكام الدينية؟ هذا مما لا يتصوره كل عاقل منصف، ولا يقوم بفكر كل حر الضمير مطلق السَّرَاح عديم الأغراض.

البرهان الرابع:

من المقطوع بصحته والمفروغ منه أن العلم بآيات القرآن وسوره وتفاصيله وأبعاده عند حفاظه ورواته في ذلك العصر، كالعلم به كله وبجملته حتى جرى ذلك مجرى ما عُلم بالضرورة من الحوادث الكبار والوقائع العظام والأمور المهمة والشئون السائرة والأحوال الحاضرة؛ فإن العناية إذ ذاك توفرت والدواعي اشتدت والحوائج انبعثت والغايات اتجهت إلى حفظه ونقله وحراسته وضبطه، وبلغت حدًّا لم تبلغه فيما سواه ووصلت إلى شأن لم تصل إليه فيما عداه، مع اشتمال الهمم المختلفة والحوائج الباعثة على ضبطه التام وحفظه الشديد، لما أنهم متفاوتون في الغايات مختلفون في الأغراض:

فمنهم: من يضبطه لأحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أداءها.

ومنهم: من يحفظه لاستخراج الدقائق واستكشاف الحقائق واستنباط الأحكام وأخذ العلوم.

ومنهم: من يقصد بحفظه معرفة تفسيره ومعانيه والوقوف على غامضه وغريبه.

ومنهم: من يريد بحفظه الفصاحةَ التامة والبلاغة الفائقة والأسلوب الرائق والنظم العجيب.

ومنهم: من يحفظه استلذاذًا بتلاوته واستحبابًا في كرامته وتقربًا بقراءته وتعبدًا بدراسته.

فكيف يجوز على أهل هذه الهمم العالية والأغراض المتفاوتة والغايات المتباينة، مع كثرة أعدادهم وتشعب بلادهم، أن يجتمعوا على التحريف والتغيير ويتواطئوا

على التبديل والنقصان؟! هذا مما يستحيل على من عنده أدنى مسكة من عقل أن يتفوَّهَ به أو يتصوره منصف بصير.

البرهان الخامس:

لا يعزب عن حافظة الخبير بعلوم القرآن الشريف، ولا يغرب عن ذاكرة المطلع على طرقه الثابتة أنه لم ينقضِ العصر الأول -أي: عصر الصحابة ﷺ- حتى جاء التابعون الآخذون عنهم مباشرة، فوضعوا علوم الرسم والتجويد والقراءات، وتتبعوا الحفظة في كل زمان ومكان، فما بلغهم أن رجلًا يحفظ آية كذا بلهجة كذا من اللغات التي نزل بها القرآن تسهيلًا للأمة وتوسعةً عليها إلا ارتحلوا إليه وتلقوا عنه؛ حتى جمعوا القراءات التي قُرئ بها القرآن بين يدي النبي ﷺ بتلك اللهجات حسبما أنزله الله ﷻ، وقد قيدوا أنفسهم بالمروي والمنقول عن العدول الثقات، حتى أن العالم الكبير إذا وجد في رسم المصحف ما يخالف المنطوق كالواو في ﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ وحذف الألف من ﴿ذَٰلِكَ﴾ و﴿هَـٰذَا﴾ و﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، وقف عند الرسم وتقيد به ولم يتجاوزْهُ إلى غيره؛ محافظةً على ما ورد ووقوفًا عند الأصل، وبهذا يعلم كل إنسان أحاط بعلوم القرآن خُبْرًا أن طرقه ورسمه واختلاف رواياته كلها توقيفية لم يتصرف فيها أكبر علماء الإسلام بشيء مطلقًا، وما مضى قرن إلا وجاء الذي بعده محققًا مدققًا باحثًا في علوم القرآن جاريًا على ما كان عليه سلفه، وهذه خصوصية لا توجد في كتاب غيره من الأديان، فوقوع التحريف في القرآن بعيد عن التصور وقسم من المستحيل.

البرهان السادس:

بديهي على الفطن اللبيب والعاقل البصير أن الصدر الأول كان محاطًا بالأعداء من اليهود والنصارى، وقد كانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوًا عمومًا والنبي ﷺ

خصوصًا، واقفين له وقومه بالمرصاد، ناصبين لـه شَرَكَ الفتنة وإيغار الصدور، فلـو عثروا على أدنى تحريف أو تغيير؛ لشنوا على جامعي المصاحف غـارةَ الفتنة وشنَّعُوا عليهم في جميع القبائل والأودية والبلدان، ولكان ذلـك مـن أعظـم الفرص المساعدة على اتهامهم في نظر الأمة، وأكبر الوسائل المؤدية إلى تفريق الجامعة الإسلامية وتشتيت كلمتها خصوصًا، وفي القوم من أبوه وجده وعمه وخاله من النصارى أو اليهود، وقلوبهم تغلي بنار العداوة الدينية.

فما دعا المدعي لفريته إلا أنه رأى الحجج من قبلنا مُقامه على تحريف كتبهم وتغييرها ولعب أفكار رؤساء الأديان فيها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير، وتصرف المترجمين والمعربين فيها بقدر ما عندهم من القوة والضعف؛ حتى كاد التغيير أن يكون كليًّا؛ لأن الأصل المدعى به لا وجود له في العالم؛ إذ لا يستطيع أكبر مكابر أن يقول: عندنا توراة بخط موسى وهارون أو أحد أنبياء بني إسرائيل، وإنجيل بخط عيسى أو أحد حوارييه. فإنه لو وجدت نسخة يدعى بها، لرجع إليها العالمان الموسوي والعيسوي، وانقطع هذا الخلاف الحاصل بينهم.

ثم إن المسلمين المتقدمين والمتأخرين غربلوا أقوال المصطفى عليه الصلاة والسلام ونخلوها وبحثوا فيها بحث تدقيق؛ فإذا كانت عنايتهم بكلامه لهذه الدرجة، فكيف بكلام أحكم الحاكمين وأصدق القائلين جل شأنه؟ أفيرى هذا المدعي أنهم علموا تغيير القرآن وأنه من غير الله ثم عكفوا على الدين المحمدي بعد ما عملوا بطلان أصله بتغييره؟ أم يرى أنهم ذكروا تلك الأقوال ليقيمها عليهم حجة؟ أم ماذا يرى هذا البعيد عن الإنصاف؟

وإذا كان العالم إذا سمع البيت من الشعر واستطلع معناه، قال: هذا مأخوذ من قول فلان الجاهلي أو المخضرم. أيغيب عنه البحث في القرآن إن كان مغيرًا محرفًا أو تنزيلًا من حكيم حميد؟!

واللجام الذي نضعه في فم هذا المدعي الجاهل بالجدل وأصوله: أن عصر النبي ﷺ كان محشوًّا بالأعداء مملوءًا من المنافقين، وكان يعلمهم رجلًا رجلًا مع علمه بنفاقهم، وكانوا يجالسونه ويسمعون منه ويقرءون القرآن فيمن يقرءون، ويصلون مع المصلين، وهم في كل لحظة يتوقعون هفوةً تصدر عنه ليتخذوها ذريعةً إلى رد الناس عن الإيمان به وتنفيرهم عنه، ومع ذلك فقد صاحبوا أصحابه من بعده، ولم يُسمع أن واحدًا منهم قال بتغيير القرآن، وهم أولى الناس بذلك -على فرض وقوعه- لسماعهم الأصل منه ﷺ.

أفبعد هذه البراهين النقلية والعقلية يقول عاقل منصف بتحريف القرآن وتغييره؟!

وإنما اقتصرنا على هذه العجالة؛ لكونه لم يأتِ بشيء يستحق أكثر منها في الرد عليه.

* وإن عادت العقرب عدنا لها *

فليكن هذا آخر ما اختلستُه من يد الأيام، وما أدراك ماهيه، ونهاية ما انتهزته من بين أشغال إلى القيام بها داعية. وليعلم المطالع فيما كتبتُ، والمطلع على ما رقمتُ، أني لا آنف إذا اعتُرِض عليَّ أو وُجِّهت سهامُ الانتقاد إليَّ، بل لي الفخر بذلك، والله أعلم بما هنالك، وإلا فمن أنا يا هذا؟ من أنا؟ ألست من الفناء وإلى الفناء؟

على أن العلماء -وإني لخادمهم- لم تزل بين رادٍّ ومردودٍ عليه، وراجعٍ ومرجوعٍ، ومعتقدٍ ومنتقدٍ، وسائلٍ ومجيبٍ، ومخطئٍ ومصيبٍ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب/ 62].

هذا، وإن من عجيب الاتفاق وحسن الاتساق أن جاء تاريخُ إتمامه تأليفًا وإكماله تحريرًا وتصنيفًا «القرآن صحيح وليس به تحريف» سنة **1309**، فالحمد لله أولًا وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء الكرام، وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه، ما انجلت ظلمةُ البهتان بتنوير الأذهان.

مناظرة أيوب صبري للنصارى

المعروفة بـ«بهجة التفريح بحقيقة السيد المسيح»

وهي مناظرة جرت بين الهمام الفاضل عِزّتلو أيوب بك صبري الموظف بقلم البطركخانه المصرية، وبين النصارى، مسبوقة بترجمة هذا الألمعي الماهر.

قال حفظه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأرسل نبيه الصادق الأمين بدين الحق وسنة الهدى، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فيقول راجي عفو الإله، أيوب صبري بن عبد الله:

إنني نشأت في النصرانية من رجل اسمه عبد الملك بن قرياقص، وكان والدي من أكابر الكُتَّاب بالحكومة المصرية، وتقلب في جملة وظائف كتابية؛ منها: رئاسة تحريرات مديرية الجيزة، وآخر العهد به الوقتُ الذي تعين فيه هو وأخ لي أكبر مني بحكمدارية السودان بالرغم عنهما.

هذا وقد كنتُ منذ نشأتي حريصا على تأدية مراسم العبادة وعلى ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية، مع اعتناء والدي في أمر تربيتي على المبادئ الفعالة في التقدم.

وكنتُ حفظت غالب المزامير والأبركسيس(١)، هذا ونحن مقيمون معه بالجيزة. وأتممت حفظ المزامير والأبركسيس والصلوات في مدينة أسيوط وقت انتقال والدي إليها في سنة 1270 عربية كاتبًا لأشغال ساكن الجنان «إلهامي باشا». وواظبتُ هناك على الذهاب إلى الكنيسة، حتى صرتُ أخدم القداس بوظيفة شماس، وتقربت من أهل الدين بحسن السير والسلوك.

---

(١) الأبركسيس: هو سفر أعمال الرسل، الموجود بعد إنجيل يوحنا في الكتاب المقدس.

ثم توجهتُ بإشارة والدي نحو الأب بطرس؛ لتعليم اللغة اللاتينية بمدرسة دير النمسا، فكنتُ أتردد يوميًّا للصلاة مع التلامذة بالكنيسة الكاثوليكية وسماع القداس.

وشاهدتُ من الأب بطرس المذكور تورعًا وتهذيبًا؛ حتى أنه كان يُكثر من ملاطفة التلامذة ومباسطتهم وإهدائهم بالتحائف كتصاوير القديسين، وسبح صغيرة محلاة، وقطع من القماش ذات ألوان مرسوم عليها صورة السيدة مريم تعرف عندهم بـ«ثوب العذراء». فكان هذا داعيًا لأن أترك الكنيسة الأرثوذكسية وأتعلق بالكنيسة الكاثوليكية، خصوصا وأنها في غاية الاستعداد والنظافة، وبريق حيطانها يأخذ بألباب الصغار.

وكنت أعترف بالخطايا وأتناول القربان معتقدًا أنه جسد المسيح ودمه، حتى أنني من شغفي بتلك الكنيسة كثيرة الزخارف اتخذتُ دولابا كبيرًا مثلها بالمنزل ورتبتُه ترتيبًا، واستحضرت إليه شمعدانات وكاسات وأواني صغيرة كأواني المذبح، واتخذت المذبح كذلك من خشب سمين، وعملت الجهد في إتقان كنيستي المنزلية وصيرتها كأحسن ما يكون من الكنائس الكاثوليكية، وجعلتها محل عبادتي واصطفيت زخارفي وقربت روحي إليها قربانًا لا يباعدني عنها.

حتى فطن والدي لعملي وغضب من تعبدي هذا الذي كان مغايرًا لأفكاره، ثم غلب على أمري وأخذني إلى الديوان، وكان وقتها انتقل إلى كاتب قلم قضايا أسيوط وجِرْجَا، فأخذتُ أتفكر كيف لا يرضى بأن أتعبد برأي هذه الكنيسة؟ وما هذا التغاير في الدين؟ وما هذا الاختلاف؟

ثم قوي جأشي على الاستفهام منه عن سبب هذا الاختلاف، ففهَّمني أن الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن في المسيح طبيعتين ومشيئتين، والأرثوذكسية تقول: بمشيئة وطبيعة واحدة. فأخذت هذه المسألةُ لها دورًا مهمًّا في ذهني وأشغلت بها حواسي، وصرتُ أبحث وأسأل عنها من قسس الطائفتين. فما اهتديت على شيء منها، وما سمعت إلا أنها مما لا يتصورها العقل ولا يسلك طريقها الفكر.

وإذ كان والدي رجلًا غيورًا على معتقده، حريصًا على أني لا أشذُّ عنه، أراد أن يوجه أفكاري وينقل أمر أبحاثي إلى الفكر في الزواج. وبالفعل شرع فيه بهيئةٍ تُدخل عليَّ السرور والالتفات مع الاحتفاء بها، وعقد لي أنا وأخي الأكبر على ابنتي رجل من مشاهير أسيوط وخيارها اسمه «قلته أفندي سوس»، وأخذت الأفراح تعمل في قلوبنا ووالدي لم يدع وسيلةً إليها إلا صنعها وساعدته ميسرتُه وكثرةُ ماله على ذلك، فاستمرت الأفراح زهاء الثلاثين يومًا بلياليهن، واجتمع فيها عدد عديد من كبراء المديريتين أسيوط وجِرْجَا وأعيانهما.

ولما استقال والدي، اختار مدينة الجيزة موطنًا، وانتقلنا معه حيث اتَّجر في أصناف الغلال وغيرها، فعاودتني الفكرة في أن أستمرَّ على حبي للكنيسة الكاثوليكية، وكان الأب بطرس المتقدم ذكره رُقِّي إلى رئاسة دير النمسا بمصر، فأكثرتُ من التردد عليه واختلج في ضميري أن أتوسط به في الذهاب إلى روما؛ لأنال وظيفة قسيس، فأظهر لي مساعدته في ذلك.

وإذا أنا متهيئ للسفر بغير أن يعلم والدي، وإذا به أخذ الخبر وأخذني بالقوة القاهرة والحكومة ساعدته على ذلك، ووكل أخي بي، وحفَّظه عليَّ حتى لا أفرَّ، ولا أتمكنَ من الهرب.

وبينما أنا جالس في المنزل، إذ سمعتُ جارة لنا قبطيةً تحذر أولادها من اللعب مع أولاد المسلمين وتقول لهم: إن أبانا شنودة يقول: إذ كان إصبعك منهم فاقطعه وارمه. فخطر لي أن أسأل والدي عن ذلك وعن نبي المسلمين. فأخبرني أن شنودة كان رجلا استشهد، أما نبي المسلمين فكان رجلًا عاقلًا.

فعنَّ لي أن أبحث في أنبا شنودة، فلم أقف له على شيء في الكتب المسيحية، ثم طالعت قصص وأخبار النبي محمد ﷺ.

وفي أثناء ذلك صدر أمر محمد سعيد باشا والي مصر سابقًا بأن «تنتخب كل مديرية ستة تلامذة؛ لتعليمهم فن التلغراف بمدرسة رأس التين بالإسكندرية». فانتُخبتُ مع من انتخبتهم مديرية الجيزة، ورتبت لنا الحكومة مائة قرش شهريًّا، وأقام والدي بالعائلة في السودان قهرًا عنه.

ولما ظهر نجاحي عند الامتحان، تعينتُ تلغرافيًّا بمحطة القباري، وأُعطي إليَّ ماهية شهرية قدرها مائتان وخمسون قرشًا مصريًّا.

وبعد تنقُّلٍ كثير عُينت بأسيوط في أوائل سنة **1278** بماهية شهرية قدرها أربعمائة قرش، ثم حصل الاستغناء عني في أوائل سنة **1879**.

ولما تولى الخديوي السابق إسماعيل باشا في رمضان من هذه السنة، عينتني الحكومة وكيلًا لتلغراف محطة الروضة. كل ذلك وأنا منكبٌّ على البحث والتنقيب في قضايا الديانة المسيحية، واجتمعت عندي كتب شتى؛ فكان من صنف الإنجيل نحو الخمس نسخ من العتيقة والحديثة، كل طبعة منها لا تضاهي الأخرى، ومنها نسخة خالية من لفظ «يسوع» ومذكور بدلها «عيسى» وبدل إيليا «إلياس» وبدل يوحنا «يحيى» وبدل يونان «يونس»، وهكذا باقي الأسماء حسبما جاء بها القرآن المجيد.

وكلما سألنا القس عما نجده فيها من المباينات يقولون: كلام الله عميق لا يصل الفهم إلى معانيه. إلى أن ورد وارد الحق وخطر خاطر الصدق في أن أسمع تلاوة القرآن العظيم، فكنتُ كثيرًا ما أقصد ذلك في بيوت الأحباء الذين تتلى عندهم سُوَره الكريمة، فكان يدخل في آذاني بحالة لا أقدر أن أصفها.

ولا زلت مواظبًا على ذلك أيامًا أسمع فيها من التبشير والتحذير والمواعظ الحسنة والكلام البليغ ما يجعلني أطرب وأرنح أعطافي فرحًا وسرورًا، وقلت في

نفسي: هذا هو الحق وغيره الباطل، ولا شك أن المتمسك به متمسك بحبل غير منفصم.

وأخذت من وقتها أنكر أفعال القسس، وأفرغ الذهن مما داخل قلبي من هذه الاعتقادات الخرافية والترهات الخزعبلاتية، إلى أن تحلم العقل بعد أن جلس طويلًا في منصة البحث ووزن الحق بقسطاس الصدق، وأظهرت حبي للإسلام لبعض صحبي فأشاروا عليَّ بالتأني؛ خوفًا من أن يتصدى إليَّ أحدٌ ويقصد بي أذى.

وفي أوائل سنة 1381 عربية انتقلتُ وكيلًا لتغراف أسيوط بماهية شهرية ستمائة قرش، فتعلقتُ بصحبة المغفور له «محمد راشد بك» من أعضاء مجلس أسيوط سابقًا، لما كان عليه من العفة ودماثة الأخلاق والتفقه في الدين، وكان يراني عليه الرحمة والرضوان كلما دخل عليَّ بالمكتب في شغل شاغل بمطالعة سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وأخباره الصحيحة وأحاديثه الشريفة.

وهناك أظهرتُ له محبة الدين الإسلامي وأني أريد إظهار أمر إسلامي، فكان يتحاشى رحمه الله من ذلك خيفةً عليَّ من حوادث الزمان تلقاء هذا الإظهار المبرور.

ومع ذلك أخذ يبسط لي صحة الدين الإسلامي ويعضدني على صحة معتقدي فيه. وأخبرني عليه الرحمة أنه كان رومي الأصل، وكان شماسًا مجتهدًا في العبادة، وكان رئيس الكنيسة التي كان هو شماسًا بها رجلًا مشهورًا بالعلم، وأنه كان يحبه حبًّا شديدًا، وأنه سأله يومًا ما: هل المسيح هو الله أو ابن الله؟ قال: فما جاوبني إلا بلطم خدي[1].

---

(1) يؤمن المسلمون بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام إنسان طبيعي مثل سائر البشر، يأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويجوع ويشبع ...إلى آخر هذه الصفات البشرية، لكنه مكرَّم من عند الله تعالى بالنبوة والرسالة =

مثل سائر أنبياء الله؛ فهو من هذه الناحية يفضُل على البشر ويساوي أنبياءَ الله في منزلتهم الرفيعة على البشر؛ من حيث كونهم هداةً للأمم إلى طريق الله تعالى، وما لهم من صلة قوية بالله ﷻ.

وحينما خلق الله تعالى عبده عيسى ابن مريم شاء الله أن يكون خلقه لعيسى خارجًا عن المألوف لدى البشر؛ فكل البشر اعتاد أن تحمل المرأة باجتماعٍ مع رجلٍ، هذا هو المألوف المعتاد لكل الناس. لكن خلق عيسى ابن مريم وميلاده كان معجزةً للناس وأمرًا خارقًا للعادة، فأمه الطاهرة العذراء السيدة مريم بنت عمران عليها السلام حملت به بدون رجلٍ، حملت به بقدرة الله تعالى التي لا تحدها حدود، فالله ﷻ إله عظيم متصف بكل صفات الكمال والجلال والعظمة والكبرياء، ومن صفاته سبحانه وتعالى أنه «القادر على كل شيء»؛ يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [البقرة/ 20].

فالله قادر على خلق أي شيء وإفناء أي شيء، قادر على الخلق من العدم، وقادر على إحياء الموتى بعد أن صاروا ترابًا؛ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [الأحقاف/ 33].

فإذا أراد الله أن يخلق إنسانًا، فهو قادر على أن يخلقه من أبوين: ذكر وأنثى. وإن أراد، فهو قادر على أن يخلقه بدون أبوين؛ مثل: أبي البشر آدم عليه السلام. وإن أراد، فهو قادر على أن يخلقه بأم دون أب؛ مثل: ولد ناقة صالح الذي خرج منها بدون أب، ومثل عبد الله ونبيه عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويقص علينا القرآن الكريم ما حدث مع السيدة مريم عند ولادة ابنها عيسى، فيقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝ ﴾ [مريم/ 16-21]. تلك هي وببساطة قصة خلق المسيح عيسى ابن مريم.

أراد الله القادر خلق عيسى ابن مريم من أم بلا أب، فقال له «كن» فكان. يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ﴾ [مريم/ 34، 35].

إذن فالمسيح عيسى ابن مريم وأمه بشر عادي مثل سائر البشر، وهما عبدان صالحان التزما بأوامر الله تعالى وتقربا إليه؛ يقول تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ﴾ [المائدة/ 75].

فهربت إلى رئيس كنيسة أخرى بعيدة عن الكنيسة التي كنت شماسًا بها وأخبرته الخبر، فأخذ يلاطفني ويطيِّب خاطري، وأخذني عند زوجته وأولاده وأكرمني إكرامًا لا مزيد عليه، فمكثتُ على هذه الحالة الطيبة ثلاثة أشهر وهو يزيد في إكرامي ويغدق عليَّ بإحساناته هو وزوجته وأولاده، إلى أن اطمأن خاطري واستأنستُ بعشرته وظهرت له علائم حبي وإشارات صداقتي. ثم أخبرني يومًا ما ونحن على المائدة نتناول الغداء أنه سيريني ما به أُسَرُّ.

ولما فرغنا من الطعام، أخذ بيدي وأدخلني أودة من الداخل بعيدة عن رؤية البصر، فإذا فيها قبلة الصلاة وسجادة لطيفة وعمامة بيضاء وأداة تأدية الفروض الإسلامية.

وبعد أن تفرجت على تلك المعدات الإسلامية، انبهر عقلي، وخصوصًا عندما صرح بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق والصراط المستقيم، وأنه قد اتخذه دينًا.

ثم أوصاني بكتمان أمره، وقال لي: إن أردت الإقامة معي فعلى الرحب والسعة ويزوجني إحدى بناته.

قال: فأظهرت له العزم على السفر، فودعني بعد أن أعطاني ما أحتاج إليه أثناء السفر، وأشار عليَّ بعدم إظهار إسلامي في بلادي وبين أهلي وعشيرتي، وأنني أسعى مع ذلك في كشف حقيقة هذا الدين المتين.

قال: فقَبِلْتُ نصيحته وقصدت القسطنطينية، وبحثت في الدين الإسلامي، فإذا هو الدين الحق والصراط السوي، فرحمه الله رحمة واسعة وأحسن مثواه.

هذا وقد قمتُ وكيلًا لتلغراف الأقصر بماهية شهرية قدرها سبعمائة قرش، وبين جوانحي نار تستعر بحب فتاة شغفها حبي، وقد قضت أوقاتها في طلب الاقتران بي. فصادف نداؤها التفاتي على إثر إنابتها الصريحة وتوبتها الصحيحة. وليس في أقدار

الله ما يجعل لكليل الذهن ضعيف الفكر وجها في اللوم والتنديد، خصوصًا وأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، أَنْعِمْ بها والله من حادثة قوّت العزم وقومت اعوجاج التردد بين حب الظهور والإخفاء.

ولا تقل أيها المعاند أنها السبب الوحيد، فقد تشرب قلبي بحب النبي محمد عليه الصلاة والسلام ودينه الصحيح من بحث طويل وتنقيب دقيق آناء الليل وأطراف النهار. وعلى فرض أنها الحبالة، فنِعِمّا هي؛ فقد كانت مفتاحًا للخير مغلاقًا للضير، ولستُ بالذي دخل في أمر لم يعهد له صحةً ويعرف له حقًّا، فقد وضح لي الحق من عيون القلب والبحث، فصرت بحمد الله مقتدرًا على إقامة ألف دليل على صحة الدين الإسلامي وألف دليل على بطلان غيره، ليس أصله حاشا وكلا، وإنما الأمور الزائدة على ما يقبله العقل ويحكم به النقل.

ولما تم إظهار الإسلام الذي كَمِن حبُّه في فؤادي وأشغل جميعي؛ نفرت النفس وفارقت الأنس بهاته الغادة التي سلكت الحسن والجادة المعتادة، وبنيت بأصل كريم وحسب عظيم، ولله الحمد والمنة، فقد رزقنا ببنات وبنين ما بين محمد وأحمد ومصطفى حبًّا في رسول الله ﷺ.

وفي سنة **1882** عُينت مأمورًا لإدارة «أرمنت» التابعة للدائرة السنية، وفي سنة **1884** عُينت وكيلًا لتفتيش «الفشن» بماهية شهرية قدرها خمسة عشر جنيهًا مصريًّا، ثم انتقلت إلى إدارة تفتيش «الفيوم» بعشرين جنيهًا مصريًّا، ومنها إلى ملاحظة تفتيش «أرمنت» بثلاثين جنيهًا مصريًّا.

وأحسن عليَّ مولاى الخديوي الأكرم بالرتبة الثالثة الرفيعة، ولما برهنًّا على استقامتنا وحسن سيرنا بأعمالنا عُينت بالأمر الخديوي مفتشًا على تفتيش «بِبَا» بماهية شهرية خمسة وثلاثين جنيهًا مصريًّا، وأحسن علينا بالرتبة الثانية الجليلة.

ولما اقتضى الحال تنقيص ماهية المفتش عن الخمسة وثلاثين جنيهًا مصريًّا حُوِّلنا إلى المعاش، واتخذنا «الأقصر» مستقرًّا ومقامًا، وصرنا لا شغل لنا إلا الدين والذب عنه بكل نفسٍ أجود بها، حبًّا في الله وحبًّا لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام .

مناظرة أيوب صبري للنصارى

ومما اتفق لي: أن أحد المسيحيين الفطناء أخذ يسأل بعض المسلمين في مسائل يريد إفحامهم بها، فأخذتُ أناظره وأرد كلامه بما سيرد عليك في كتابتي التي أفتخر بتسميتها:

بهجة التفريح بحقيقة السيد المسيح

وليعلم المطالعون أن «بهجة التفريح بحقيقة السيد المسيح» أتى بها المناظر تحت عنوان «إيضاح عقائد أئمة المسيحيين» جواب البطركخانه المصرية؛ إذ المناظر أرسل لها مناظرتي، وأظهر لها عدم قدرتي على الإجابة، ولله الحمد على إفحام الجميع بمنِّه وكرمه:

بهجة التفريح بحقيقة السيد المسيح

جناب المحب المحتشم أبي مغاريوس:

بعد إهدائكم تسليماتي وتقديم احتراماتي، فإن طلبكم من بعض السادة المسلمين تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء/ 171] له احتمالان:

الأول: البحث بطريق التلاعب بالمعاني القرآنية، وتغيير مفهومها إلى ما يقوي ادعاءكم في ألوهية المسيح[1].

---

(١) كلمة «المسيح» كانت موجودة عند اليهود قبل ميلاد عيسى ابن مريم ﷺ بسنوات طويلة. وهي في الأصل العبراني «هاماشيح»، وفي الآرامية «ماشيح»، وفي اليونانية «مسيح».

=

الثاني: تشوُّفُكم لمعرفة حقيقة المسيح؛ لتكونوا كالسادة المسلمين في الاعتقاد.

وعلى ما أنا عليه من قلة البضاعة أجيبكم؛ حتى ينتفيَ الأول ويتضحَ الثاني، ولكم الخيار في الهداية أو البقاء على الغواية.

غير أني أرجو الله أن يكون جوابي نافعًا لمن يتدبره ويميت روح التعصب؛ فيفوز بالسعادة الأبدية والنعيم السرمدي، فإنني والله يحزنني أن أرى انكباب الكثيرين على زخرف الحياة الدنيا وترك البحث فيما يوصِّلُهم لسعادتهم الدائمية؛ إذ لا سعادة إلا سعادة الروح؛ فقد قال السيد المسيح: «لا تخافوا ممن يقتلون الجسد، بل خافوا ممن يذهب بالروح»(١). وبالأخص المسيحيين فقد زادت في قواهم الدينية روحُ التعصب ومنعوا عن البحث حتى في كتبهم؛ لمعرفة طريق الحياة الأبدية التي ما أتى السيد المسيح عليه السلام إلا لإرشاد الخلائق إليها.

على أنهم لو تركوا جانبًا من انكبابهم على هذه الحياة الفانية للبحث فيما هو الأهم للوصول به إلى النعيم السرمدي، وغاصوا في معاني أقوال السيد المسيح؛ لانكشف

وهذه الكلمة صفة وليست اسمًا، وهي تعني: من مُسِح رأسه بالدهان المقدس. وكان هذا الدهن المقدس الذي يتداوله كبار أحبار اليهود يُمسح به رأس ثلاث شخصيات إيذانًا بتوليهم مناصبهم كالتالي:

1- يمسح به رأس النبي حينما يصير نبيًّا من عند الله.

2- يمسح به رأس الملك عند تعيينه ملكًا.

3- يمسح به رأس العالم حينما يصبح عالمًا كاهنًا.

ولما انقطع هذا الدهن المقدس من عند اليهود، صارت هذه الصفة تطلق على الأنبياء فقط حينما يوحي الله إليهم. وعلى هذا فموسى مسيح، وداود مسيح، وسليمان مسيح، وعيسى مسيح. لذلك تجد العهد القديم يستخدم هذه الصفة ويطلقها على ملوك وأشخاص عدة. ونخلص من ذلك إلى أن صفة «المسيح» ليست خاصة بنبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام، بل يجوز إطلاقها على كل نبي من أنبياء الله.

(١) متى 10: 28.

لهم مصداقُ تفسير هذه الآية الشريفة، وها أنا أتلوا عليكم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء/ 171، 172].

فصريح هذه الآية ظاهر باللوم على من يقولون بالتثليث ويدَّعون لله ولدًا، وإنما المراد بالروح(١) في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء/ 171] كما في الجلالين هي النفس

---

(١) اعلم: أن اليهود يلقِّبون النبي الأمي الذي يجدونه في التوراة والإنجيل بلقب بـ«المسيح الرئيس» الذي هو «المسيا» في اللغات التي لا تُوجد فيها حرف الحاء.

وهذا المسيح المرتقب إذا ذكر لفظ «المسيح» فقط ينصرف إليه؛ وهو محمد ﷺ بلسانهم.

ولما كان كل نبي يُطلق عليه «مسيح» كانوا يميزون مسيحًا عن مسيحٍ بأوصاف تُعينه: فنبي الله عيسى عليه السلام «مسيح» وداود عليه السلام «مسيح»، وقد عرفه الله للناس جميعا بقوله: ﴿ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء/ 157] ما حقيقة أمره؟ وأجاب عن حقيقته بقوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾. فيكون ﴿ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ مبتدأ، والخبر هو: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾. وعلى ذلك لا يكون «المسيح الرئيس» عيسى، وإنما يكون عيسى مسيحًا كداود وسليمان وغيرهما.

أما المسيح الرئيس بلسانهم فهو محمد ﷺ، وذلك واضح في نهاية الأصحاح الثاني والعشرين وأول الأصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى.

ولما دخلت الملائكة على مريم عليها السلام بشروها بكلمة من الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران/ 46] كأن سائل يقول: ما اسمه؟ والمجيب يقول: ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. فـ﴿ٱسْمُهُ﴾ مبتدأ، =

و﴿ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ خبر. ولم يقل: إن اسم المولود منك هو المسيح الرئيس.

وقوله: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنۡهُ ﴾ الكلمة: هي كلمة الوعد بمجيء محمد ﷺ، وقد قال عنها إِشَعْيَاء النبي: «وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد» [إش 40]. كأن الملائكة لها تقول: إن الله يبشرك بكلمة منه؛ هي كلمة الوعد بالنبي الآتي؛ لأن جميع الأنبياء بشروا بمقدمه، ونحن نبشرك باقتراب زمانه كما هم بشروا. ففي سفر إِشَعْيَاء:

«على جبلٍ عالٍ اصعدي يا مبشرة صِهْيَوْن، ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم، ارفعي لا تخافي، قولي لمدن يهوذا: هو ذا إلهُك هو ذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له، هو ذا أجرته معه وعملته قُدَّامه كراعٍ يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحملان، وفي حِضْنِه يحملها ويقود المرضعات» [إش 40: 9-11].

وهذا هو نص إِشَعْيَاء بتمامه:

«عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم، طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كَمُل، أن إثمها قد عُفي عنه، أنها قد قُبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها، صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب، قوموا في القفر سبيلًا لإلهنا، كل وطاء يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض ويصير المعوج مستقيمًا والعراقيب سهلًا، فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعًا؛ لأن فم الرب تكلم صوت قائل نادٍ فقال: بماذا أنادي كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل يبس العشب ذبل الزهر؛ لأن نفخة الرب هبت عليه حقًّا، الشعب عشب يبس العشب ذبل الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد، على جبلٍ عالٍ اصعدي يا مبشرة صِهْيَوْن، ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم، ارفعي لا تخافي، قولي لمدن يهوذا: هو ذا إلهك، هو ذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له، هو ذا أجرته معه وعملته قُدَّامه كراعٍ يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحملان، وفي حِضْنِه يحملها ويقود المرضعات» [إش 40: 1-11].

وقالت الملائكة لمريم عليها السلام: كما بشرناك بمجيء الكلمة، نبشرك بأن القدوس المولود منك من الآن يكون اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وسيبشر هو أيضًا به؛ فإنه لا معنى لأن يكلم الناس صغيرًا وكبيرًا إلا بالبشرى بالنبي المعروف بلقب «الكلمة».

وما قلناه واضح من كلام الإنجيل. ونصه:

«بينما كانت هذه العذراء العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب، المنزهة عن اللوم، المثابرة على الصلاة مع الصوم يومًا ما وحدها، وإذا بالملاك جبريل قد دخل مَخْدعها وسلَّم عليها قائلًا: ليكن الله معك يا مريم. فارتاعت العذراء من ظهور الملاك، ولكنَّ الملاك سكَّن رَوْعَها قائلًا: لا تخافي يا مريم؛ لأنك قد نِلْتِ نعمةً من لَدُنِ الله الذي اختاركِ لتكوني أم نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل؛ ليسلكوا في شرائعه بإخلاص.

=

فأجابت العذراء: وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلًا؟

فأجاب الملاك: يا مريم، إن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان، لقادر أن يخلق فيكِ إنسانًا من غير إنسان؛ لأنه لا محال عنده.

فأجابت مريم: إني لعالمة أن الله قدير، فلتكن مشيئته.

فقال الملاك: كوني حاملًا بالنبي الذي ستدعينه «يَسُوع»، فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس؛ لأن الطفل قدوس الله.

فانحنت مريم بِضِعَةٍ قائلةً: ها أنا ذا أمة الله، فليكن بحسب كلمتك» [برنابا 1: 2-11].

نص آخر:

«وبَيْنا هو نائم، إذا بملاك الله يوبِّخه قائلًا: لماذا عزمتَ على إبعاد امرأتك؟ فاعلم أن ما كُوِّن فيها إنما كُوِّنَ بمشيئة الله، فستلد العذراء ابنًا وستدعونه «يسوع»، وتمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس؛ لأنه قدوس الله من رحم أمه، فإنه نبي من الله أُرسل إلى شعب إسرائيل؛ ليحوِّل يهوذا إلى قلبه ويسلك إسرائيل في شريعة الرب كما هو مكتوب في ناموس موسى، وسيجيء بقوة عظيمة، يمنحها له الله، وسيأتي بآيات عظيمة تُفضي إلى خلاص كثيرين» [برنابا 2: 6-13].

البيان:

إن الله اختارها لتكون أم نبي يبعثه، وبأى كلام يبعثه؟ ليسلكوا في شرائعه بإخلاص. وفي شرائعه: أنه إذا جاءهم النبي الأمي، يؤمنون به وينصرونه. وذلك في الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية وغيره.

وعلى هذا المعنى تكون الملائكة 1- مذكِّرون لمريم بالكلمة، 2- وقائلون لها: والمولود منك سيكون منذورًا لله من البطن -أي: راهبًا سائحًا-؛ ليبشر بمثل ما بَشَّر به إِشَعْيَاء والنبيون والعلماء ويقول: «أعدوا طريق رسول الرب واصنعوا سبله مستقيمة».

وقوله: «ستدعينه يسوع» هو أمر من الملاك أن تسميَه «يسوع». وهو معنى الأمر في القرآن الذي هو اسمه منك من الآن المسيح عيسى ابن مريم.

وقد ردت على الملائكة بقولها: «فليكن بحسب كلمتك» التي أظهرتها على لسان إِشَعْيَاء النبي. وهي تعلم أن الملاك يتكلم نيابةً عن الله، وأن الملاك يطلق على المفرد والجمع.

يؤيد ما قلناه: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء/ 171]. يتم الكلام على رسول الله. واستأنف كلامًا جديدا هو: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

=

والكلمة التي ألقاها إلى مريم هي كلمة الوعد بمجيء النبي ﷺ. وكان أنبياء بني إسرائيل يلقبون النبي ﷺ بلقب «الكلمة»، وكان النبي الذي عليه النَّوبة أن يبشر به مع جماعة من أهل العلم يطلق عليه «كانت كلمة الله عليه». أي: كان الدَّوْر عليه أن يبشر بمحمد بلقب «الكلمة». ومن هؤلاء يحيى عليه السلام فقد جاء عنه في الإنجيل:

«وفي السنة الخامسة عشر من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطي واليًا على اليهودية، وهيرودس رئيس ربع على الجليل، وفيلبس أخوه رئيس ربع على إيطورية، وكورة تراخونيتس، وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية، فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا، كما هو مكتوب في سفر أقوال إِشَعْيَاء النبي القائل: صوت صارخ في البرية: اعدوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة، كل وادٍ يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقًا سهلةً، ويبصر كل بشر خلاص الله. وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه: يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم: لنا إبراهيم أبًا؛ لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقى في النار» [لوقا 3: 1-9].

ومن هؤلاء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فقد جاء عنه في الإنجيل:

«ثم دخل كفرناحوم أيضًا بعد أيام، فسُمع أنه في بيت، وللوقت اجتمع كثيرون، حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب، فكان يخاطبهم بالكلمة. وجاءوا إليه مُقدمين مفلوجًا يحمله أربعة، وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه من أجل الجمع، كشفوا السقف حيث كان، وبعدما نقبوه دلوا السرير الذي كان المفلوج مضطجعًا عليه. فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج: يا بني، مغفورة لك خطاياك. وكان قوم من الكتبة هناك جالسين يفكرون في قلوبهم: لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف، من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟! فللوقت شعر يسوع بروحه أنهم يفكرون هكذا في أنفسهم، فقال لهم: لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم، أيما أيسر أن يقال للمفلوج: مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال: قم واحمل سريرك وامشِ. ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا قال للمفلوج لك أقول: قم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك. فقام للوقت وحمل السرير وخرج قُدَّام الكل حتى بُهت الجميع ومجدوا الله قائلين: ما رأينا مثل هذا قط» [مرقس 2: 1-12].

=

على ما عندهم يكون إلقاء الكلمة إلى مريم معناه: أننا كلفناها بأن تقوم بواجب التبشير بالكلمة، هي وابنها. كما تقول: اخترنا زيدًا هذا من بين الناس ليقوم بهذه المهمة. فإذْ يُلقى إليه التكليف بهذه المهمة، يتوجب عليه أن يقوم بها هو ومن يراه له مساعدًا من أولاده.

وأيضًا محمد رسول الله ﷺ ملقب بلقب «روح الله» في التوراة والإنجيل. فكأنه يقول: ألقينا إليها التبشير به بلقب «الكلمة»، والتبشير به بلقب «الروح».

وقد تكلمنا في الكلمة. وهذا هو الكلام عن محمد ﷺ بلقب الروح:

1- في الأصحاح الثاني والأربعين من سفر إِشَعْيَاء:

«هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته، هكذا يقول الله الرب خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحًا. أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم؛ لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة. أنا الرب هذا اسمي ومجدي، لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات، هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم. بها غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحه من أقصى الأرض أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال، ليهتفوا ليعطوا الرب مجدًا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر، الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه» [إش 42: 1-13].

البيان:

قال عن النبي الأمي الآتي: «وضعت روحي عليه» وقال: إنه سيحارب أعداءه وسينتصر عليهم: «لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض»... إلخ.

2- في الأصحاح الرابع عشر وما بعده من إنجيل يوحنا يتكلم عيسى عليه السلام عن «المُعَزِّي» فيقول:

«إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا اطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر؛ ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه؛ لأنه ماكث معكم ويكون فيكم» [يوحنا 14: 15-17].

ويقول:

=

الناطقة الإنسانية، والمضاف محذوف؛ أي: ذي روح منه. وفي البيضاوي: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. أي: وذو روح صدر منه، لا بواسطة ما يجري مجرى الأصل والمادة. أهـ[1].

«الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني بهذا، كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم» [يوحنا 14: 24-26].

ويقول:

«ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضًا؛ لأنكم معي من الابتداء، قد كلمتكم بهذا؛ لكي لا تعثروا، سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله، وسيفعلون هذا بكم؛ لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني، لكني قد كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أني أنا قلته لكم، ولم أقل لكم من البداية؛ لأني كنت معكم. وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم هذا، قد ملأ الحزن قلوبكم، لكني أقول لكم: الحق، إنه خير لكم أن انطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك، يبكّت العالم على خطيةٍ وعلى بِرٍّ وعلى دينونةٍ: أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بِرٍّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضًا، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دِين. إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» [يوحنا 15+].

البيان:

«المعزي» ترجمة «باراكليت» اليونانية، وهي في اليونانية «باراكليتوس»؛ لتدل على اسم شخص. والمسيحيون ينطقونها بالباء المفتوحة، وهي بالباء المكسورة، أفعل التفضيل من حمد، فهو «أحمد» ﷺ هكذا: «بِيركليتوس».

ووصفه بالروح القدس وبروح الحق؛ ليبين أنه سيُرسل من الله لا من الشيطان الرجيم.

(١) تفسير البيضاوي المسمى بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ص 283.

وكما ورد ذلك في حق عيسى ورد كذلك في حق آدم قوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة/ 9].

وقوله تعالى في حقه أيضًا: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر/ 29]. فقد أطلق تعالى على النفس الناطقة أنها روحه، وورد كذلك في حق جبريل قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم/ 17].

فظهر أن معنى قوله: وروح منه؛ بعيد عن وهم من يتوهم فيه تبعيض الإله، وليس ذلك قاصرًا على القرآن، فقد جاء في التوراة بالآية 14 من الباب(1) 37 من كتاب حِزْقِيَال النبي قوله في خطاب ألوفٍ من الناس الذين أحياهم بمعجزة حِزْقِيَال: «فأعطي فيكم روحي».

فأطلق هنا أيضًا على الأنفس الناطقة الإنسانية أنها روحه.

ولو قيل: إن المعنى غير ذلك وتوهم التبعيض أو نحوه، للزم أن يقال بألوهية هؤلاء الألوف، ولا قائل به.

وهذه أقوال السيد المسيح في خطاب الله كما في الآية 3 من الباب 17 من إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلتَه».

وليس يخفى أن المرسِل هو غير المرسَل، ولا مشاحة في أن قوله هذا هو عين معنى تفسير الآية الشريفة القرآنية القاضية بلزوم الإقرار لله تعالى بالوحدانية وللسيد عيسى وجميع الأنبياء بالرسالة، وأنه لا طريق موصلة للحياة الأبدية غير معرفة الإله الحقيقي وحده والإيمان بأن عيسى رسوله.

---

(1) كلمة «الباب» المقصود بها هنا مصطلح «الأصحاح» عند النصارى.

وقوله في الآية 29 من الباب 12 من إنجيل مَرْقُس: «فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد»... إلى آخر قوله للسائل: «لست بعيدًا عن ملكوت الله».

فهذه النصوص وأمثالها المشحونة بها الأناجيل واضحة غاية الوضوح بأن أول وصاياه هو الإقرار لله تعالى بالوحدانية وله بالرسالة، كما ورد بذلك القرآن المجيد بأعظم وأجلى بيان، ولم يتخلل أعماله وأقواله الجليلة أدنى شيء مما نسب إليه من الألوهية، بل الذي ثبت عنه في الأناجيل هو الزهد والعفة والقيام بخالص العبودية لمولاه، إلى أن رفعه الله.

وقد قال متى في إنجيله: «ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»(١). وفي ذلك الوقت الذي فارقته فيه الروح، لم يكن هناك ما يدعوه؛ لعدم التصريح بحقيقة العقيدة اللازم الخلق اعتقادُها فيه، إن كان لصريح أقواله باطن من جهة الألوهية كما يقولون.

أما من يُتوهم بأن قوله: «يا أبتاه» أو إطلاق لفظة «ابن الله» عليه يؤخذ منه نسبة الأبوة أو البنوة الحقيقية، فقد فارق الصواب، بل وأدخل على حقيقة معاني أقوال السيد المسيح تأويلًا غير ما يفيده صريحها.

ولعمر الحق إن هذا الأمر عظيم؛ لأنه فضلًا عن معارضة هذه الألفاظ بإطلاق لفظة الأبوة والبنوة على الصالحين والطالحين كما سيأتي، وبإطلاق لفظة «ابن الإنسان» و«ابن داود» عليه، فإنه واضح جلي لكل من يعقل أنها لفظة مجازية لا حقيقية؛ لأن معناها الحقيقي باتفاق لغة العالم أجمع وأهل العلم خصوصًا هو من تولد من نطفة الأبوين، وهذا محال في حق الله.

---

(١) لوقا 23: 46.

ومن كان له أقل تأمل في أقوال السيد المسيح ﷺ، ظهر له حقيقةُ معنى هذه اللفظة، وأنه لا يقصد بها إلا الأبوة والبنوة المجازية، كما في قوله ﷺ في الباب الخامس من إنجيل متى: «طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون».

وقوله: «وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا لمبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسبونكم؛ لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات»[١].

فأطلق على صانعي السلام والصلح لفظ أبناء الله، وبقوله لليهود أيضًا في الباب الثامن من إنجيل يوحنا: «أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنى، لنا أب واحد وهو الله. 42 فقال لهم يسوع: لو كان أبوكم الله، لكنتم تحبوني... إلخ 44 أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا... إلخ».

فأطلق على صانعي الخطايا لفظ «أبناء إبليس»، وظاهر أن إبليس ليس أبًا لهم بالمعنى الحقيقي. وكما أن الله ليس أبًا لهم بهذا المعنى، فلا بد من الحمل على المعنى المجازي.

وبالجملة فالأمر واضح بغاية التنوير والصراحة في عدة مواضع بالأناجيل، وبجملة أخبار ونبوءات بالتوراة تنادي من يهمه البحث؛ لمعرفة طريق النعيم الأخروي الذي لا يفنى، ومن ينكر معرفة مواضعه ويريد الاطلاع فعليه الكتابة وعلينا البيان.

هذا، وحيث الغرض من تبيان ذلك لحضرتكم ما هو إلا مجرد إيضاح الواقع، ولا يتخلل ذلك أدنى قصدٍ غير بذل صرافة الود والمحبة؛ فإن منحتم هذه الرقعة

---

(١) متى 5: 44.

دقيق أنظاركم المجردة عن غير نصرة الحق، وكشف الله لكم فيها الحقيقة؛ يكن لنا بذلك تمام البشرى بتوفيقنا وإياكم؛ لاجتناب ما يبعدنا عن الدخول في ملكوت الله كما نهانا السيد المسيح عن ذلك بقوله في متى الأصحاح السابع: «ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي». إلى أن قال: «فحينئذٍ أصرح لهم بأني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم».

ولا يخفى أنه لم يدعه أحد من أهل الإسلام بـ«يا رب» أصلًا، بل إنهم عرفوه وآمنوا به كما ينبغي أن يُعرف ويُؤمن به؛ اتباعًا لإرشاده عليه السلام بأن الإيمان بتوحيد الله ورسالته هو طريق الحياة الأبدية، وعملًا بقول الله تعالى على لسان إِشَعْيَاء النبي في التوراة: «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي»... إلخ[1].

ولا ريب أن العبد المختار الموعود بالتعضيد، والتعضيد من معضد غيره قطعًا؛ لا يكون إلهًا، بل عبدًا صرفًا اختاره الإله رسولًا ووعده بالنصر على أعدائه.

وهنا يحق لذكي فطنتكم أن تقاسمنا العجب على زعم من يدعي اقتدار اليهود الأخساء على قتله وصلبه، مع ما في ذلك من خُلْفِ الوعد الذي وعده الله إياه بتعضيده، وإلا فلا وجه لمن يزعم ذلك إلا أن يقول بعدم انطباق هذه النبوءة وهذا الوعد عليه.

والحق أن الحكم نافذ فينا، ولا رادَّ لقضاء الله، وإلا فبأي موضع من التوراة والإنجيل تصريح بما يقوله المتقولون بأن السيد المسيح كان يخفي أمر الألوهية عن اليهود أو الشيطان؟ وأي ذوق يسلم هذا مع اليقين بأنه ما أتى عليه السلام إلا للإرشاد على طريق النجاة التي لا يناسب كمالَه السكوتُ على أشياء تُوجب التمويهَ والارتيابَ فيها.

---

(١) إِشَعْيَاء 42: 1.

هذا، وإن رأيتم أهميةَ لزوم البحث لزيادة كشف الحقائق عن طريق الحياة الأبدية التي ما كانت هذه الدار الفانية إلا مزرعة لها، وأردتم زيادة إفصاح عن أي أمر من هذه المواضع؛ فيسرنا إلى الغاية أن نُجيب محبتكم عنه بكل استعداد، وإلا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

6 فبراير سنة 1890

رد البطركخانه على عِزّتلو أفندم أيوب بك صبري

تشرفنا بإفادة حضرتكم المشتملة على النصيحة من جهة رفض حب الجاه والزخارف الدنيوية والانعطاف إلى ما يؤدي إلى الحياة الأبدية، ثم أوردتم تفسير آيات قرآنية أردتم أن نتمسك بها في جهة المسيح ونعترف بأنه رسول الله لا إله.

فأولا: عما أوردتموه من القرآن الشريف، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ﴾... إلى قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء/ 171].

فنقول: إنه حقيقي أن المسيح مولود من مريم ومرسول من الله؛ لتمام مقاصد إلهية، كما قال هو في إنجيل يوحنا: «إن الآب أرسلني»[1].

بيد أن المعنى في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. هو اعتقادنا نحن أن الله واحد في ثلاثة أقانيم: ذات، ونطق، وروح. أعني: الله، حي، ناطق.

والقرآن ها هو مثبت ذلك أيضًا؛ حيث أوضح الله وكلمته وروحه، ولم يقل عن المسيح أنه كلمة من ضمن كلامه؛ لأنه لو كان ذلك لكان يقال: إنه كلمة منه، كما قال ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، لكنه قال: إنه كلمة الله، كاعتقادنا -نحن المسيحيين- بالتمام.

ومن المعلوم أن كلمة الله لا تنفصل عنه ككلامنا، وأن السادة المسلمين يُقِرُّون أن الله غني عن التكلم؛ إذ أنه لا يتكلم مثلنا. ورسوله نوع، وكلمته نوع.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ﴾. فمعناه: لا تقولوا ثلاثة آلهة، بل الله واحد كما أنا نعتقد أن الله واحد.

---

(١) يوحنا 20: 21.

وقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾. فنحن أيضًا لا نعتقد أن له ولدًا كأولاد بشرية؛ لأن الولد ينفصل عن أبيه، بل نعتقد أن نطقه الصادر منه المتحد به يدعى ابنه؛ كما قال الملاك جبريل للعذراء مريم: «إن المولود منك قدوس، وابن الله يدعى».

وبهذا القول ثبت أنه قدوس، وأنه يُدعى ابن الله، وهذا مطابق لقول النبي: «كلمة الله خلقت السماوات، وبروح فيه كل قواتها».

وهذا الوحي يُثبت ذاته وكلمته وروحه. ومن المعلوم أن هؤلاء الأقانيم هي خواص الله الرئيسية، وبدون هذه الأقانيم الثلاثة لا يكون إلهًا تامًّا، حاشاه من ذلك.

أما عن الروح وقولكم فيه: إنه كباقي حلول الروح في بعض البشر. فإن إرسال الروح لمريم هو لأجل تطهيرها لقبول الكلمة الإلهية، ومن يتأمل في ولادة المسيح حالًا فإنه يُقِرُّ بألوهيته؛ فإن حبل العذراء به بدون طبيعة بشرية مع وجود الرجال والنساء أثبت أن الروح القدس طهرها، والكلمة الإلهية خلقت جسدًا كاملًا بنفس واتحدت به باتحادها بالذات والروح. وهذا فهمنا حسب ضعف عقلنا.

وقول المسيح: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» وأمثال ذلك، هو من خصائص الناسوتية التي اتخذتها واتحد بها، وهذا لا ينفي الجوهر الأصلي؛ أي: اللاهوتية.

كما أننا إذا عملنا قياسًا تشبيهًا؛ وهو أن واحدًا من الملوك يقول لرعاياه: أنتم إخوتي وآبائي آباؤكم. فليس بتلك الألفاظ ينزل عن سدة ملكه ويتجرد عن الملك، بل إن ذلك يكون منه من نوع تواضع أو سياسة أو إنسانية، مع كونه لا يزال ملكًا عليهم. وعلى كل حال فإن الإنسانية نوع والمملكة نوع آخر، وكذلك اللاهوت نوع والناسوت نوع.

أما حقيقة إيماننا نحن النصارى، فإن الله لما خلق آدم وحواء وأسكنهما الفردوس وأمرهما ألا يأكلا من الشجرة وأغراهما الشيطان وخالفا الوصية وأكلا منها، وصار الشيطان له نفوذ عليهما؛ فطردهما الله من الفردوس ووكل بهما ملاكًا بسيف من نار يحرسهما.

ومع كون الأحكام البشرية قاضية بأن القصاص يخص الفاعل نفسه، فإن هابيل آدم الذي كان مقبولًا عند الله لا يُسمح له بدخول الفردوس ولا لغيره من نسل آدم المقبولين لديه، فخطأ آدم وحواء لم يَحِقْ بهما وحدهما فقط، بل حاق بالجنس البشري نسلهما جميعِه.

وقد كان الله رسم تقديم الذبائح الحيوانية كفارةً عن الخطايا، لكن لما كانت خطيئة العالم جميعه لا يمكن التكفير عنها بذبيحة حيوانية، أراد الله برحمته تخليص الجنس البشري منها، فأرسل كلمته واتخذها جسدًا بشريًا في عذراء مختومة بعد تطهيرها بالروح القدس، وسمح بصلب هذا الجسد الإنساني وإهانته؛ كفارةً عن خطأ ذلك الجنس؛ لكي تأخذ هذه البشرية التي أخطأت القصاص في الجسد المتحد بالكلمة الإلهية وتفتدي وتخلص من خطئها. وأيضًا نظرًا لحلول اللاهوت بها ترتقي وتستحق العود إلى فردوسه والتمتع بنوره.

وقد كان وتم الخلاص في يوم صلبه؛ إذ قال المسيح للص الذي آمن به: «أنت اليوم تكون معي في الفردوس»(١). وقد أنبأ عن ذلك الأنبياء وإِشَعْيَاء العظيم قال عن ذلك في أصحاح 52 يقينًا: «إنه احتمل أمراضنا وأوجاعنا، ونحن حسبناه كأبرص ومضروبًا من الله، فأما هو جُرح لأجل آثامنا، مستحق لأجل رجائنا، تأديب سلامنا عليه، وبشدخيه شفينا نحن».

---

(١) لوقا 23: 43.

وقالوا: إنه حبس مع اللصوص، وعن بيعه بثلاثين فضة، وعما حصل في صلبه وآلامه.

فأما عن كيفية إلهيته فليس التصديق بها كان عن اعتقادات أو تصورات عقلية، بل هو بوحي إلهي صدر على لسان الأنبياء الكرام، محفوظ بالتوراة التي بأيدي اليهود أعداء النصارى الذين يظنون أنهم ينتظرون مجيء المسيح الحقيقي، ولم يكن التصديق بهذا النوع فقط، بل بتجربة وامتحان في وقائع متعددة حصلت لم تزل منظورةً أمامنا؛ لأجل تثبيت كلام الله كالتنبؤ بدوام خراب مدينة بابل ونينوي، وقد مضى عليهما أكثر من ألفي سنة من وقت صدور هذا الوحي، والخراب مستمر بهما إلى الآن، وليس لهما بقايا إلا كيمان تثبت أصل وجودهما. وكالتنبؤ عن مصر بأنه لم يكن منها قائد -أي: ملك يقود تجريدات عسكرية-. ومن وقت النبوءة للآن لم يكن ملك مصري الجنس قال: إن بعد غضب الرب عليهما يرجع ويرضى عليهما. وها هي متقدمة في العمار. وأمثال ذلك.

البراهين على ألوهية المسيح

وهنا نورد بعض براهين في الوحي الإلهي الصادر على لسان الأنبياء الكرام عن إلهية المسيح فنقول:

قال إِشَعْيَاء النبي في أصحاح 2: «إن من صِهْيَوْن يخرج الناموس، وكلمة الرب في أورشليم».

وفي أصحاح 9: «لأن صبيًّا ولد لنا، وابنًا أعطينا، وصارت رئاسته على منكبيه، ويدعى اسمه عجيبا مشاورًا الله، أبًا للعالم الآتي رئيس السلام».

وفي أصحاح 25: «ها إلهكم يأتي بانتقام الجزاء، والله ذاته هو يأتي ويخلصكم، حينئذٍ تنفتح أعين العمي وتُفَتَّح آذان الصم، حينئذٍ يقفز مثل الغزال الأعرج، ويحل لسان البكم». عجائب المسيح هذه مثبوتة بالقرآن والإنجيل.

وفي أصحاح 40: «على جبلٍ عالٍ اصعد يا مبشر صِهْيَوْن، ارفع صوتك بقوة يا مبشر أورشليم، فارفع لا تخف فقل لقرى يهوذا: ها إلهكم، عما الرب الإله يُقبل بقوة وذراعه يتسلط، ها أجرته معه، وعمله قُدَّامه، هو مثل الراعي يرعى قطيعه بذراعه ويجمع الخراف».

وفي أصحاح 60: «قومي استبشري يا أورشليم؛ لأنه قد جاء نورك وكرامة الرب أشرقت عليك».

وقال: «ها هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعى اسمه عمانويل، الذي تفسيره: الله معنا».

وقال دانيال النبي في أصحاح 7: «كنتُ أرى في رؤيا الليل وإذ مع سحاب السماء مثل ابن البشر جاء ووصل إلى قديم الأيام، وقدموه إلى قدامه؛ فأعطاه القدرة والكرامة والمملكة، وجميع الشعوب والأسباط والألسنة يعبدونه، إن قدرته قدرة أبدية التي لم تنزع ومملكته مملكة لن تنسد».

وقال في أصحاح 9: «سبعين أسبوعًا اقتصرت على شعبك ومدينتك المقدسة؛ ليبطل التعدي وتفنى الخطيئة ويمحى الإثم ويجلب العدل الأبدي وتكمل الرؤيا والنبوة، ويمسح قدوس القديسين، فأعلم وأدري أن من خروج الكلام أن تبنى أيضًا أورشليم إلى المسيح القائد سبعة أسابيع واثنين وستين أسبوعًا تبنى أيضا الأسوار والسوق في ضيقة الأوقات، وبعد الاثنين وستين أسبوعًا يقتل المسيح ولا يكون شعبه الذي سينكره والمدينة والقدس يبددهم الشعب مع القائد الآتي

وانقضاؤه خراب، وبعد تمام القتال الخراب المقضي ويثبت العهد لكثيرين أسبوع واحد، وفي نصف الأسبوع تبطل الذبيحة والقربان، ويكون في الهيكل رجسة الخراب وإلى الفناء والانقضاء يدوم الخراب».

فمن وقت هذا الوحي لحد مجيء المسيح والحوادث التي نجزت هو سنة 490. وكل ما ذُكر قد تَمَّ، وهيكل اليهود هُدم وبطلت الذبائح.

وقال داود النبي في المزمور الثاني: «الرب قال لي: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتُكَ».

وفي مزمور 110: «قال الرب لربي اجلس عن يميني».

وقال: «في البطن قبل كوكب الصبح ولدتُكَ».

وقال: «يا أورشليم يا أم الإنسان، وإنسان حل فيها وهو العلي الذي أسسها».

وقال في إنجيل لوقا في الأصحاح الأول عن قول الملاك جبرائيل إلى العذراء مريم: «فها أنت تحبلين في البطن وتلدين ابنًا، وتدعين اسمه يسوع، هذا يكون عظيمًا وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه انقضاء. فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لم أعرف رجلًا؟ فأجاب الملاك وقال لها: روح القدس تحل عليك وقوة العلي تظللك»... إلخ.

وقال في إنجيل يوحنا في الأصحاح الأول: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، والله هو الكلمة. كان هذا في البدء عند الله، كل به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان، به كانت الحياة، والحياة هي نور الناس، والكلمة صار جسدًا وحل فينا ورأينا مجده مجدًا».

وفي أصحاح 14 عدد 9: «من رآني فقد رأى الآب، أما تؤمنون أني في الآب والآب هو فيَّ؟ الكلام الذي أتكلم لكم أنا به لست أتكلم به من عندي، بل أبي الذي هو حالٌّ فيَّ هو يفعل الأعمال».

وقال في إنجيل متى في أصحاح 28 عدد 19: «اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم، وعمدوهم باسم الآب، والابن، والروح القدس». وأمثال ذلك شهادات كثيرة.

فإذا تأمل القارئ الفطن بدون تعصب إلى هذه البراهين الواضحة، حقق يقينًا أن الإيمان بإلهية المسيح هو بناءٌ على شهادات صريحة.

الأدلة من القرآن على ألوهية المسيح

فلنبحث الآن في القرآن الشريف، لعلنا نجد برهانًا واضحًا.

فانظر أيها الحبيب إلى هذا البرهان العجيب المسجل في سورة المائدة قول الله تعالى عن المسيح: «وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير وتنفخ فيها وتكون روحا بإذني»[١]. فأرنا من ابتداء آدم لحد الآن كم ملائكة وأنبياء ورسل وصالحين اختارهم الله وأجرى على أيديهم عجائب باهرة، فهل سمح لأحد منهم أن يخلق أرواحًا؟ حاشا لله من ذلك؛ إذ أن خاصيته تعالى التي تثبت إلهيته هي الخلقة، وهذه الفاعلية لا تنسب مطلقًا لغيره لا لرؤساء ملائكة ولا أنبياء ولا رسل بل لله وحده؛ لأنه متى كان هناك خالق غيره كان مثله أو شريكه، نعم إن هناك أسماء من أسماء الله تنسب إلى آحاد الناس؛ كقولك: فلان كريم أو حليم. وأمثال ذلك. وأما خاصية الخلقة، فلا تنسب لغير الله. وانتسابها لغيره يكون من الكفر؛ كما قال على لسان أنبيائه: «إني أنا غيور منتقم، وكرامتي لا أعطيها لغيري»[٢]. وما دام أن الخالق سمح للسيد المسيح بالخلق، فقد صار هو أقنومًا منه الذي هو كلمته.

---

(١) المسيحي هنا يورد الآية القرآنية محرفةً، وسوف يرد عليه المسلم بعد قليل.

(٢) إِشَعْيَاء 48: 11.

أما قوله في إنجيل يوحنا: «وهذه هي حياة الأبد أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته». فمعلوم أن الله أرسل كلمته وحقيقي أن المُرسِل غير المُرسَل كما قال: «إن الآب أرسلني».

وأما ما لُوحظ بكتاب حضرتكم من عدم مناسبة التصديق بصلب المسيح(١)؛ لكونه مؤيدًا بالروح القدس. فإننا لا نقدر أن ننكر ذلك؛ لأنه مثبوت في التوراة

---

(١) في الأناجيل المقدسة عند المسيحيين: أن المسيح عيسى عليه السلام أكل سمكًا مشويًا وشهدَ عسلٍ مع الحواريين بعد قولهم بقتله وصلبه. وهذا الأكل يدل على أنه لم يقتل ولم يصلب. وبدأ سفر أعمال الرسل بأن المسيح ظهر لمدة أربعين يومًا وكان يتكلم مع الحواريين عن الأمور المختصة بملكوت الله. ومعلوم أن ملكوت الله الآتي من بعده؛ هو ملكوت محمد ﷺ طبقا لنبوءة دانيال في الأصحاح السابع. ولكلام المسيح وهو: «توبوا؛ لأنه قد اقترب ملكوت السماوات». وهذه نصوص تدل على ذلك:

1- في سفر أعمال الرسل:

«الكلام الأول أنشأته يا ثاوفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه بعدما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم الذين أراهم أيضًا نفسه حيًّا ببراهين كثيرة بعدما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يومًا، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله» [أع 1: 1-3].

2- في يوحنا:

«بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية، ظهر هكذا كان سِمْعَان بطرس وتوما الذي يقال له التوام ونثنائيل الذي من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم قال لهم سمعان بطرس: أنا اذهب لأتصيد. قالوا له: نذهب نحن أيضًا معك. فخرجوا ودخلوا السفينة، للوقت وفي تلك الليلة، لم يمسكوا شيئًا. ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطئ، ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع. فقال لهم يسوع: يا غلمان، ألعل عندكم إدامًا؟ أجابوه: لا. فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: هو الرب. فلما سمع سِمْعَان بطرس أنه الرب، اتَّزر بثوبه؛ لأنه كان عريانًا وألقى نفسه في البحر. وأما التلاميذ الآخرون فجاءوا بالسفينة؛ لأنهم لم يكونوا بعيدين عن الأرض إلا نحو مائتي ذراع، وهم يجرون شبكة السمك. فلما خرجوا إلى الأرض، نظروا جمرًا موضوعًا وسمكًا موضوعًا

=

والزبور والأربعة أناجيل، ولا يجب أن نستغرب ذلك؛ لأن الملوك الكفرة عَذَّبوا شهداءَ الله الذين كانوا مؤيَّدين بالروح القدس بكل أنواع التعذيبات الجهنمية

عليه وخبزًا. قال لهم يسوع: قدموا من السمك الذي أمسكتم الآن. فصَعِدَ سِمْعَان بطرس وجذب الشبكة إلى الأرض ممتلئةً سمكًا كبيرًا مائة وثلاثًا وخمسين. ومع هذه الكثرة لم تتخرق الشبكة. قال لهم يسوع: هلموا تغدوا. ولم يجسر أحد من التلاميذ أن يسأله: من أنت؟ إذ كانوا يعلمون أنه الرب» [يو 21: 1-12].

3- في لوقا:

«ثم اقتربوا إلى القرية التي كانا منطلقين إليها، وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد. فألزماه قائلين: امكث معنا؛ لأنه نحو المساء وقد مال النهار. فدخل ليمكث معهما، فلما اتكأ معهما، أخذ خبزًا وبارك وكسر وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه، ثم اختفى عنهما. فقال بعضهما لبعض: ألم يكن قلبنا ملتهبًا فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب. فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم، وهم يقولون: إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان. وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز. وفيما هم يتكلمون بهذا، وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم. فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحًا. فقال لهم: ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟ انظروا يدي ورجلي أني أنا هو، جسوني وانظروا؛ فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا، أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبين، قال لهم: أعندكم ههنا طعام؟ فناولوه جزءًا من سمك مشوي وشيئًا من شهد عسل» [لوقا 24: 28-42].

4- في مرقس:

«أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون، ووبَّخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام، وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها. من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يُدَنْ» [مرقس 16: 14-16].

5- في متى:

«واذهبا سريعًا قولا لتلاميذه: إنه قد قام من الأموات، ها هو يسبقكم إلى الجليل، هناك ترونه، ها أنا قد قلت لكما. فخرجتا سريعًا من القبر بخوفٍ وفرحٍ عظيمٍ راكضتين؛ لتخبرا تلاميذه. وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما وقال: سلام لكما. فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له. فقال لهما يسوع: لا تخافا، اذهبا قولا لإخوتي: أن يذهبوا إلى الجليل، وهناك يرونني» [متى 28: 7-10].

كحريق وغلي وتقطيع وصلب وقطع الرءوس. وفي هذا كله كان الله راضيًا، مع أنه قادر على الانتقام في لمح البصر.

وإذا كان الله راضيًا بصلب جسد المسيح كفارةً عن خطايا العالم، فيجب علينا الإيمان بدون مناقصة.

ومن هذا القول استدلينا أنه تصور لحضرتكم حصول تغيير وتبديل في التوراة والإنجيل، كما يتوهم بعض أهل الإسلام، لكن ذلك مستحيل؛ لأن التوراة والإنجيل كانا قبل ظهور النبي محمد، وقد ورد في القرآن: «يأيها المؤمنين، أنتم ليس على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل»[١].

وفي خزائن العلوم بأوربا توجد نسخ من التوراة والإنجيل مأخوذة من الآثار القديمة الشرقية، وهذه نسخ مسطرة من قبل النبي محمد، وهي مثل كتب التوراة والأناجيل الآن، ولو كان فيها تحريف لذُكر ذلك في القرآن، ولا كان النبي يجرد أهل الإسلام عن الإيمان والدين حتى يُقيموا هذه الكتب المزوَّرة، بل كان أوضح عن التوراة والإنجيل اللَّذَيْن يجب إقامتهما مع محل وجودهما؛ لأنهما ضروريان للمسلمين، وبدون وجودهما وإقامتهما لم يكونوا على شيء. وإن اللَّذَيْن بأيدي اليهود والنصارى حصل تغيير وتبديل بهما. وما دام لم يتضح ذلك بالقرآن؛ فيُعلم أن الموجودين هما ذاتهما، ويكون خطأً عظيمًا على أهل الإسلام إذا ناقضوا فيهما، بل ويكونون على غير إيمان بالدين المحمدي.

ولم يفهم ما هي الأسباب التي أوجبت النصارى لتغيير الإنجيل، هل يصح أن يتوضح به عدم صلب المسيح وهم يوضحون أنه صُلب ويقبلون هذا الاحتقار؟ أو

---

(١) المسيحي هنا يورد الآية القرآنية محرفةً، وسوف يرد عليه المسلم بعد قليل.

هل بدلوا في كثرة الزوجات ولذات العالم بزواج امرأة واحدة ولو تكون رديئة؟ أو غيروا الوصايا التي تأمر «أن تحب حبيبك وتبغض عدوك» بوصية «أحبوا أعداءكم وأحسنوا لمبغضيكم؟»[1] هذا لا يتصور أبدًا، وبالأخص أنه لا يصح أن النصارى يغشون أنفسهم في دينهم.

ثانيا: لا يتفق ولا لملك من الملوك أن يجمع الكتب الموجودة بالعالم ويحرقها كلها، وينشئ غيرها وينشرها، مع عدم وجود الورق والطبع وقتها.

ثالثا: إن أعداء الديانة المسيحية فلاسفة ومؤرخون كانوا بالمرصاد إلى المسيح ورسله، وكانوا يطعنون فيه وفي آياته وينسبونها إلى سحر. فلو كانت حصلت تلك الحادثة المهمة، لكانوا ملئوا بها كتبهم، وكانت أيضًا تُذكر في كتب النصارى في المضادِّين الذين كانوا. فمن ذلك لم يثبت هذا الوهم، وإنما غاية القول إذا كنا نتبع الإيمان بالبراهين العقلية فنضل ولا يكون عندنا إيمان؛ لأننا إذا بحثنا في ذات الله وتصورنا كيف أنه يكون بغير أصل ولا بداية ولا أب ولا أم، مع أن كل شيء له ابتداء، فنجزم أنه ليس موجودًا إله.

ثم إذا تأملنا في كون واحد يخلق كل هذه المخلوقات التي لا يمكن حصر أسمائها، ويملأ الكل فوق الفوق وتحت التحت، ويدبر كل أمورها ويطلع على خفايا، فلا نصدق مطلقًا أن توجد مقدرة تتصل لهذا المقدار.

كما وأنه وجد بالعالم علماء وفلاسفة تعمقوا في البحث في الله وقدرته وغرقوا في البحور بدون أن ينتفعوا بشيء، بل ضلُّوا تمام الضلال، وكل أهل الأديان العارفين بالله يقرون بعدم إدراكه وعدم فحص حكمته ووجوب الإيمان بدون بحث.

---

(١) متى 5: 44.

فإذا قال لنا ساداتُنا أهلُ الإسلام: كيف تعتقدون أن الله ثلاثة أقانيم؟ وكيف الكلمة تتجسد في بطن العذراء وتكون متحدةً بالذات والروح المالئ السماوات والأرض؟ لو أن هناك براهين كافية لذلك بخلاف ما أوضحناه، وبعض يعملون تشبيهًا لتقريب الإيمان بالشمس وقرصها وشعاعها.

فنقول: إن ذلك ليس من خصائصنا ولا من خصائص المؤمنين، بل يجب علينا الإيمان بدون بحث؛ لأنه لا يليق لنا أن نتجاسر بالبحث في ذات الله وكلمته الغير متناهية ونناقضه في ذات نفسه وفي أفعاله؛ لأنا إذا قدرنا أن ندرك أسرار كلمته انخفض شأنُ إلهيته.

فلنأخذ قياسًا عما يقع بهذا العالم؛ وهو أنه يوجد ناس صالحون متعبدون مستقيمون والمصائب تحيط بهم من كل جهة، ويوجد ناس صالحون متمتعين بثروة وراحة ونموٍّ، وناس أشقياء متمتعين بصحة وغنى وراحة، وناس كثيرو النسل متضايقون منه لعدم وجود القوت الضروري، وناس أغنياء بدون نسل يشتهون ولو ابنة واحدة ولا يلحقونها، وهكذا، وقد تنتصر ملوك كفار وينخفض مؤمنون صالحون.

فإذا كنا نقيس ذلك على حسب عقلنا نقول: إن الله غلطان، وأفعاله بدون انتظام، أو ليس موجودًا إله.

ولكن إذا أدركنا ضعفنا نقول: إن حكمة الله عجيبة وأفعاله صالحة، وكلها بوزن واستقامة.

وإذا تأملنا فيما حصل بعد صعود المسيح، نجد أن الإيمان المسيحي اضطهد في كل زمان، ليس من عباد الأصنام فقط، بل ومن المسيحيين أنفسهم. وانتصبت

مجامع[١] وصارت مباحثات ومجادلات مستمرة، حتى إلى جيلنا؛ فإن المباحثات لم تقطع، ولكن مع كل لم يثبت ما يخل بأصول الاعتقاد المسيحي عن ألوهية المسيح وكونه كلمةَ الله المتحدة بالذات والروح.

---

(١) المجامع: مفرد مجمع. والمجمع المسكوني معناه: «اجتماع رعاة ومعلمي الكنيسة من جميع جهات المسكونة -العالم-؛ لمناقشة أمر يخص الإيمان المسيحي، بهدف حفظ النظام وسلامة العقيدة بين المسيحيين في شتى أنحاء العالم».

ويقترب هذا المصطلح من تعبير «مؤتمر دولي»، ولكنه لا يخص الدول، بل الكنائس المسيحية في البلدان المختلفة.

أنواع المجامع

توجد ثلاثة أنواع من المجامع:

1- المجامع المكانية **Diocesan Councils**: حيث يجتمع الأسقف بالقسوس والشمامسة في مركز الأبرشية أو في المكان الذي يحددونه في داخل الأبرشية.

2- المجامع الإقليمية أو المحلية أو العامة **Provincial Councils**: وهي التي تضم أساقفة كنيسة واحدة «بلد واحد» يقوم البابا «البطريرك» بالاجتماع مع الأساقفة؛ لتدبير شئون الكنيسة أو ما يواجه الكنيسة من أخطار. وهو يقابل الآن اجتماعات المجمع المقدس برئاسة البابا. وفي الكنيسة القبطية يتم هذا الاجتماع في يوم السبت السابق لعيد حلول الروح القدس، ويجوز عقد هذا الاجتماع في أي وقت.

3- المجامع المسكونية: وتنعقد بسبب ظهور بدعة أو انشقاق يؤثر على الإيمان الكنسي. ويتم عقد المجمع المسكوني بدعوة من الإمبراطور المسيحي، ويتم حضور غالبية أساقفة الكنيسة -شرقًا وغربًا-، حتى يتمَّ تمثيل كامل للكنيسة الجامعة ككل. وفي المجمع المسكوني يقرر حكم جديد أو يُستقر على رأي لم يُتفق عليه من قبل.

تاريخ المجامع

عرفت المجامع في اليهودية؛ فقد عقد رؤساء كهنة اليهود مجامع للسيد المسيح [متى 26: 3)، مرقس 15: 1]. كما اعتاد السيد المسيح أن يجتمع مع تلاميذه ويفسر لهم أقواله السمائية عندما يعسر عليهم فهمها.

=

ومن المعلوم أنه من ابتداء المسيح لحد الآن مضى نحو 1900 سنة، والنصارى تعدادهم نحو مائتي مليون، فإذا حسبنا بكل مائة سنة مائتي مليون، نجد جملة النصارى مائة وتسعين ألف مليون. وبكل هؤلاء العالم والمباحثات والمجادلات التي أجروها، فغاية ما اتصل إليه فهمهم جميعًا هو نفس اعتقادنا المتمسكين به الآن.

وأما أهل الإسلام فهم في الديانة صريحون غاية الصراحة، ولا يميلون طبعًا إلى المجادلات والبحث في الديانة. ولا بأس بهذه الخصلة الجميلة؛ فإن دين الإسلام لا يتزعزع ولا يتفرق ما دام أهل الإسلام متصفين بهذه الصفة.

فبناء على ذلك، إن كان سادتنا أهل الإسلام يناقضونا في اعتقادنا، فلأجل المناسبات التي أوضحناها لا نتبع مشورتهم؛ نظرًا لصراحتهم وعدم ميلهم طبعًا إلى البحث.

وأخذت المسيحية النظام اليهودي وعُقد أول مجمع يسجل في التاريخ الكنسي المسيحي هو أول مجمع عقدته الكنيسة الذي كان مكانه أورشليم عام 50 ميلادية برئاسة القديس يعقوب الرسول أسقف أورشليم [أعمال 15].

ثم أخذت الكنيسة هذا النظام، فكانت تُعقد المجامع كلما حدث خلاف أو انتشر فكر غريب أو وجد من الأمور ما يستدعي ذلك.

ووفقًا للكنائس الشرقية القبطية والأرمنية والسريانية فإن المجامع المسكونية المعترف بقراراتها لديهم أربعة: مجمع نيقية، ومجمع القسطنطينية الأول، ومجمع أفسس الأول، ومجمع أفسس الثاني. ولا تعترف هذه الكنائس بقرارات مجمع خلقدونية.

ووفقًا للكنيستين الرومانية والبيزنطية فإنهم يعترفون بقرارات مجمع خلقيدونية المجمع المسكوني الرابع وأحد المجامع المسكونية السبعة.

وقد انعقد مجمع خلقيدونية سنة 451م، يُعتبر من أهم المجامع؛ إذ نجم عن هذا المجمع انشقاق أدَّى إلى ابتعاد الكنائس الشرقية القبطية والأرمنية والسريانية عن الشركة مع الكنيستين الرومانية والبيزنطية الذين يرون أن مجمع خلقيدونية المجمع المسكوني الرابع وأحد المجامع المسكونية السبعة.

وأما النصارى فقد بحثوا وحققوا بغاية التدقيق، فلذلك يكونون أكثر معرفة في هذا الاعتقاد. وما أحسن قولَ من قال: إنه يجب على كل إنسان أن يثبت في ديانته التي ولد بها -يعني: من طوائف المؤمنين الذين يعرفون الله، ليس عباد الأصنام-، فإذا كان هناك بعض غلط في إيمانه فيكون معذورًا فيه. وأما كونه يبحث بحسب عقله فمطلقًا لا يتيسر له الجزم بحقيقة؛ لأنه إذا كان علماء الدنيا الكبار لم يتفقوا مع بعضهم على قاعدة واحدة اعتبروها الحقيقة، فكيف يمكن لواحدٍ منا تحقيق ذلك؟ والأوروباويون فيهم ناس كثيرون تبعيون لا يصدقون ألوهية، لكن يُقرون أن شريعة المسيح يحق لها أن تدعيَ الإلهية؛ لأنها شريعة كمال ولا توجد شرائع مثلها.

إنه بإفادة حضرتكم تنصحونا بأنه يجب رفض الجاه والزخارف الدنيوية والسعي إلى ما يؤدي إلى الحياة الأبدية، ولهذا السبب عينه تكلفنا في تحرير هذا؛ لأنه لعدم معرفتنا كان صعبًا علينا، وكل هذا أملًا بأنه مع وقوف حضرتكم على الحقيقة تصدقون القول بالفعل من المناظرة نحو الحياة الأبدية، وعسى يكون تعبنا سببًا لتذكير حضرتكم بما أوضحتموه لنا؛ لأن حب الحياة ولذات هذا العالم تذهب كحلم الليل، ويجب غاية الحذر منها.

والله هو الهادي إلى الصواب، وهو يهدي من يشاء، وأرجو من حضرتكم السماح وعدم المؤاخذة إذا رأيتم غلطًا؛ لأن ذلك حسب إمكاننا.

أفندم الداعي

شنودة مغاريوس

استفسار أيوب صبري من البطركخانه عن معنى ألفاظ

جناب المحب العزيز المحتشم الخواجه شنودة مغاريوس:

بعد تقديم احترامنا لمحبتكم، قد حظينا بالأمس بالمكتوب المبعوث لنا من جنابكم عن يد حضرة المحب الخواجة «نقولا أورسكلكي» ردًّا للسابق تقديمه لمودتكم في 6 فبراير سنة تاريخه، وبكل سرور قد كررنا تلاوته؛ لمعرفة دقيق معانيه، ولليقين بأن المباحث العلمية الباعثة للتنوير تميل إليها كل نفس شريفة، متى كانت مبنيةً على خالص الود والمحبة والمحافظة على حرية العقائد، دون البحث في نفس موضوع المناظرة من حيث هو.

ولذا يسرنا للغاية أن نقدم لحضرتكم الإجابة عن هذا المكتوب بكل احتشامٍ، خصوصًا وما صرحتم به من حب المتفقهين من الطوائف المسيحية لدوام البحث في الدين لإثبات الحقائق، قد شجعنا على القيام بأداء ذلك وسيحصل إن شاء الله عند تفضلكم بالإجابة عما سنبديه بهذا، وهو أنه كما لا يعزب عن فطنة جنابكم تعذر المجاوبة عما لا يسبق فهم معناه من العبارات.

وحيث بما تعدد اطلاعنا عليه من أقوال بعض المسيحيين في معنى أقانيم الثالوث المقدس، لم يصادفنا مثل ما توضح بمكتوب حضرتكم الآن عن وصفهم «ذات، ونطق، وروح، يعني: الله حي ناطق».

ومن المعلوم أن هذه الأقانيم الثلاثة هي خواص الله الرئيسية، وأنه بدونهم لا يكون الله إلهًا تامًّا، وقد تعذر فهمُ المعاني المقصودة من إطلاق هذه الألفاظ: «ذات، ونطق، وروح» على وصف ثالوث الإله إن كانت هي عبارة عن صفات متعددة للإله الواحد الفرد الصمد، أم عبارة عن أسماء متعددة لإله واحد، أم كل منها يختص بعلم

لما هو معلوم من أن كل اسم لا بد له من مسمى أو لفظة ذات مقصود بها الذات العلية، ولفظة «نطق» مقصود بها نطقه -أي: كلامه القديم الكائن بلا حرف ولا مخارج- كما هو لائق بصفات الكمال أم غير ذلك.

وإن كان هكذا، فهل باقي الصفات -كالسمع والبصر وغيرها- متساوية في الدرجة والمعنى الخاص بها كصفة الكلام عند العلماء المسيحية أو بعض الصفات ممتاز على البعض؟ وأن المعنى المقصود بالذات والنطق والروح هو ذات ونطق وروح الإله والفرد، فماذا يكون التعبير عن لفظة «روحه» مع علم جنابكم بعدم جواز البحث في كنه القائم بذاته بلا ابتداء ولا انتهاء، كما هو ممنوع قطعا بالدين الإسلامي. ولأي معنى تنصرف هذه اللفظة «روحه»؟

نرجو من مودتكم توضيحَ معنى الألفاظ المذكورة بأسهل وأفحص ما يمكن من العبارة الممكن للفهم إدراكها، وكذا لفظة «خواص الله الرئيسية» هل هي بمعنى صفات لا يكمل قيام الذات إلا بها، أم من قبيل زيد وعمرو خواص الملك لما يقرب هذا المأخذ من تعددهم «بهؤلاء الثلاثة» أو غير ذلك من المعاني؟

نرجو منكم بيانه بأنور عبارة، وثقوا حضرتكم أن سؤالنا هذا هو سؤال استفهامي لا إنكاري، ولا بدع في أن فوق كل ذي علم عليم.

أما إن كان غير ممكن التعبير عما ذُكر من طريق أفصح غير القدر الذي أوضحتموه حضرتكم؛ فلنكرم بالإجابة أيضًا، إنما غاية ما نرجوه أن لا تطيلوا الأمد لتقديم جواب الأصل، واقبلوا احترامي.

في 3 يوليه سنة 1890

إيضاح عقائد أئمة المسيحيين

من قلم البطركخانه المصرية

توضيح البطركخانه لمعاني الألفاظ

قد يعجز عقل البشر عن أن يحوي كنه ذات الباري، خلا ما أوضح عن ذاته بفم أنبيائه ورسله الثابت صدق قولهم: إنه ذات واحد، وجوهر واحد، ثلاثة أقانيم: آب، وابن، وروح قدس، والثلاثة جوهر واحد، ذات واحدة، لاهوت واحد، معبود واحد، وأن الآب والد الابن وباثق الروح منذ الأزل، وأن أقنوم الآب غير أقنوم الابن، وأقنوم الروح أقنوم غير أقنوم الآب، وأقنوم الروح غير أقنوم الآب وأقنوم الابن، ومع ذلك فليسوا ثلاثة آلهة، بل إله واحد؛ لأن التغاير والاختلاف هو في الأقانيم والصفات لا في الجوهر والذات.

وحسبنا المثال بالنفس الحية الناطقة مع كونها ذاتًا حيةً ناطقةً، فإن الذات غير حياتها ونطقها، وحياتها غير ذاتها ونطقها، ونطقها غير ذاتها وحياتها؛ فليست ثلاثة أنفس بل نفس واحدة؛ لأنها لا تتعدد بالذوات بل بالصفات.

وإذا قلنا: كيف أن الله ذو ثلاثة أقانيم وليس ثلاثة آلهة؟

فإنه جل وعلا جوهر واحد وذات واحد بثلاثة خواص؛ كالنفس -كما توضح- أو كالشمس المشاهدة عيانًا؛ فإنها قرص وحرارة وضياء، ومع وجود هذه الخوص الثلاثة التي كل واحدة منها غير الأخرى؛ فليست ثلاثة شموس بل شمس واحدة؛ لأنها ذات واحدة ولو تعددت خواصها؛ فكذلك ذات الباري التي هي ثلاثة خواص، فليست الخواص الثلاثة ثلاثة آلهة، إن تعددوا لكون ذاتهم واحدة وجوهرهم واحد وقوتهم واحدة وفعلهم واحدًا.

وإذا قيل: ما معنى تعدد الخواص؟

الجواب: إن كلًّا من الثلاثة أقانيم يتميز بخاصة دون الآخر مع وحدة الجوهر، وإذا علمنا ذلك نقول: إن الأقنوم الأول يتميز بخاصة الأبوة مع وحدة الجوهر، بما إنه والد الابن وباثق الروح، فيكون علة الابن والروح بالنسبة إلى القرص، والابن يتميز بخاصة البنوة مع وحدة الجوهر بما أنه مولود من الآب أزليًّا وذلك كولادة النطق من العقل والشعاع من الشمس ولادة بسيطة لطيفة لا كثيفة ولا مدركة. فيكون الابن مولودًا لا والدًا ولا منبثقًا، والروح القدس يتميز بخاصة الانبثاق مع وحدة الجوهر؛ لأن الروح منبثق من الآب أزليًّا كصدور الحرارة من القرص، وليس هو والدًا ولا مولودًا بل منبثق.

فإذا قيل: ماذا نعني بولادة الابن وانبثاق الروح القدس من الآب؟ أفما يكون بقولنا هذه: إن الآب أقدم من الابن والروح، كما تقدم الشجرة على الثمرة، والآب عن الابن الجسدي؟

الجواب: إن ذات الله حية، ولا حي إلا بحياة ناطقة، ولا ناطق إلا بنطق، ولكون الحياة لا تقوم وحدها -أي: خلوًّا من ذات وكذا النطق- تكون الذات علةً لقيام الحياة والنطق، ومن حيث إن الذات ناطقة بالقوة أزليًّا وحية بحياتها -أي: والدة النطق وباعثة الحياة- فننعتها دون الحياة والنطق بالأبوة.

ومن حيث إن النطق منطوق به بالقوة أزليًّا -أي: مولود من الذات- فننعته بالبنوة.

ومن حيث إن الحياة محيي بها بالذات فننعتها بالانبثاق أو الروح القدس.

والعقل يشهد بذلك أنه لا يمكن تبدية الآب عن الابن والروح؛ إذ لا يمكن أن ذات الله تكون مجردة من نطقها وحياتها وقتًا ما، بل النطق والحياة موجودان أزليان

مع الذات، وإلا لكان الباري وقتًا حيًّا ناطقًا وآخر عديم الحياة والنطق، وهذا لا يقبله العقل ولا النقل.

ثم إن القائل هذا القول قد يضطر إلى قول آخر من المحال أن يكون، وهو: إن كان الآب متقدمًا على الابن والروح، فمن اللازم أن يكون تقدمه عليهما مقدارًا محدودًا معلومة كميته، مثلا مقدار أربعين ألف سنة أو أكثر أو أقل، ومن هنا يستنتج فساد هذا الرأي؛ إذ يتعين به ابتداء للذات، وهذا من المحال.

وإذا قلنا: كيف كيفية هذه الولادة والانبثاق لمساواتهما مع الذات في الوجود؟

فالجواب: حسبك الاعتبار والمثال بالنار وظهور الشعاع الصادر منها وقوة الحرارة التي تفعل وتؤثر مع الضياء باستكان الاثنين في النار وصدورهما عنها، فإذا علمنا هذا نقول: إنه لا تُوجد قَبْلِيَّة ولا بَعْدِيَّة بين النار والضياء والحرارة، بل اتحاد الثلاثة ووجودها في الزمان واحد؛ إذ كان الضياء لا يظهر قبل النار ولا بعدها، وكذا لا توجد النار دون الحرارة، بل وجود الثلاثة متساوي. فهذا المثال يقرب الفهم لذات الباري ونطقها وحياتها بمساواة الوجود.

ثم إن جميع الموجودات علة وجودها الله، والله لا علة له في وجوده إذا كان واجب الوجود -أي: موجودًا بذاته مستغنيًا عن غيره في وجوده-، فكل موجود على الإطلاق: إما ظاهر، وإما غير ظاهر. وقد علمنا أن الله ليس بجسم، وكل ما ليس بجسم فممتنع النظر إليه، وبالتالي فلا يُرى ولا تقع عليه الحواس الجسمانية البتة من النظر واللمس؛ وثمة ذلك لأنه ليس بمحسوس بل وأرفع من المحسوس.

نقول: هب أن تقرر أن الله بسيط لطيف لا يُدرك، فإن كل موجود: إما أن يكون ذا حياة، أو لا يكون. فإن كان ذا حياة، فيكون قابلًا للحركة غير ميت -أي: حيًّا متحركًا-. وإن لم يكن ذا حياة، فيكون جمادًا عديم الحركة.

والنتيجة أن هذا الموجود: إما أن يكون حيًّا متحركًا، أو جمادًا غير قابل للحركة. وهذا ظاهر لا يلزم له تكرار.

ونزيد على الموجود الحي قسمًا ثانيًا، وهو أن هذا الموجود الحي إما أن يكون ذا نطق فيكون حيوانًا ناطقًا، فيجب على ذوي المعارف ممن ارتشد إلى الإقرار بالصانع الواحد القديم الأزلي أن يعرف خواصه وجوهره، فيقر أن جوهر الله حي؛ لينفي عنه الموت، وأنه ناطق لينفي عنه الخرس؛ لأنه لا يصح لموجد الذوات ومبدع الحياة وخالق النطق في الإنسان أن يكون بدون حياة ونطق، فبقي أن جوهر الله حي ناطق -أي: حي بحياة وناطق بنطق-، فالحياة فينا يا معشر الآدميين لها نهاية وانقضاء وغاية بالموت اللاحق بجواهرنا، والله تبارك وتعالى حي غير ميت لا ابتداء لحياته ولا انتهاء، والنطق من أشرف الفضائل التي ارتفعنا بها عن حد الحيوان.

فالفرق بين نطق الله ونطق البشر: هو أن نطق الله أزلي بذاته، ونطقنا مخلوق؛ لأنه تباركت أسماؤه حي ناطق غير مائت، ونحن حدُّنا حي ناطق مائت؛ لكوننا مخلوقين وهو الخالق الأزلي.

وكذلك الفرق بين الإنسان والحيوان: هو أن الحيوان حي غير ناطق مائت، والإنسان حي ناطق مائت.

واعلم أيها اللبيب أن الكلمة الذاتية في الجوهر هي غير الكلام المسموع الملفوظ من الشفتين واللسان والآلات المركبة له؛ لأنه سواء كان الكلام من الله أو من الناس؛ ليس هو شيء قائم بذاته ولا عينًا يُشار إليه، وإنما يضبط ويقيد بالآلات؛ كالكتابة والخط. ولولا ذلك كان ينحل ويتلاشى بخلاف الكلمة الذاتية الثابتة الأزلية الدائمة بلا انتهاء، فالفرق بين الكلام والكلمة كالفرق بين الجوهر والعرض، وبين ما كان ذاتيًّا لم يزل وبين ما هو حاضر مكتسب.

والدليل على صحة الرأي الوطيد: أن حدَّ الإنسان حي ناطق مائت، فناطق ليس من حيث إنه لافظ كلامًا مسموعًا، ولو كان ذلك كذلك لم يكن حد الإنسان الأخرس من بطن أمه أو الساكت وقتًا ما؛ حيًّا ناطقًا ميتًا، بل حيًّا ميتًا؛ لأنه ليس بناطق.

والآن ليس الأمر كذلك؛ لأنه لو كان الإنسان أخرس أو عرض له عارض وألزمه الصمت والسكوت، فلا يمتنع أن يكون هذا الإنسان حيًّا ناطقًا ميتًا، فإذن الكلمة غير الكلام؛ لأن الكلمة هي قوة النطق المستكنة في جوهر الإنسان.

فمن ثَمَّ اتضح أن النطق والحياة اللَّذَيْن للباري تعالى كل واحد منهما جوهر؛ لأنه لا يمكن أن يكونا عرضين، وإلا لزم أن يكون الباري محدثًا ويقبل الأعراض والغيارات والآلام، تعالى عن ذلك.

فإذن كل واحد من النطق والحياة هو جوهر، ولا يمكن أن يكون جوهرًا عموميًّا؛ لئلا يتطرق على الخالق والمخلوق، فالكلمة كلمة واحدة وكذلك الحياة، فإذن جوهر كل واحد من الحياة والكلمة جوهر خصوصي؛ أعني به: أقنومًا، وذلك ظاهر أن كلمة الباري تعالى هي أقنوم الباري وهكذا حياته؛ لأن الذي هو حكيم وحي معناه غير الكلمة والحياة. وهو أيضًا أقنوم قائم بذاته، وله الحياة والنطق.

والنتيجة أن ذات الباري حية ناطقة، ومن المعلوم أنه لا حي إلا بحياة، ولا ناطق إلا بنطق. وحيث إن الذات علة الحياة والنطق؛ لكون كلٍّ من الحياة والنطق لا يقوم خلوًّا بالذات، فتكون الذات علة وجودهما لا إيجادهما بعد أن لم يكونا، بل قيام كل منهما -أعني: الحياة والنطق- فنصفُ الذات بالأبوة على الدوام والحياة بالانبعاث على الدوام والنطق بالولادة على الدوام؛ لكون الذات علة وجودهما على الدوام؛ أي: الحياة محيي بها دائمًا، والنطق به منطوق دائمًا، والذات ناطقة وباعثة دائمًا.

وحيث إن النطق مولود لا والد، والحياة منبعثة لا والدة ولا مولودة، وأن الذات والدة وباعثة؛ لزمنا أن نصف الذات آبًا والنطق ابنًا والحياة روحًا، فيكون الباري ثلاثة أقانيم آبًا وابنًا وروحًا، قدسًا جوهرًا واحدًا لا يتعدد.

وما أوضحتموه عن تعدد صفات الله ﷻ وهل تكون كلها أقانيم أم كيف؟

الجواب: أن صفات الباري تنقسم إلى ثلاثة أقسام: وهي الصفات الثبوتية الذاتية، والصفات الإضافية -أي: الاكتسابية-، والصفات السلبية.

فالصفات الثبوتية تنقسم أيضًا إلى قسمين: منها ما هو صفة للذات، ومنها ما هو صفة لتلك الصفات.

ومن المسلَّم أن صفة الصفة لا تحسب ولا تعد مع الصفة.

أما الصفات الذاتية الثبوتية فهي قادر حي ناطق لا زائد عليها ولا ناقص منها.

فأما تمييز الصفة من صفة الصفة:

- فهي عن القادر أنا لا نجد مريدًا رءوفًا رحيمًا إلا قادرًا، فالرأفة والرحمة والإرادة صفات القادر ولا يعكس.

- وعن الحي لا نجد سميعًا بصيرًا إلا حيًّا، فهما صفتان للحي، مع أنهما من الحواس الخمس، وهو يتعالى عن السمع والبصر كما اعتلى عن الشم والذوق واللمس.

- وعن الناطق أنا لا نجد حكيمًا عاقلًا مدركًا إلا ناطقًا.

فهن صفات تابعات للنطق ولا يعكس؛ فتميزت الصفات الذاتية الثبوتية التي هي قادر حي ناطق.

وأما الصفات الإضافية فهي التي موجبة بالقوة أزليًّا، ثم تخرج بالفعل حديثًا. كما يقال: إن الباري خالق قبل أن يخلق بالقوة. فلما خلق العالم سُمي خالقًا بالقوة والفعل. وهكذا الرازق والغافر والمانح والرءوف والرحيم وما أشبه ذلك.

وأما الصفات السلبية فهي التي توجب الصفات الثبوتية -كما مر ذكرها-. ومن المعلوم أن كل موصوف بصفة ما، لا بد أن يُسلب ضدها؛ إذ أن الضدان لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان. فمن وصف الإله تعالى بأنه ليس بمعدوم فقد أثبت له الوجود، ومن وصفه بأنه غير مائت فقد أثبت له الحياة، ومن وصفه بأنه ليس قبله غيره فقد أثبت أنه واجب الوجود، ومن وصفه بأنه ليس بجاهل فقد أثبت له النطق والعلم والحكمة، ومن وصفه بأنه ليس بضعيف فقد أثبت له القدرة. فالصفات السلبية باللازم تثبت الصفات الثبوتية كما نظرتَ.

ومن المعلوم أن هذه الصفات ما عدا الصفات الثبوتية الذاتية التي هي قادر أو موجود وحي وناطق ليست قائمة بذاتها، وبالتالي فليست أقانيم كما يزعم المتشكك.

ولما كانت حقيقة الإله ﷻ هو توحيد ذاته وتثليث صفاته، فلم يكن في سائر الأسماء المعلومة لمخلوقاته أسماء يعبر بها عن الثلاثة أقانيم وتتميز بها خواص صفاته سوى الثلاثة أسماء التي اختص بها سيدنا المسيح كلمة الله وهي الآب والابن والروح القدس.

عجبًا ممن يدعي ويزعم أن المسيح مخلصنا كلمة الله وهو ذات وعين يشار إليه. وأنه استحق هذا الاسم؛ لأنه كلمة الله؛ لأنه قال له: كن فكان.

فيقال له: عرفنا أن كل مخلوق -سواء كان من الناس أو من البهائم- هو كلمة الله وروحه، فإذا كان الأمر كذلك، ما الفضل للمسيح على غيره إذا كان هذا بكلمة الله وروحه وذاك بكلمة الله وروحه؟

فأشكل على المعترض من قبل أنه لم يميز بين الكلمة والكلام، فظن أن المسيح كلمة الله -أعني: أمره أو كلامه-، ولم يفقه أنه القوة النطقية الذاتية، الكلمة الأزلية المتجسد لأجل خلاص آدم وذريته من عقال العدو اللعين وأسره.

أما ما توضح عن ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء/ 171] فما دام أن الذات العليا والنطق والروح هم أقانيم الله والروح هي الحياة بين الأقنومين، فربما أن المراد من قوله: كلمة الله وروح منه. يعني به: أن الروح متحد بالذات، وأيضًا بالنطق.

عزتْلُو أفندم أيوب بك صبري، إنا قد أوضحنا لسيادتكم معلومات أئمة ديانتنا المنطبقة على كلام الله بفم أنبيائه، وهذه الإيضاحات هي لتقريب الفهم إلى حقيقة الإيمان؛ لئلا يكون المسيحيون عاجزين عن معرفة حقيقة إيمانهم

أفندم الداعي

شنودة مغاريوس

الرد على البطركخانه بعد الاستفسار عن معاني الألفاظ

توضيح معنى الأقانيم الثلاثة

جناب المحب المحتشم شنودة[(١)] أفندي مغاريوس:

بعد تقديم واجب الاحترام.

قد اطلعنا على مكتوب حضرتكم الوارد لنا، وغاية ما أوردتموه جنابكم:

إن المسيح عليه السلام هو حقيقي مرسول من الله؛ لإتمام مقاصد إلهية، وأن المرسِل هو غير المرسَل، وأن الله واحد لم يكن له ولد.

ثم قلتم: بأنه ثلاثة أقانيم: ذات ونطق وروح؛ يعني: الله حي ناطق، وأن هذه الثلاثة أقانيم هي خواص الله الرئيسية، وبدونها لا يكون الله إلهًا تامًّا.

وأن نطقه الصادر منه المتحد به يدعى ابنه، وأن قول الله تعالى في القرآن المجيد: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء/ 171] يُثبت اعتقاد المسيحيين بأن الله واحد في ثلاثة أقانيم؛ حيث أوضح الله وكلمته وروحه، ولم يقل عن المسيح: إنه كلمة من ضمن كلامه، وأن رسوله نوع وكلمته نوع آخر.

وإن من تأمل في ولادة المسيح بغير طبيعة بشرية يقر حالًا بألوهيته، وإن قول المسيح: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[(٢)]. هو من خصائص الناسوتية المتحد بها، وذلك لا ينفي ألوهيته.

---

(١) المسلم يوضح معنى الأقانيم الثلاثة.

(٢) يوحنا 20: 17.

وإن حقيقة الإيمان هو أنه لما خالف الله آدم بأكله من الشجرة، حاقت خطيئتُه بجميع الجنس البشري، ولرحمة الله أرسل كلمته فأخذت الجسد من العذراء وسمح بصلبه وإهانته لخلاصهم، وتَمَّ الخلاصُ يوم صلبه بدلالة قوله للص: «اليوم تكون معي في الفردوس»(١).

وأقمتم دليل ألوهيته بقول إِشَعْيَاء النبي عليه السلام بأصحاح 2: «إن من صِهْيَوْن تخرج الشريعة»... إلخ. وبأصحاح 9: «لأن صبيًّا ولد لنا»... إلخ. وبأصحاح 35: «ها إلهكم يأتي بانتقام». وبأصحاح 40: «على جبل عالٍ اصعدي يا مبشرة صِهْيَوْن»... إلخ. وبأصحاح 60: «قومي استبشري يا أورشليم؛ لأنه قد جاء نورُكِ». وقوله: «هو ذا العذراء تحبل، وتلد ابنًا، وتدعو اسمه عِمَّانُوئِيل الذي تفسيره الله معنا». وقول دانيال النبي عليه السلام: «كنت أرى في رؤيا الليل»... إلخ. وتنبيهه على خراب الهيكل ونحوه. وقول داود النبي عليه السلام: «الرب قال لي: أنت ابني»... إلخ. وقوله: «قال الرب لربي: اجلس عن يميني»... إلخ. وقوله: «من قبل كوكب الصبح ولدتك». وقول لوقا عن قول الملاك للعذراء: «تلدين ابنًا، وتدعين اسمه يسوع»... إلخ. وقول يوحنا: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله». وقول المسيح عليه السلام: «من رآني فقد رأى الآب». وقول متى: «اذهبوا وعمدوا باسم الآب والابن والروح القدس».

ثم بعد إيضاح ذلك، غايةُ ما في الكتاب المقدس قصدتم إقامة دليل من القرآن وذكرتم كلمات محرفة ليست منه وهي: «وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير وتنفخ فيها وتكون روحا بإذني». فالذي أخبر حضرتكم بأن الكلمات المذكورة مسجلة بالقرآن

---

(١) لوقا 23: 43.

المجيد؛ لا شك أنه جاهل أو منافق قد افترى على الله الكذب، له في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب مهين، وإنما لفظ الآية الشريفة هكذا: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة/ 110][١].

وكذا استشهدتم بكلمات ليست من القرآن أيضًا على عدم حصول تغيير بكتب التوراة والإنجيل؛ وهي: «يأيها المؤمنين، أنتم ليس على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل». والحق إن من قال: إن ذلك بالقرآن، ضالٌّ مضلٌّ، وإنما نظم القرآن المجيد هكـــــــذا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة/ 68].

ثم قلتم: بأنه لا حقيقة لما يتوهمه المسلمون من حصول تغيير وتبديل بالكتب المذكورة، وإنه لو كان حصل ذلك لكان الفلاسفة والمؤرخون ذكروه بكتبهم، وأنه إذا تتبع الإيمان بالبراهين العقلية، يحصل الضلال ولا يكون إيمان؛ لأنه إذا صار البحث في أن الله ليس له بداية ولا نهاية ولا أب ولا أم، وأنه كيف يكون واحدًا ويخلق هذه المخلوقات ويدبر أمورها يحصل الجزم بعدم وجود إله، نعوذ بالله من الإنكار والجحود؟

وأنه لو سأل سائل: كيف يكون الله ثلاثة أقانيم؟ وكيف تتجسد الكلمة وتكون متحدة بالذات والروح المالئ للسماوات والأرض؟ فيقال: إن ذلك ليس من خصائص المسيحيين ولا المؤمنين بل يجب الإيمان به بدون بحث؛ لأنه لو حصل

---

(١) معجزة «خلقه من الطين طيرًا» مذكورة في أناجيل لا يقدسها المسيحيون. وهذا هو نص إنجيل منها: «أخذ يسوع قطعة من الصلصال وصنع منها اثني عشر عصفورًا في يوم سبت. ولما سمع يوسف بأنه عمل هذه المعجزة في يوم سبت، انتهره بقوله: لماذا تفعل في السبت هذه المعجزات التي لا يحل فعلُها في السبت؟ ورد عليه بأنه صَفَّقَ بيديه وقال للعصافير: طيري. فطارت أمام جمعٍ من الحاضرين». ينظر: إنجيل الطفولة ص 70.

القياس بالعقول في هذا، وهناك أشرار أغنياء وفقراء صالحون؛ لنُسب لله الظلم - تقدس وتنزَّه سبحانه عن مثل هذا القياس-، وأنه مع وجود ملايين مسيحيين ودوام البحث منهم في شأن الديانة، فغاية ما وصل إليه فهمهم هي العقيدة التي أنتم مستمسكون بها الآن... إلى آخر ما ذكرتموه.

ولما كان تصريحكم بوحدانية الله تعالى، وأنه لا ولد له، وأن المسيح أرسله الله، وأن المرسِل هو غير المرسَل اعترافًا لا يقبل الرجوع؛ لعبارة «إن الله ثلاثة أقانيم: ذات ونطق وروح». لوجود التغاير والتباين بين المرسِل والمرسَل، وبين القائم بذاته ولا يدرك كنهه غيره، وبين الهيكل الجسماني المتولد في زمن هيرودس، وعدم إمكان تعقل الوحدة مع التعدد إلا لفظًا.

على أنَّا لم نجد في الكتب المنزلة ولا في غيرها من كتب وأسفار أحاديث الأنبياء المرسلين ما دل على كون الله الواحد ثلاثة أقانيم -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا-، ولا يخفى عليكم أن الجوهر الواحد الفرد هو الذي لا يقبل الانقسام ولا التجزؤ، فإذا كان جوهرًا واحدًا، فيستحيل أن يكون ثلاثة، وكذا العكس.

وبعد أن قلتم بأنه: جوهر واحد، ذات واحدة، لا هوت واحد، معبود واحد. قلتم: إنه ثلاثة أقانيم: الآب والد الابن وباثق الروح منذ الأزل، وأن أقنوم الآب غير أقنوم الابن وأقنوم الروح، وأقنوم الابن غير أقنوم الآب وأقنوم الروح، وأقنوم الروح غير الأقنومين الأولين، وهذا صريح في وجود المغايرة والبينونة بين الأقانيم الثلاثة، وأن كل أقنوم قائم بذاته منفرد بصفاته.

فعلى هذا يستحيل وجود الوحدة بينهم، وإلا فلا معنى للقول بالتغاير؛ لأن الواحد لا يكون ثلاثة، كما أن الثلاثة لا تكون واحدًا، كما اعترف بذلك العلماء المسيحيون. وإلا لما كان معنى للوحدة والسلب.

وإذا قيل: إن التغاير والاختلاف هو في الصفات لا في الذات.

لزم من ذلك أن تسلب الصفة الثبوتية التي نُثبتها لأحدهم دون الآخر. فإذا قلنا: إن الآب حي ناطق، لزم أن يكون الابن صامتًا ميتًا، وإلا لما ثبت التغاير.

ثم ضربتم مثل مَنْ لا شبيه له وليس كمثله شيء بالنفس الحية الناطقة، وقلتم مع كونها ذاتًا حيةً ناطقةً، والذات غير حياتها ونطقها، وحياتها غير ذاتها ونطقها، وهَلُمَّ جرًّا من المغايرة.

ثم قلتم: إنها ليست ثلاثة أنفس، بل هي نفس واحدة، وإنها لا تتعدد بالذات بل بالصفات.

ثم قلتم: إن الصفات خواص على أن النطق والحياة صفات لا تقوم بذاتها، بل بغيرها كما ذكرتم.

وإذا كان الأمر كذلك فلا مغايرة بين الذات والصفات. وعلى هذا، فلا معنى للقول بأن الحياة غير الذات.

ثم لا يخفى الفرق الفارق والبون الواضح بين ذات الله -جَلَّتْ صفاتُه- وبين النفس أو الشمس التي اتخذوها مثالًا له وللأقانيم الثلاثة؛ لأن الحرارة والضياء ليسا بعرضين متفارقين أو صفتين متغايرتين كما زعموا من المغايرة والمباينة بين الأقانيم؛ لأن الضياء في الشمس نتيجة الحرارة، كما أن الحرارة نتيجة الضياء، فهما متلازمان غير متباينين، بحيث إذا فُقد أحدهما فُقد الآخر. فعلى هذا لا ينطبق مثال الشمس ولا النفس على ما أوردتموه من صفات الأقانيم؛ إذ لا علاقة ولا قرينة ولا ملائمة بين المشبَّه والمشبَّه به.

ثم ذكرتم أن كلًّا من الثلاثة أقانيم يتميز بخاصة دون الآخر مع وحدة الجوهر. ولا يخفى على ذي بصيرة عدمُ انطباق هذه القضية على الحقيقة؛ لأن وحدة الجوهر

تمنع التعدد والمباينة بين الخواص والأقانيم كما مر آنفًا، وإلا فلا معنى للفظ الجوهر والوحدة.

ثم ذكرتم أن الأقنوم الأول يتميز بخاصة الأبوة مع وحدة الجوهر؛ لكونه والد الابن وباثق الروح، فيكون الأول علة الابن والروح، وأن الابن يتميز بخاصة البنوة مع وحدة الجوهر بما أنه مولود من الآب أزليًا، مع أن صفات الأبوة والبنوة ليست بخواص مميزة، إذ كل ابنٍ من شأنه أن يكون أبًا، كما أن كل أبٍ كان ابنًا.

أسباب عدم تميز الأقانيم

فعُلم من هذا عدم تميز أحدهم عن الآخر بخاصية الأبوة والبنوة؛ لعدة أسباب ووجوه:

أولها:

لا تجوِّز الشرائع والأديان الصحيحة نسبة الأبوة والبنوة الحقيقية لخالق الآباء والأبناء وفاطر الأرض والسماء، مبدع الكون بأسره، الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد؛ لاستحالتها شرعًا وعقلًا. وإذا أريد بها الأبوة والبنوة المجازية، وأن المراد بها الشفقة والرحمة كما هو المقصود من العبارات الواردة في الإنجيل والتوراة؛ فهذه لا يختص بها المسيح عليه السلام وحده؛ لإطلاقها على كثير من الأنبياء، بل على كافة العباد؛ كقول الله تعالى في الباب الرابع من سفر الخروج 22: «وتقول له هذا: ما يقول الرب: ابني بكري إسرائيل 23 فقلت لك: أطلق ابني ليعبدني، وإن أبيت أن تطلقه هو ذا أنا سأقتل ابنك بكرك». فأطلق على إسرائيل لفظ «ابن الله» في الموضعين، بل خصصه بلفظ «البكر».

وفي المزمور 88 قول داود عليه السلام في خطاب الله: «حينئذٍ كلمت نبيك بالوحي وقلت: إني وضعت عونًا على القوي ورفعت منتخبا من شعبي 20 وجدت داود

عبدي فمسحته بدهن قدسي 26 وهو يدعوني: أنت أبي وإلهي وناصر خلاصي 27 وأنا أيضًا أجعله بكرًا أعلى من كل ملوك الأرض». فأطلق على الله لفظ «الآب» وعلى داود لفظ «القوي والمنتخب والمسيح والابن البكر وأعلى من كل ملوك الأرض».

وفي الآية 9 باب 29 لإرمياء النبي قول الله تعالى: «إني صرتُ أبًا لإسرائيل، وأفرام هو بكري». فأطلق على أفرام أيضًا لفظ «ابن الله البكر».

ولو كان إطلاق مثل هذه الألفاظ موجبًا للألوهية، لكان إسرائيل وداود وأفرام أحق بها؛ لأحقية الابن البكر بالإكرام والوراثة الملكية بحسب الشرائع السابقة والرواج العام.

وقال ذلك في حق سليمان النبي ﷺ، وكذا أطلق لفظ الابن في الآية الأولى من الباب 14 والآية 19 من الباب 37 استثناء، وبالآية 2 باب 1، والآية 1 باب 30، والآية 8 باب 63 لإِشَعْيَاء، والآية 10 باب 1 لُهوشَع على جميع بني إسرائيل، وكذا في عدة مواضع في الإنجيل.

فثبت بهذا أن البنوة في المسيح ﷺ ليست بخاصة مميزة له عن سائر البشر، وليست بأقنوم قائم بنفسه، ولا بجزء من جوهر الذات الوحدانية، فلا مسوِّغ لجعلها ثالثة ثلاثة، مع دعوى الوحدة في الذات والجوهر.

ثانيها:

لا يتحقق معنى البنوة في ذاتٍ إلا إذا كان مولودًا من غيره، كما قال علماء المسيحيين: إن عيسى ﷺ -الذي هو أقنوم الابن- مولود من الآب -الذي هو الأقنوم الأول- أزليًا، وأن الآب علة لوجوده.

فلزم من ذلك تقدم الوالد ذاتًا ووجودًا على الابن تقدمًا زمنيًّا؛ لكونه سببًا لخلقه ووجوده.

فعلى هذا مع اعتراف المسيحيين بقدم ذات الله الذي هو أول كل شيء وخالق كل شيء، وعدم ظهور المسيح ووجوده إلا بعد خلقة العالم بآلاف من السنين، كيف يمكن تعقل وجوده مع ذات الخالق وجودًا أزليًّا قديمًا من غير تأخيرٍ زمنيٍّ عن ذات الخالق؟ ويا ليت شعري أين كان عيسى عليه السلام عندما خلق الله الأرض والسماوات؟!

فإذا كان معه لزم، أن يكون هو أيضًا إلهًا ثانيًا شريكًا له في الخلق، والأمر مع قول المسيحيين بعدم الإشراك بالله وتثنيته، ومع أن العالم بأسره يعلم بأن المسيح عليه السلام لم يظهر له وجود في الخلق إلا بعد تولده من رحم مريم عليها السلام، ولن يتحقق وجوده إلا بهيكله الجسماني الذي وُلد به كسائر البشر، وكان عليه السلام تعتريه العوارض البشرية من الإحساس بألم الجوع والظمأ والحاجة إلى الغذاء والنوم والتبرز والتأثر بالحوادث المادية، التي هي من الخواص الجسمانية البشرية المؤلَّفة من دم ولحم وعروق وأعصاب وغيرها.

وقد أجمع علماء المنطق على أن كل جسم مؤلَّف: حادث، وكل حادث: مخلوق، وكل مخلوق: فانٍ. إذ لا بد للجسم المؤلَّف من الانحلال الطبيعي. وهذا يعارض ما يقوله الأئمة من عدم إمكان تقدم الآب عن الابن، مع الاعتراف بكون الآب علةً لوجوده، وأن الروح منبثق من الآب أزليًّا كصدور الحرارة من القرص.

ثالثها:

إذا كان المسيح عليه السلام أقنومًا من الأقانيم الثلاثة التي لا تقوم الذات الإلهية إلا بها، وأنه متصف بصفات الألوهية من القدم وغيره، وكان الله محتاجًا لوجوده من جهة النطق، فكيف قامت الذات الأزلية عندما كان المسيح عليه السلام في بطن السيدة مريم؟

وكيف قامت الذات الإلهية بعد الصلب والموت الذي يقولونه؟ وكيف يجوِّز الشرع والعقل احتياج الإله لغيره؟

كما يقال: إنه لا يقوم إلا بكلٍّ من الثلاثة أقانيم المتفردة في الجوهر بعد القول بوحدتها فيه. أيعجز عن القيام بذاته، مع ما هو معلوم من أن كل مفتقر لغيره قطعًا: لا يكون إلٰهًا؟ وقد أقررتم بأن أقنوم الابن هو غير أقنوم الآب والروح وبالعكس.

وكيف يسوغ عند علماء التوحيد جواز ترك العوارض البشرية والحوادث الجسمانية على الأقنوم الإلهي؛ كالتكون في الرحم، والتولد، والتحيز الجسمي، وقبول الحوادث، والوهن، والضعف، والعجز عن مقاومة الحوادث، والافتقار إلى ما به قيام الحياة الإنسانية، والتأثر بعوارضها، والتكلف بالأحكام الشرعية من الأوامر والمناهي، والخوف من الله، والعبادة له، والتضرع، والالتجاء إليه، والاستعانة والاستغاثة به، كما لا يمكن إنكار ما نطقت به الأناجيل من ذلك؟

وعلى هذا فكيف يجوز أو يُتصور أو يُعقل إمكانُ إطلاق اسم الألوهية أو اعتقادها في هذا الشكل الجسماني المشاهد؟ وكيف ينطبق عليه القول بأنه الواحد القديم الأزلي القائم بذاته؟ لقولكم: إن الثلاثة جوهر واحد وذات واحدة: لاهوت واحد، معبود واحد.

وهل يجوز أن يعبد المعبود غيره أو نفسه؟ وإلا فما معنى تعبده والعبادة له، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

أعمال المسيح تنفي ألوهيته

أما نسبة أعمال السيد المسيح البشرية الصرفة وخالص عبوديته وأقواله إلى الطبيعة الناسوتية، والقول بأن ذلك لا ينفي جوهر اللاهوتية المتحد به.

فنقول: إن فيها شدة المغايرة بين الصفتين، والبون بين الطورين، والفرق بين الحالين -تقدست الذات الإلهية عن قبول الطور الناسوتي والهيئة الجسمانية-.

ولقد أجمع علماء التوحيد على تنزيه الله سبحانه عن قبول الحلول في الأجسام الناسوتية، والتحيز بصفات الكيف والكم والأين والأبعاد والجهات الست، ولم يجوِّز أحد من العقلاء حتى علماء الطوائف المسيحية نسبة الجسم والتحيز لله تعالى، كما توضح بجوابكم عند إيضاح عقائد المسيحيين بأنهم يعلمون أن الله تعالى ليس بجسم، ويمتنع النظر إليه، فلا يُرى ولا تقع عليه الحوادث الجسمانية، وأنه ليس بمحسوس، بل هو أرفع عن المحسوس... إلخ.

فعُلم من هذا أيضًا استحالةُ تشكُّل الله بالهيكل الإنساني؛ إذ قد أثبت علماء الشرائع والأديان أنه لا يمكن التشكل بالأشكال الإنسانية لسوى الملائكة والجن والشياطين.

والفرق بين الملائكة وبين الطائفتين الأخريين: أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بما شاءت، والجن والشياطين أجسام لطيفة نارية قادرة على التشكل بما شاءت بقدرة الله تعالى وإرادته، ولا خلاف في أن المسيح عليه السلام ليس من الطوائف الثلاث.

ثم لا داعيَ ولا موجبَ لتشكُّل من تُعزى إليه الصفة الإلهية بالصورة البشرية، ولا حاجه لتضحية حياته فدية لنجاة المذنبين من عباده، مع قدرته على عفوه عنهم من غير أن يجعل نفسه قربانًا لمغفرة ذنوبهم، كما أنه لا يمكن أن تعتريَ حالةُ الموت الذات الحية بالحياة الأبدية، مع زعم القائلين بصلب المسيح وقتله من أيدي اليهود.

ولا مشاحة في أن النفس الحية تأبى الممات وتنفر منه ولا ترضى به بالطوع والاختيار، كما لا ينكر إحساس النفوس الجسمانية بآلام الموت وفقد الحياة. وقد ثبت

تفجُّعُ السيد المسيح وجزعُه عندما ما هَمَّ اليهودُ بقتله، وأكثر الطلبَ والتضرعَ لمولاه بصرف ذلك عنه، كما ورد ذلك بالأناجيل.

فثبت بما توضح عدمُ تعقل ما يقال باعتقاد تشكل المسيح عليه السلام بالطور الناسوتي، مع الاعتقاد بكونه أقنومًا لاهوتيًّا كما لا يخفى.

والأعجب من ذلك كله: فرض الذات الإلهية مجردةً عن الحياة والنطق، مؤلفة من قوى ثلاث متغايرة، وهي: وجوب وجودها لذاتها، وافتقارها للحياة والنطق بغيرها، يجعل المسيح هو القوة الناطقة الذاتية تأويلًا منهم لقول الله عز وجل في شأن عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء/ 171]. فكيف يُتصور وجود إله من غير حياة ولا نطق؟ وكيف يمكن تجريد الذات الإلهية عن صفاتها الذاتية كالحياة والنطق وجعل هاتين الصفتين أقنومين قائمين، تارة بذاتهما على القول بأن الآب غير الابن والابن غير الآب والروح غيرهما، وتارة يجعلان قائمين بغيرهما على القول بأن الذات عليه وجودهما على الدوام، وأن الآب هو علة لوجود الابن والروح. والقول مرة بأن الحياة والنطق ليستا بجوهرين غير الذات بل هما من خواص الذات وصفاتها، ومرة بأن كل واحد منهما جوهر، كما تقرر وقوع ذلك في عدة مواضع بجوابكم؟

وكيف يمكن الجمع بين هذه الأضداد، مع استحالة توالي علتين مستقلتين في الحكم متغايرتين على معلول واحد؟

وهل يعقل قيام حياة ونطق بغير ذات؟ فإذا كانتا من لوازمها فكيف يمكن الحكم بكونهما جوهرين مستقلين، مع القول بكونهما من خواص الذات، وأن الثلاثة واحد، وأن الجوهر واحد لا يتعدد بتعددها؟!

أين أقانيم الصفات السبع؟

والأغرب جعل الصفات الذاتية الثبوتية لله ﷻ عبارة عن ثلاثة: القدرة والحياة والنطق. مع أن النطق ليس من الصفات السبع الذاتية عند علماء التوحيد، بل إن النطق هو من خواص الحيوان؛ ولذا كان يعبر عن الإنسان بـ«**الحيوان الناطق**». وقوة النطق مفطورة بقدرة الله تعالى في كل نسمة من النسمات البشرية، إن لم نقل في كل حيوان لا أقله. كأتان بَلْعام التي رأت بنور الكشف ما لم يقدر بَلْعام على رؤيته ونطقت وكلمته تلومه على ضربها، فكيف يفتقر الإله -جل علاه- لخاصة أبدعها في جميع خلقه وتجريده تعالى عن باقي الصفات؟ كالقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية والعلم والإرادة.

ثم سلب صفتي السمع والبصر اللتين هما من أجل الصفات العلمية الكمالية، ولا يتصور وجود إله مجرد عنهما؛ إذ السمع والبصر مثبوت نسبتهما لله تعالى في التوراة والإنجيل في عدة مواضع.

كما أن السمع في الإنسان كان من شروط النبوة؛ إذ كان في الأنبياء عليهم السلام من كان مبتلى بشبه اللكنة والعمى، ولم يكن فيهم مبتلى بالصمم. فإذا كان السمع من صفات الكمال في البشر وأعظم الحواس؛ إذ هو سبب النطق الذي هو عبارة عن تقليد الأصوات، ولا يتحقق وجود النطق مع الصمم؛ إذ كل مولود أصم أخرس، بخلاف غيره من الحواس، فكيف يجوز سلب السمع والبصر من صفاته تعالى؟!

ليس في التوراة والإنجيل أن المسيح كلمة الله أي القوة الناطقة فيه

فبناء على ما ذُكر وقياسًا على عقائد الطوائف المسيحية، يلزم أن تكون كل صفة من الصفات أقنومًا قائمًا بذاته وجوهرًا مستقلًّا بصفاته. ولا يخفى بطلانُ ذلك وفسادُه بحسب النواميس والشرائع والعقل والحكمة.

ثم إذا تتبعنا كتب التوراة والإنجيل المتداولة، لا نجد بها ما يدل على قول المسيح أنه كلمة الله أي: القوة الناطقة فيه ﷻ، ولا أنه الأقنوم الثاني الذي لا يتم قيامُ الذات إلا به، ولا بأنه هو الكلمة التي أخذت الجسد وهي متحدة باللاهوت، ولا ما يقرب من صريح ذلك.

معنى «كلمة الله» في القرآن

أما ما ورد في بعض الآيات الشريفة القرآنية من وصف الله ﷻ للسيد المسيح بـ«الكلمة»، فهي كلمة التكوين وصيغة الأمر قوله ﷻ: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة/ 117] بدلالة الإلقاء إذ قال جل علاه: ﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ [النساء/ 171]. فثبت أن الكلمة الواردة في الآية الشريفة هي لفظة ﴿كُن﴾.

ثم لا يخفى على علماء المنطق أنه لا يمكن استنباط المعنى من اللفظ بغير إحدى الدلالات الأصولية أو المنطقية أو الوضعية اللغوية. وإذا أردنا استنباط مدلول «الكلمة» بحسب الدلالات المذكورة لا نجد لها معنى سوى اللفظ، كما هو ظاهر مدلول النصوص القرآنية أيضًا في هذا الصدد. فتأويل اللفظ بغير معناه اللغوي الحقيقي أو المجازي عند عدم وجود القرائن والعلاقات والملائمات الدالة على ذلك وتعذر إعمال الحقيقة، يعدُّ ضربًا من الهذيان والهذر؛ إذ التأويل إن كان مستندًا إلى دليل فمقبول، وإلى شبه دليل فموهوم، وإن كان لا دليل فباطل.

وحيث ثبت بما توضح أنه لا معنى لـ«الكلمة» سوى اللفظ، فلتوضحوا لنا بأي أوجه الدلالات استنبط علماء الطائفة المسيحية معنى القوة النطقية من مدلول «الكلمة» مع معارضة النصوص الصريحة لذلك؟ وعن أي الأنبياء عليهم السلام ورد هذا المعنى أو الرواية؟

معنى «الروح القدس»

ثم فلنرجع إلى البحث عن معنى «الروح». فلقد عُلم من عقائد الطائفة المسيحية أنهم يعنون بـ«روح القدس» حياةً منبثقةً من الذات مجردةً عنها، وتارة يزعمون أنها جوهر، وتارة يقولون: إنها عرض لازم للذات؛ لاعتبارهم بالظن الأخير أنها من خواص الذات، واعتقادهم بالزعم الأول أنها جوهر على سبيل الانفراد.

ولا يخفى ما بين الزعمين والقولين من التباين والتضاد؛ لأنها إن كانت جوهرًا فليست بعَرَضٍ. وإن كانت عرضًا، فليست بجوهر. وعلى كلا الحالين فلا تقوم بذاتها، بل لا يتشخص وجودها وقيامها إلا بالذات، فلا يعقل وجود حياة من غير ذات.

وعلى هذا لا يصح أن تكون جوهرًا قائمًا بذاته، كما لا يصح أن تكون جوهرًا أقنومًا معبودًا لذاته، ولا تنسب لها الألوهية؛ لأنها متأثرة غير مؤثرة؛ لقولهم: «منبثقة». أي: مخلوقة غير خالقة، تتأثر بالحوادث وتقبل التحيز، بخلاف ذات الله، تنزهت وتقدست عن جميع ذلك.

ثم إذا نظرنا إلى معنى «الروح» لغة لا نجدها سوى الحياة المودوعة في الأشباح والمواليد لآجال معلومة. ولا يعلم كُنْهَ حقيقتها سوى مبدعها -جلت حكمته-. وغاية ما نطقت به الكتب المنزلة كونها من أمر الله.

وأما الروح التي وردت في بعض الآيات من السور القرآنية، فالمراد بها في سورة مريم: جبريل عليه السلام؛ وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم/ 17]. وكما ورد في سورة القدر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر/ 4]. أي: جبريل عليه السلام.

وأما ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء/ 171]. أي خلق الله الحياة في عيسى عليه السلام بأمر صدر منه بغير واسطة النطفة الخارجية من بين الصلب والترائب، كما أبدع الحياة والروح في السيد آدم عليه السلام من غير أب وأم؛ استدلالًا بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران/ 59]. فلو لزم من جعل المولود المتولِّد من غير أب إلهًا، للزم اتخاذ آدم لكونه وُلد من غير أبٍ ولا أم إلها، جل الخالق المصور المبدع سبحانه عما يفترون.

ثم قد دلت الصحف والكتب المنزلة على أن الروح مخلوقة بأمر الله، وهي المؤاخَذَةُ عند الله بأعمال الجوارح الجسدية، وهي المتمتعة بالسعادة الأبدية والمعذبة بالشقاوة السرمدية، والمخلوق لا يكون خالقًا، والمأمورُ المكلَّف ليس بآمِرٍ مكلِّف(١).

---

(١) وصف الله تعالى عبده ورسوله عيسى ابن مريم في القرآن الكريم بأنه كلمة الله وروح الله؛ وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [آل عمران/ 45].

- ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء/ 171].

وذلك لأن كثيرًا من النصارى تعلقوا بهذه الأوصاف التي وصف الله تعالى بها عبده ورسوله عيسى عليه السلام؛ لإثبات معتقدهم الفاسد في عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام.

فنقول وبالله التوفيق:

أما عن وصف نبي الله المسيح عليه السلام بأنه كلمة الله، فالجواب عن ذلك: أن معنى قولنا: «عيسى كلمة الله»: أنه مكون ومخلوق بكلمة «كن» فكان بشرًا من غير أب.

فعيسى أثر الكلمة ونتاجها، لا نفس الكلمة كما يدعي النصارى وأن هذه الكلمة انفصلت من الله. وعلى ذلك فجميع البشر وجميع المخلوقات «كلمة الله»؛ لأنه تعالى خلقهم بكلمة «كن»، يقول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [مريم/ 35].

=

أما عن وصفه بأنه «روح الله» فأقول: وردت كلمة «الروح» في القرآن الكريم بمعانٍ ثلاثة هي:

1- بمعنى «الملاك جبريل»:

قال تعالى: ﴿ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة/ 87].

وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم/ 17].

وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء/ 193].

وقال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج/ 4].

وقال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر/ 4].

2- بمعنى «الوحي» بوجه عام أو «القرآن» بوجه خاص:

قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [النحل/ 2].

وقال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر/ 15].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى/ 52].

3- بمعنى «القوة التي تُحدث الحياة في الكائنات الحية»:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء/ 85].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء/ 91].

وقال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم/ 12].

والمعنى في الآيتين الأخيرتين الخاصتين بعيسى: أن الله ﷻ نفخ في مريم رُوحًا خلقها الله بدون توسط أب.

ومعنى النفخ: تحصيل آثار الروح في الجسم، والمقصود: خلقناه بدون الطريق الطبيعي للخلق.

ونحن نريد أن نسأل النصارى المستدلين بهذه الآية القرآنية سؤالًا؛ وهو: هل يوجد في أجساد البشر روح يحيون بها أم لا؟

فسيقولون: نعم.

فنقول لهم: هل هذه الروح من روح الله كما تقولون بالنسبة لعيسى، أم أنها روح مخلوقة؟

فسيقولون: روح مخلوقة، وإلا لزم على أنها غير مخلوقة أن كل البشر آلهة.

ثم نسألهم سؤالًا مهمًا جدًّا يُزيل كل إشكال في هذه النقطة؛ وهو: من أين أتت هذه الروح المخلوقة في أجساد البشر؟

=

فإن أجابوا بأنها من خلق الله في أجسادهم، فقد قالوا الحق ووافقونا في رأينا. وكذلك نقول لهم في عيسى بأن الله خلق فيه الروح، لكن لما خلقه الله بطريقة غير مألوفة، خَصَّه بذكر نفخ الروح فيه؛ كما خص آدم الذي كان ميلاده وخلقه أيضًا غير مألوف للبشر.

ومثل ذلك قوله تعالى في حق أب البشر آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر/ 29]. أي: أعطيته الروح التي هي ملكي والتي لا يعرف كنهها سواي. ويلتقي الأزواج بالزوجات ولا يتم حمل إلا إذا شاء الله، فالحمل مرتبط بالمشيئة الإلهية أكثر من ارتباطه باللقاء بين الزوج وزوجته. وفي حالة عيسى، تمت المشيئة دون لقاء. وعلى هذا فخلق عيسى عليه السلام على هذا النحو لا يمنحه فضلًا على من سواه من الأنبياء.

وعلى مثل هذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء/ 171]، فإن المراد أنها: روح مخلوقة لله، أُودعت في مريم، لا بواسطة نطفةٍ وتوالدٍ عادي. بل هي من ناحية قدرة الله الباهرة، وليس كما يحاول أهل الكتاب جريًا على كتابهم القائل: «الله روح» [يوحنا 4: 24]، «وأما الرب فهو الروح» [كورنثوس 3: 17]. بل هي على نحو قول الله تعالى في شأن آدم: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر/ 29، وص/ 72]، وعلى نحو قول التوراة عن قول الله تعالى: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد» [تكوين 6: 3]. أي: الروح التي خلقها الله. وعلى ذلك فكل البشر روح الله، وإنما خُصَّ آدم وعيسى بنسبة روحهما إلى الله؛ لميلادهما وخلقهما المعجز الخارج عن المعتاد المألوف للبشر.

ومثله أيضًا ما نقوله نحن المسلمين: الكعبة بيت الله. ليس المعنى أن الكعبة مكان يحل الله فيه ويعيش -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- بل المراد: البيت المنسوب إلى الله تشريفًا وتعظيمًا فقط لا غير.

ويرشدنا الله تعالى إلى مقارنة لطيفة معقولة في شأن المسيح عيسى ابن مريم، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ ﴾ [آل عمران/ 59- 64]. فيوضح الله تعالى لنا أن ميلاد عيسى عليه السلام إذا كان معجزًا لكم =

حلول الله في المسيح

وبذا صار لا طريق لمن يقول بالتثليث ويعتقد ألوهية المسيح إلا أن يقول: إن الإله هو شخص المسيح هذا الجسماني المشاهد. أو يقال: حل الإله بكليته أو بعض الإله أو جزء منه فيه. والأقسام الثلاثة باطلة.

أما الأول: فلأنه منصوص بكتب المسيحيين عدم إمكان رؤية الإله في الدنيا، ولو كان إله العالم هو ذلك الجسم، فحين قتله اليهود كقولهم، كان ذلك قولًا بأنهم قتلوا إله العالم، فكيف بقي العالم بعد ذلك بغير إله؟!

وأما الثاني: وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم. فهو أيضًا باطل؛ لأن الإله إن لم يكن جسمًا ولا عرضًا، امتنع حلولُه في الجسم. وإن كان جسمًا فيكون حلوله في جسم آخر عبارة عن امتزاج أجزائه بأجزاء ذلك الجسم، وذلك يوجب تفرُّق أجزاء ذلك الإله. وإن كان عرضًا، كان محتاجًا إلى المحل، والإله لا يحتاج إلى غيره. وكل ذلك لا تجوِّزه صفة الألوهية.

وأما الثالث: وهو حلول بعضٍ من الإله أو جزءٍ من أجزائه فيه فمحال أيضا؛ لأن ذلك الجزء إن كان معتبرًا في اللاهوت، فعند اتحاده بالغير وجب ألا يكون الإله إلهًا. وإن لم يكن معتبرًا في تحقق الإلهية، لم يكن جزءًا من الإله. وبذا ثبت فسادُ الأقسام الثلاثة.

ثم ومن حيث إنه لا يمكن أن يؤتى بآية من التوراة ولا بنبوة صريحة تُعلن بأن الله هو ثلاثة أقانيم، ولا أن المسيح عليه السلام أقنوم الكلمة، وغاية ما يستدل به المسيحيون على هذا الاعتقاد هي الرموز التي أوضحتموها حضرتكم.

أيها البشر، فهناك من هو مثله في ميلاده المعجز بل أكثر إعجازًا؛ ألا وهو آدم أبو البشر عليه السلام؛ فإنه ولد بدون أب وأم. فأيهما أكثر إبهارًا وعجبًا آدم أم عيسى؟! وعلى كلٍّ فالجميع مخلوق وعبد لله تعالى.

وهذه الرموز فضلًا عن أنها قابلة لتفاسير مختلفة، بل وصريح عباراتها المرتبطة بها بعيدة عن التوجيه لمثل هذه العقائد -كما سيأتي البيان-، فإنها ليست ببرهان قاطع على تعليم الثالوث، مثل الآيات والبراهين الصريحة الدالة على وحدانية الله وأزليته وأبديته وبقائه، وأنه ليس كمثله شيء لا في الذات ولا في الصفات، بريء عن التجسم والتشكل. ولشهرة هذا الأمر في الكتب العتيقة والحديثة؛ هو غير محتاج إلى نقل الشواهد.

الأقانيم من تعاليم الفلاسفة

وقد أثبت العلامة المحقق صاحب المكارم في كتابه «علم اليقين» أن استنباط تعليم الثالوث ما نشأ إلا عن تعاليم الفلاسفة الهيولانيين والغنوسطيين في القرن الثاني، فإن ثيوفيلوس أسقف إنطاكية استعمل كلمة «ثرياس» باليونانية، ثم كان ترتليانوس أول من استعمل كلمة «ثربنياس» المرادفة لها ومعناها: الثالوث.

وفي الأيام السابقة للمجمع النيقاوي، حصل جدال مستمر في هذا التعليم، وعلى الخصوص في الشرق، وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها أراتيكية[1]. ومن جملتها:

- آراء الأبيونيين الذين يعتقدون أن المسيح إنسان محض.
- والسابليين الذين كانوا يعتقدون أن الآب والابن والروح القدس هي صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس.

---

(١) المراد «هرطقية». و«الهرطقة» عند النصارى المراد بها: البدع العقائدية وغيرها التي تخالف تعاليم الكنسية لديهم. وهذا مشابه لما يسمى عند المسلمين بـ«الفِرَق والنِّحَل».

- والآريوسيين الذين يعتقدون أن الابن ليس أزليًا كالآب بل هو مخلوق منه قبل العالم؛ ولذلك هو دون الآب وخاضع له.

- والمكدونيين الذين ينكرون كون روح القدس أقنومًا.

قرار المجمع النيقاوي في الأقانيم

وأما تعليم الكنيسة فكان قرره المجمع النيقاوي سنة 325 ميلادية ومجمع القسطنطينية سنة 381 وحكما بأن الابن والروح القدس مساويان للآب، وأن الابن مولود منذ الأزل من الآب، وأن الروح القدس منبثق من الآب. ومجمع طليطلة المنعقد سنة 589 حكم بأن الروح القدس منبثق من الابن أيضًا.

وقد قبلت الكنيسة اللاطينية بأسرها هذه الزيادة بعد مائتين وأربعة وستين سنة وتمسكت بها.

وأما الكنيسة اليونانية فمع أنها كانت في أول الأمر ساكتةً لا تقاوم، قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير قانون المجالس الأول، وعدت ذلك بدعةً وعبارة «من الابن أيضًا» لا تزال من الموانع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليونانية وبين الكنيسة الكاثوليكية.

وكتب اللوثيريين(١) والكنائس المصلحة أبقت تعليم الكنيسة الكاثوليكية على ما كان عليه.

وفي القرن الثالث عشر قد ضاد ذلك جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة كالسوسينيانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم، حاسبين ذلك مضادًّا للكتاب المقدس والعقل.

---

(١) نسبة إلى «مارتن لوثر» الألماني مؤسس فرقة البروتستانت.

وقد أطلق سويدنبرغ الثالوث على أقنوم المسيح «معلمًا بثالوث»، ولكن لا ثالوث الأقانيم بل ثالوث الأقنوم. وكان يفهم بذلك أن ما هو إلهي في طبيعة المسيح هو الآب، وأن الإلهي الذي اتحد بناسوت المسيح هو الابن، وأن الإلهي الذي انبثق منه هو الروح القدس.

ثم ومذهب المعقلانيين قد أضعف بانتشاره لاعتقاد الثالوث بين عدد كثير من اللاهوتيين الجرمانيين وقد ذهب العالم «كنت» الشهير إلى أن الآب والابن والروح القدس إنما تدل على ثلاث صفات أساسية في اللاهوت وهي: القدرة، والحكمة، والمحبة. أو على ثلاث فواعل عليا وهي: الخلق، والحفظ، والضبط. وقد حاول كل من «هيجن» و«شلنغ» العالمين أن يجعلا لتعليم الثالوث أساسًا تخييليًّا، واقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون.

الأقانيم عند المؤرخ ابن خلدون

وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه المشهور ما إذا طالعه المطالع يرى العجب العجاب من الاختلافات الواقعة بين المسيحيين قديمًا وحديثًا في كيفية الثالوث. وقد ذكر نبذًا كثيرة من ذلك بطرس البستاني العالم المسيحي، ولن يلتئم الخلاف.

اعتراف المسلمين بتحريف التوراة والإنجيل

ثم فلنرجع لما ذكرتموه حضرتكم من أنه لا حقيقة لما يتوهمه أهلُ الإسلام من حصول تغيير وتبديل بكتب التوراة والإنجيل لأوجه الصعوبات التي أوضحتموها.

بعد أن لاستحسن فكرة جنابكم عدم جواز التغيير والتبديل بالكتب المنزلة، كما تقضي بذلك ذمة كل متدين يعرف الله ويخشاه. نقول:

إن سكوت السادة أهل الإسلام المشاهد لمثل حضرتكم الآن عن البحث في الديانة المسيحية الذي منه حكمتم ببساطتهم وعدم ميلهم للبحث فيها، ما هو إلا لما

حققوه من دقائق مذاهب وعقائد كل طائفة، وما ثبت لديهم بعد استمرار المناظرات وقيام الدلائل باعتراف وشهادة علماء الطوائف المذكورة المحفوظة في مجلداتهم المطبوع أغلبها بل كلها، ولا يجهلها إلا غير المطلع.

ومع تحقيق وثبوت الأمر بالتدقيق، فلا أقتضي طبعًا لمعاودة البحث فيه، غير إيضاح ما ظهر عند الحاجة إليه.

ووقوع التحريف والتغيير والتبديل بكتب العهد العتيق والحديث، هذا أمر محقق عند علماء ومحققي ومؤرخي الطوائف المسيحية الذين هم الأوائل في ضبط وتفسير تراجم العهدين وغيرهم مثل: يوسيبس وهورون وميكاس وأرجن وآدم كلارك وداكتر كني كات ووارد كاتلك وبي سيس وأكستاين وكامت واي كلارك وكريزاستم ووالتن وتاملاين كيووهمند ومل وهارود وأودن وكين بل وسيمن ويلي منت ويري تيس ودوتن واري نيس وسرل وأبي فانيس وجيروم وغيرهم من العلماء والمؤرخين مثل: كري كري نازين زن وإيدجسوا وتهيموا فلكت وكونهي مس ويوسي بيس وأنهاني سيش واسي دور، بعد أن تحقق لهم ضياع نسخة التوراة من صندوق الشهادة الذي كان موسى ﷺ أمر بوضعها فيه وعدم طلوعها إلا في كل سبعة من السنين لإسماع بني إسرائيل، كما وضح كيفية وضعها في الصندوق بآية 9 من الباب 31 تثنية، وكيفية ضياعها منه بآية 9 من باب 8 من سفر الملوك الأول[1].

---

(١) ضياع نسخة التوراة من صندوق الشهادة شيء، وضياع جميع نسخ التوراة من اليهود والعالم شيء آخر. وقد كان في أيدي اليهود من توراة موسى الأصلية نسخ كثيرة؛ لذلك لم يتأثروا بضياع نسخة صندوق الشهادة الذي هو التابوت. ولكنهم لما وقعوا في أسر بابل، اجتمعت طائفة من العلماء وحرفت التوراة، وجمعت النسخ المتداولة منها وأحرقوها. وهذا هو معنى قول القرآن أنهم حرفوها عمدًا وأنهم لبسوا فيها الحق بالباطل.

ذهب بعضهم إلى أن عَزْرا النبي كان عمل نسخة التوراة بعد انعدامها بإعانة حَجِّي وزكريا الرسولين. وقال كليمنس إسكدريانوس: «إن الكتب السماوية ضاعت فأُلهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى». انتهى.

وقال جانمل نز كاتلك في الصحيفة 115 من كتابه المطبوع سنة 1843: «اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بختنصر، ولما ظهرت نقولها بواسطة عزرا النبي ضاعت تلك النقول أيضًا في حادثة أنتيوكس». انتهى كلامه.

وقال لاردنر في الصحيفة 522 من المجلد السابع من تفسيره: «يقول بوسي بيس: بالحزن التام أنه رأى بعينيه أن الكنائس هُدمت والكتب المقدسة أُحرقت في الأسواق». انتهى.

وقال دكتر كني كات في المجلد الرابع من إنثي كلوبيد يا ريس في بيان بَيْبُل هكذا: «إن نسخ العهد العتيق التي هي موجودة كُتبت ما بين سنة 1000 وسنة 1400، وإن جميع الكتب التي كانت كُتبت في المائة السابعة والثامنة أُعدمت بأمر محفل شورى اليهود؛ لأنها كانت تخالف اعتمادهم مخالفة كثيرة». انتهى.

وقال المحقق ولين: «إن النسخ التي مضت على كتابتها ستمائة لم توجد، والتي مضت على كتابتها سبعمائة أو ثمانمائة سنة في غاية الندرة». انتهى.

وحيث إن نقل جميع أقوال العلماء المسيحيين في هذا الشأن يحتاج إلى زمن، وكثير من المجلدات؛ فهذا القدر كافٍ الآن.

ثم فلنذكر اليسير من أقوالهم أيضًا عن التراجم والفقرات التي صرحوا بتحريفها وزيادتها، وحكموا بأنها جعلية واجبة الحذف، وبعض الكتب والآيات التي كانت مشكوكة وحكموا بتسليمها إلهامية.

قال المحقق نورتن المشهور بـ«حامي الإنجيل» في الصحيفة 52 و6 و62 و70 و 84 و 88 من كتابه: «إن جملة آيات من إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا محرفة وجعلية وواجبة الحذف؛ مثل البابين الأولين من إنجيل متى، ومثل قصة يهوذا الأسخريوطي، واثني عشرة آية من إنجيل مرقس، وغيرهم بالأناجيل». انتهى.

وقال في الصحيفة 61 من كتابه هكذا: «قد اختلط الكذب الروائي لبيان المعجزات التي نقلتها الإنجيلي، والكاتب ضمها على طريقة المبالغة الشاعرية، لكن تمييز الصدق من الكذب في هذا الزمان عسير». انتهى.

وقال ليكلرك وكوب وميكائلس ولسنك وتميرو مارش من الأئمة المسيحيين المقربين هكذا: «لعل متى ولوقا ومرقس كان عندهم صحيفة واحدة باللسان العبري، وكانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيها، ونقلوا عنها، فنقل متى كثيرًا ولوقا ومرقس قليلًا».

وقال آدم كلارك في تفسيره بالمقدمة هكذا: «إن التفسير الأصلي المنسوب إلى تي شن انعدم، والمنسوب إليه الآن مشكوك عند العلماء، وشكهم حق». انتهى.

وقال هورن في المجلد الرابع من تفسيره نسخة سنة 1822 بالصحيفة 463 عن الترجمة اللاتينية: «هكذا وقعت التحريفات والإلحاقات الكثيرة في هذه الترجمة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر». انتهى.

وقال في الصحيفة 467: «لا بد أن يكون في بالك أن ترجمةً من التراجم لم تحرَّف مثل اللاطينية من غير المبالاة، أدخلوا فقرات بعض كتاب العهد الجديد في كتاب آخر، وكذا أدخلوا عبارات من الحواشي في المتن».

ولا يخفى على من طالع مقدمة كتاب المحقق المشهور جيرون أن ثمانية كتب من العهد العتيق كانت مشكوكة عند المسيحيين وغير مقبولة إلى سنة 324 من الميلاد وهي:

1- كتاب أستير.

2- كتاب باروخ.

3- كتاب طُوبْيا.

4- كتاب يهوديت.

5- كتاب وِزدَم (الحكمة).

6- كتاب إيكليز ياستيكس.

7- كتاب المكَّابيين الأول.

8- كتاب المكَّابيين الثاني.

وفي سنة 325 انعقد مجلس من العلماء المسيحيين بأمر السلطان قسطنطين في بلدة نائس للمشاورة عن هذه الكتب المشكوكة، وحكموا بأن كتاب يهوديت واجب التسليم، وأبقوا باقس الكتب المذكورة مشكوكة.

ثم في سنة 364 انعقد مجلس لوديسيا وحكم العلماء بوجوب تسليم كتاب أستير أيضًا.

وفي سنة 367 انعقد مجلس كار تهيج، وكان المجتمعون فيه مائة وسبعة وعشرين من العلماء المشهورين، ومنهم المحقق إكستاين. فهؤلاء العلماء سلموا ما كان مشكوكًا من الكتب الباقية، لكنهم جعلوا كتاب باروخ بمنزلة جزء من كتاب إرمياء بمقالة: إن باروخ كان بمنزلة نائب لإرمياء.

ثم انعقد بعد ذلك ثلاثةُ مجالس أخر وهي: مجلس ترلو، ومجلس فلورنس، ومجلس ترنت. وقرروا أحكام المجالس السابقة، وصارت الكتب المذكورة مسلَّمة بين جمهور المسيحيين إلى مدة ألف ومائتي سنة.

ولما ظهرت فرقة البروتستنت، رفضوا حكم أسلافهم في كتاب باروخ وكتاب طوبيا وكتاب يهوديت وكتاب وزدم وكتاب إيكليز باستيكس، وردوا أحكامهم في جزء من كتاب أستير وسلموا في جزء؛ لأن هذا الكتاب كان ستة عشر بابًا، فسلموا الأبواب التسعة الأول وثلاثة آيات من الباب العاشر، وردوا عشرة آيات من هذا الباب والستة أبواب الباقية.

وتمسكوا بوجوه: منها أن يوسي بيس المؤرخ صرح في الباب 22 من كتابه الرابع أن هذه الكتب حُرفت، سيما كتاب المكَّابيين، وأن اليهود يقولون: إنها ليست إلهامية، والكنيسة الرومانية التي متبعوها إلى الآن أكثر من فرقة البروتستنت، تسلم هذه الكتب من عهد المجالس الأخيرة لهذا الحين، ويعتقدون أنها إلهامية واجبة التسليم وداخلة في ترجمتهم اللاطينية المعتبرة عندهم غاية الاعتبار.

فمن علم ذلك، كيف يمكنه أن ينكر أن الكتب التي كانت غير مقبولة إلى سنة 324 بعد الميلاد؛ لتحريفها وكونها غير إلهامية، جعلها الأسلاف واجبة التسليم وأدخلوها في الكتب المقدسة الإلهامية؟ وأجمع ألوف من علمائهم على حقيقتها وإلهاميتها، والكنيسة الرومانية بأسرها تصر على كونها إلهامية لهذا الحين، وقد ردت ما ردته منها فرقة البروتستنت بعد ألف ومائتي سنة من عهد إجماع السلف على تسليمها واستأصلتها عن مجلدات العهدين في مطبوعاتها التي انتشرت في أغلب بقاع الأرض.

ولما كان سلخ الكتب المذكورة حديثًا من مجلدات كتب العهدين لا يخلو من الاعتراض، قد جعلوها في كراسة قائمة بذاتها، مع الاعتقاد بوجوب حذفهم.

وقد أثبت المؤرخون أن إدخال الخداع في الدين من القرون الأولى كان ضروريًا كما قال موشيم المؤرخ الشهير في بيان علماء القرن الثاني في الصحيفة 65 من المجلد الأول من تاريخه المطبوع سنة 1832 هكذا: «كان بين متبعي رأى أفلاطون وفيثاغورث مقولة مشهورة: إن الكذب والخداع لأجل أن يزداد الصدق وعبادة الله ليسا بجائزين فقط، بل قابلان للتحسين. وتعلم منهم يهودُ مصر هذه المقولة كما يظهر هذا جزمًا من كثير من الكتب القديمة، ثم أثروا بهذا الغلط السوء في المسيحيين كما يظهر هذا الأمر من الكتب الكثيرة التي نسبت إلى الكبار كذبًا». انتهى.

وقال يوسى بيس في الباب الثامن عشر من الكتاب الرابع من تاريخه: «ذكر جستن الشهيد في مقابلة طريفون اليهودي إن عدة بشارات عن المسيح أسقطها اليهود من الكتب المقدسة». انتهى.

وقال كريزاستم في تفسيره التاسع على إنجيل متى: «انمحى كثير من كتب الأنبياء؛ لأن اليهود ضيعوا كتبًا لا لأجل غفلتهم، بل لأجل عدم ديانتهم، ومزقوا بعضها وأحرقوا بعضها». انتهى.

فلعل هذا القدر اليسير من أقوال المحققين كافٍ عن التطويل بذكر كثير منها.

ومن تصفح الكتب المعروف بـ«العتيقة» بالتأني والتروي، وهو ناصر للحق؛ ظهر له حصولُ ذلك بشهادة ذات الكذب، وتحقق له أن بعد تسليم السيد موسى عليه السلام نسخة التوراة لبني إسرائيل والوصية بحفظهم في الصندوق والعمل بموجبها.

وكانت الطبقة الأولى على وصية موسى عليه السلام، فلما انقرضت هذه الطبقة وتغير حالُ بني إسرائيل وعبدوا الأصنام؛ مصداقًا لإخبار الله تعالى لموسى كما في الآية 16

من الباب 31 تثنية بأنهم بعد موت موسى عليه السلام يرتدون ويعبدون الآلهة الغريبة[1]، وصار لا حاجة لهم بالتوراة لمضادتها لأحكام عبادتهم الأصنام قد أعدموها. وكانوا هكذا في عبادة الآلهة الغريبة إلى زمن سليمان النبي عليه السلام.

ولما سُئل عن نسخة التوراة أُخبر بأن موسى كان وضعها بالصندوق وفتحه، فلم يجد فيه غير اللوحين الحجر اللَّذَيْن كانت الأحكام العشرة مكتوبة فيهما كما هو مصرح به بالآية السابق إيضاحها، وصارت تشتد الانقلابات إلى آخر سلطنة سليمان النبي، حتى ارتد هو -والعياذ بالله- في آخر عمره وعبد الأصنام بترغيب الأزواج كما في الآية الخامسة من الباب الحادي عشر من سفر الملوك الأول[2].

وبعد موته زاد الكفر وانقسمت الأسباط وصارت السلطنة الواحدة سلطنتين، وصار رحبعام سلطانًا على سبطين، وسميت «سلطنة يهودا». ويوربعام سلطانًا على عشرة أسباط، وسميت «السلطنة الإسرائيلية». وارتدت هذه الأسباط العشرة جميعًا وعبدوا الأصنام إلى مائتين وخمسين سنة، ثم أبادهم الله بأن سلط عليهم الآشُوريين فأسروهم وفرقوهم في الممالك وعمروا مملكتهم من الوثنيين، وسميت أولادهم «السامريين».

ثم جلس على سرير سلطنة يهوذا من موت سليمان النبي إلى ثلاثمائة واثنتين وستين سنة عشرون ملكًا كانت شائعة بينهم عبادة الأصنام حتى صارت تعبد تحت كل شجرة وناحية.

---

(١) تثنية 31: 16: «وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى: هَا أَنْتَ تَرْقُدُ مَعَ آبَائِكَ، فَيَقُومُ هَذَا الشَّعْبُ وَيَفْجُرُ وَرَاءَ آلِهَةِ الأَجْنَبِيِّينَ فِي الأَرْضِ التِي هُوَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتْرُكُنِي وَيَنْكُثُ عَهْدِي الذِي قَطَعْتُهُ مَعَهُ».

(٢) المسلمون لا يؤمنون بذلك ويرفضونه، وينزِّهون نبي الله سليمان عليه السلام عن ذلك.

وفي عهد آحاز سُدَّت أبواب بيت المقدس وبنيت المذابح للبعليم في كل جانب من أورشليم، واشتد الكفر في عهد مَنَسَّى وبنى مذبحًا للأصنام في بيت المقدس أيضًا.

وهكذا كان الكفر في عهد آمون ابنه إلى أن جلس يوشِيًّا بن آمون وتاب هو وأراكينه، واجتهدوا الغاية في ترويج الملة الموسوية، ومع شدة بحثه سبع عشر سنة من ملكه، لم يسمع ولم يَرَ خبرًا عن نسخة التوراة.

وفي السنة الثامنة عشرة من سلطنته ادعى حلقيا الكاهن أنه وجدها في بيت المقدس، وأعطاها شافان الكاهن. ولما قرأها على يُوشِيًّا الملك شق ثيابه للحزن على عصيان آبائه. ومع ذلك ما كان اعتماد النسخة المذكورة إلا بمشورة امرأة تسمى خلدة النبية زوجة حارس الثياب، كما هو مصرح به في الباب 22 من سفر الملوك الثاني، وفي الباب 34 من أخبار الأيام. هذا مع ثبوت سبق نهب بيت المقدس مرتين قبل عيد أخذه وجعله بيتًا للأصنام، وكانوا يدخلونه كل يوم للعبادة فيه عدة أجيال.

وعلى تقدير وجوده لها، فإنه بعد موت يُوشِيًّا وجلوس ياهوآحاز عاد الكفر كما كان، وتسلط عليه ملك مصر وأسره وأجلس أخاه، وكان مرتدًا أيضًا.

وبعد موته جلس ابنه، وكان مثلهم في الكفر، وأسره بختنصر ونهب وحرق بيت المقدس وبيت الملك وبيوت جميع أكابر أورشليم، وهدم أسوارها وأجلس عمه وكان مرتدًا وثنيًّا.

وقد ثبت للمحققين من العلماء المسيحيين والمؤرخين انعدام النسخة المذكورة أيضًا من أيدي العسكر في هذه الواقعة.

ثم ومذكور حادثة أخرى في الباب الأول للمكَّابيين الأول وهي هكذا: «لما فتح أنتيوكس ملك ملوك الفرنج أورشليم أحرق جميع نسخ العهد العتيق التي حصلت

له من أي مكان بعد ما قطعها، وأمر أن من يوجد عنده نسخة أو يؤدي رسم الشريعة يُقتل، وكان تحقيق هذا الأمر في كل شهر، وكان يقتل كل من وجد عنده نسخة من الكتب أو أدى رسمًا من رسوم الشريعة وتعدم تلك النسخة». انتهى.

ثم وحصل عشر قتلات عظيمة بعد ذلك؛ كانت سببًا موجبًا لقلة النسخ وسببًا لاتساع مجال التحريف.

أولها: في سنة 64 ميلادية في عهد السلطان نيرون، واستشهد فيها بطرس الحواري وزوجته، وقتل بولس في دار السلطنة، وكان التفوُّه بالمسيحية يعد جرمًا عظيمًا.

والثاني: في عهد السلطان روستيان وكان أشد عداوة من نيرون للديانة المذكورة، وأمر بتعميم القتل حتى كاد يستأصل هذه الملة، وأجلى يوحنا الحواري وقتل فيليوس كلمنيمس.

والثالث: في عهد السلطان تراجان سنه 101، وقتل فيه أكناثيوس أسقف كرونتيه وكليمنست الروم وشِمْعُون أسقف أورشليم.

والرابع: في عهد السلطان أنتونينس وابتداء القتل من سنة 161 إلى سنة 172.

والخامس: في عهد السلطان سويرس سنة 202، وقتل ألوف من ديار فرانس ومصر وكار تهيج.

والسادس: في عهد السلطان كمسيمن سنة 227 وقتل العلماء لتنقاد إليه العوام، وقتل البابا يونتيانوس والبابا أنتيروس.

والسابع: في عهد السلطان ديشس، وصمم على محو الملة المسيحية، وارتد كثير من المسيحيين وعبدوا الأصنام.

والثامن: في عهد السلطان ولريان سنة 257، وأمر بقتل خدام الدين، وأذل الأعزة، وسلب أموال الناس وأجلاهم عن الأوطان، ومن يبقى مسيحيًّا يُسجن في سلاسل ويستعمل في أمور الدولة.

والتاسع: في عهد السلطان إريلين وابتداؤه في سنة 274.

والعاشر: سنة 302 وأحرقت بلدة فريجيا دفعة واحدة ولم يبقَ فيها واحد مسيحي، وفي سنة 303 أمر السلطان ديوكليشن بمحو وجود الكتب الدينية عن صفحة العالم، وهدم الكنائس وأحرق ما فيها، وشدد في عدم اجتماع أحد للعبادة.

علماء المسلمين واليهود والمسيحيين أثبتوا تحريف التوراة والأناجيل في كتب

وبالجملة فإن علماء الإسلام، بل وعلماء الطوائف المسيحية قد حققوا الأمر بالتدقيق، ووقفوا على ما أصاب الكتب العتيقة والحديثة من تناول الأيدي. وكل من علماء الفريقين أثبت ما ظهر إليه في مجلدات مطبوعة قديمًا وحديثًا.

ومهما اختلفت الغايات والمقاصد، فالأمر واضح بنتيجة التحريف والتغيير والتبديل، وقد أثبته العلماء المسيحيون في كتبهم، فمن شاء فليرجع لمطالعة تفاسيرهم ومجلداتهم وتاريخ يوسيفيس المعتمد تاريخه عند العلماء المسيحية، ويطالع تاريخ موشيم المؤرخ أيضًا.

ثم على تقدير عدم التغيير والتبديل بالكتب المذكورة نقول: إن الآيات التي يتمسك بها عامة المسيحيين للدلالة على ألوهية السيد المسيح هي التي ذكرتموها حضرتكم. على أن من تأمل في عباراتها المرتبطة بها، وهو موجِّه أفكاره لمعرفة الحق بدون تصميم على تأييد الفهم المكتسب حفظًا وعادة عن الآباء مهما ظهر الأمر؛ فإنه يتضح له بُعْد العبارة عما تؤوِّلت إليه، وأن صريح معناها لا يتعلق بشيء من جهة المسيح عليه السلام البتة.

بشارة من سفر إِشَعْيَاء لمحمد ﷺ

وهي كالقول المنسوب لإِشَعْيَاء النبي عليه السلام في ص 2: «إن من صِهْيَوْن تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب، فيقضي بين الأمم»... إلخ(١).

---

(١) نص البشارة من سفر إِشَعْيَاء بتمامه هو:

«اَلأَصْحَاحُ الأَوَّلُ

١ رُؤْيَا إِشَعْيَاء بْنِ آمُوصَ الَّتِي رَآهَا عَلَى يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ فِي أَيَّامِ عُزِّيَّا وَيُوثَامَ وَآحَازَ وَحَزَقِيَّا مُلُوكِ يَهُوذَا:
٢ اِسْمَعِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: «رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ أَمَّا هُمْ فَعَصُوا
عَلَيَّ. 3 اَلثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيهِ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ. شَعْبِي لاَ يَفْهَمُ». 4 وَيْلٌ لِلأُمَّةِ
الْخَاطِئَةِ الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ نَسْلِ فَاعِلِي الشَّرِّ أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ اسْتَهَانُوا بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ
ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءٍ. 5 عَلَى مَ تُضْرَبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيَغَاناً! كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ. 6 مِنْ
أَسْفَلِ الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيَّةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ تُعْصَبْ وَلَمْ تُلَيَّنْ
بِالزَّيْتِ. 7 بِلاَدُكُمْ خَرِبَةٌ. مُدُنُكُمْ مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تَأْكُلُهَا غُرَبَاءُ قُدَّامَكُمْ وَهِيَ خَرِبَةٌ كَانْقِلاَبِ
الْغُرَبَاءِ. 8 فَبَقِيَتِ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ كَمِظَلَّةٍ فِي كَرْمٍ كَخَيْمَةٍ فِي مَقْثَأَةٍ كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ. 9 لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى
لَنَا بَقِيَّةً صَغِيرَةً لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ. ١٠ اِسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبِّ يَا قُضَاةَ سَدُومَ! أَصْغُوا إِلَى
شَرِيعَةِ إِلَهِنَا يَا شَعْبَ عَمُورَةَ: 11«لِمَاذَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ؟» يَقُولُ الرَّبُّ «اتَّخَمْتُ مِنْ مُحْرَقَاتِ كِبَاشٍ وَشَحْمِ
مُسَمَّنَاتٍ وَبِدَمِ عُجُولٍ وَخِرْفَانٍ وَتُيُوسٍ مَا أُسَرُّ. 12 حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِي مَنْ طَلَبَ هَذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ
أَنْ تَدُوسُوا دِيَارِي؟ 13 لاَ تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبَخُورُ هُوَ مَكْرُهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ
الْمَحْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ الإِثْمَ وَالاِعْتِكَافَ. 14 رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقْلاً.
مَلِلْتُ حِمْلَهَا. 15 فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرُ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيْدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَماً.
16 اِغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. 17 تَعَلَّمُوا فِعْلَ الْخَيْرِ. اطْلُبُوا
الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ. 18 هَلُمَّ نَتَحَاجَجْ يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ
خَطَايَاكُمْ كَالْقِرْمِزِ تَبْيَضُّ كَالثَّلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ. 19 إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ
تَأْكُلُونَ خَيْرَ الأَرْضِ. 20 وَإِنْ أَبَيْتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيْفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ. ٢١ كَيْفَ صَارَتِ
الْقَرْيَةُ الأَمِينَةُ زَانِيَةً! مَلآنَةً حَقّاً. كَانَ الْعَدْلُ يَبِيتُ فِيهَا. وَأَمَّا الآنَ فَالْقَاتِلُونَ. 22 صَارَتْ فِضَّتُكِ زَغَلاً
=

وَخَمْرُكِ مَغْشُوشَةٌ بِمَاءٍ. 23 رُؤَسَاؤُكِ مُتَمَرِّدُونَ وَلُغَفَاءُ اللُّصُوصِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحِبُّ الرَّشْوَةَ وَيَتْبَعُ
الْعَطَايَا. لاَ يَقْضُونَ لِلْيَتِيمِ وَدَعْوَى الأَرْمَلَةِ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِمْ. ٢٤ لِذَلِكَ يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ عَزِيزُ
إِسْرَائِيلَ: «آهِ! إِنِّي أَسْتَرِيحُ مِنْ خُصَمَائِي وَأَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِي 25 وَأَرُدُّ يَدِي عَلَيْكِ وَأُنَقِّي زَغَلَكِ كَأَنَّهُ
بِالْبَوْرَقِ وَأَنْزِعُ كُلَّ قَصْدِيرِكِ 26 وَأُعِيدُ قُضَاتَكِ كَمَا فِي الأَوَّلِ وَمُشِيرِيكِ كَمَا فِي الْبَدَاءَةِ. بَعْدَ ذَلِكَ تُدْعَيْنَ
مَدِينَةَ الْعَدْلِ الْقَرْيَةَ الأَمِينَةَ». 27 صِهْيَوْنُ تُفْدَى بِالْحَقِّ وَتَائِبُوهَا بِالْبِرِّ. 28 وَهَلاَكُ الْمُذْنِبِينَ وَالْخُطَاةِ يَكُونُ
سَوَاءً وَتَارِكُو الرَّبِّ يَفْنُونَ. 29 لأَنَّهُمْ يَخْجَلُونَ مِنْ أَشْجَارِ الْبُطْمِ الَّتِي اشْتَهَيْتُمُوهَا وَتُخْزَوْنَ مِنَ الْجَنَّاتِ الَّتِي
اخْتَرْتُمُوهَا. 30 لأَنَّكُمْ تَصِيرُونَ كَبُطْمَةٍ قَدْ ذَبُلَ وَرَقُهَا وَكَجَنَّةٍ لَيْسَ لَهَا مَاءٌ. 31 وَيَصِيرُ الْقَوِيُّ مَشَاقَةً
وَعَمَلُهُ شَرَاراً فَيَحْتَرِقَانِ كِلاَهُمَا مَعاً وَلَيْسَ مَنْ يُطْفِئُ.

الأَصْحَاحُ الثَّانِي

١ اَلأُمُورُ الَّتِي رَآهَا إِشَعْيَاءُ بْنُ آمُوصَ مِنْ جِهَةِ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ: ٢ وَيَكُونُ فِي آخِرِ الأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ
الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتاً فِي رَأْسِ الْجِبَالِ وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ التِّلاَلِ وَتَجْرِي إِلَيْهِ كُلُّ الأُمَمِ. 3 وَتَسِيرُ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ
وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ إِلَى بَيْتِ إِلَهِ يَعْقُوبَ فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ». لأَنَّهُ مِنْ
صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ. 4 فَيَقْضِي بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ فَيَطْبَعُونَ
سُيُوفَهُمْ سِكَكاً وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفاً وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ. ٥ يَا بَيْتَ
يَعْقُوبَ هَلُمَّ فَنَسْلُكُ فِي نُورِ الرَّبِّ. 6 فَإِنَّكَ رَفَضْتَ شَعْبَكَ بَيْتَ يَعْقُوبَ لأَنَّهُمُ امْتَلأُوا مِنَ الْمَشْرِقِ وَهُمْ
عَائِفُونَ كَالْفِلِسْطِينِيِّينَ وَيُصَافِحُونَ أَوْلاَدَ الأَجَانِبِ. 7 وَامْتَلأَتْ أَرْضُهُمْ فِضَّةً وَذَهَباً وَلاَ نِهَايَةَ لِكُنُوزِهِمْ
وَامْتَلأَتْ أَرْضُهُمْ خَيْلاً وَلاَ نِهَايَةَ لِمَرْكَبَاتِهِمْ. 8 وَامْتَلأَتْ أَرْضُهُمْ أَوْثَاناً. يَسْجُدُونَ لِعَمَلِ أَيْدِيهِمْ لِمَا صَنَعَتْهُ
أَصَابِعُهُمْ. 9 وَيَنْخَفِضُ الإِنْسَانُ وَيَنْطَرِحُ الرَّجُلُ فَلاَ تَغْفِرْ لَهُمْ. ١٠ اُدْخُلْ إِلَى الصَّخْرَةِ وَاخْتَبِئْ فِي التُّرَابِ
مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمِنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ. 11 تُوضَعُ عَيْنَا تَشَامُخِ الإِنْسَانِ وَتُخْفَضُ رِفْعَةُ النَّاسِ وَيَسْمُو الرَّبُّ
وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. ١٢ فَإِنَّ لِرَبِّ الْجُنُودِ يَوْماً عَلَى كُلِّ مُتَعَظِّمٍ وَعَالٍ وَعَلَى كُلِّ مُرْتَفِعٍ فَيُوضَعُ 13 وَعَلَى
كُلِّ أَرْزِ لُبْنَانَ الْعَالِي الْمُرْتَفِعِ وَعَلَى كُلِّ بَلُّوطِ بَاشَانَ 14 وَعَلَى كُلِّ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ وَعَلَى كُلِّ التِّلاَلِ الْمُرْتَفِعَةِ 15
وَعَلَى كُلِّ بُرْجٍ عَالٍ وَعَلَى كُلِّ سُورٍ مَنِيعٍ 16 وَعَلَى كُلِّ سُفُنِ تَرْشِيشَ وَعَلَى كُلِّ الأَعْلاَمِ الْبَهِجَةِ. 17
فَيُخْفَضُ تَشَامُخُ الإِنْسَانِ وَتُوضَعُ رِفْعَةُ النَّاسِ وَيَسْمُو الرَّبُّ وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. 18 وَتَزُولُ الأَوْثَانُ
بِتَمَامِهَا. 19 وَيَدْخُلُونَ فِي مَغَايِرِ الصُّخُورِ وَفِي حَفَائِرِ التُّرَابِ مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمِنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ
لِيُرْعِبَ الأَرْضَ. 20 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَطْرَحُ الإِنْسَانُ أَوْثَانَهُ الْفِضِّيَّةَ وَأَوْثَانَهُ الذَّهَبِيَّةَ الَّتِي عَمِلُوهَا لَهُ لِلسُّجُودِ
=

لِلْجُرْذَانِ وَالْخَفَافِيشِ 21 لِيَدْخُلَ فِي نُقَرِ الصُّخُورِ وَفِي شُقُوقِ الْمَعَاقِلِ مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمِنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ لِيَرْعِبَ الأَرْضَ. 22 كُفُّوا عَنِ الإِنْسَانِ الَّذِي فِي أَنْفِهِ نَسَمَةٌ لأَنَّهُ مَاذَا يُحْسَبُ؟

اَلأَصْحَاحُ الثَّالِثُ

١ فَإِنَّهُ هُوَذَا السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ يَنْزِعُ مِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ يَهُوذَا السَّنَدَ وَالرُّكْنَ كُلَّ سَنَدِ خُبْزٍ وَكُلَّ سَنَدِ مَاءٍ. 2 الْجَبَّارَ وَرَجُلَ الْحَرْبِ. الْقَاضِيَ وَالنَّبِيَّ وَالْعَرَّافَ وَالشَّيْخَ. 3 رَئِيسَ الْخَمْسِينَ وَالْمُعْتَبَرَ وَالْمُشِيرَ وَالْمَاهِرَ بَيْنَ الصُّنَّاعِ وَالْحَاذِقَ بِالرُّقْيَةِ. 4 وَأَجْعَلُ صِبْيَاناً رُؤَسَاءَ لَهُمْ وَأَطْفَالاً تَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ. 5 وَيَظْلِمُ الشَّعْبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَالرَّجُلُ صَاحِبَهُ. يَتَمَرَّدُ الصَّبِيُّ عَلَى الشَّيْخِ وَالدَّنِيءُ عَلَى الشَّرِيفِ. 6 إِذَا أَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِأَخِيهِ فِي بَيْتِ أَبِيهِ قَائِلاً: «لَكَ ثَوْبٌ فَتَكُونُ لَنَا رَئِيساً وَهَذَا الْخَرَابُ تَحْتَ يَدِكَ» 7 يَرْفَعُ صَوْتَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: «لاَ أَكُونُ عَاصِباً وَفِي بَيْتِي لاَ خُبْزَ وَلاَ ثَوْبَ. لاَ تَجْعَلُونِي رَئِيسَ الشَّعْبِ». 8 لأَنَّ أُورُشَلِيمَ عَثَرَتْ وَيَهُوذَا سَقَطَتْ لأَنَّ لِسَانَهُمَا وَأَفْعَالَهُمَا ضِدَّ الرَّبِّ لإِغَاظَةِ عَيْنَيْ مَجْدِهِ. 9 نَظَرُ وُجُوهِهِمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يُخْبِرُونَ بِخَطِيَّتِهِمْ كَسَدُومَ. لاَ يُخْفُونَهَا. وَيْلٌ لِنُفُوسِهِمْ لأَنَّهُمْ يَصْنَعُونَ لأَنْفُسِهِمْ شَرّاً. 10«قُولُوا لِلصِّدِّيقِ خَيْرٌ! لأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ ثَمَرَ أَفْعَالِهِمْ. 11 وَيْلٌ لِلشِّرِّيرِ. شَرٌّ! لأَنَّ مُجَازَاةَ يَدَيْهِ تُعْمَلُ بِهِ. 12 شَعْبِي ظَالِمُوهُ أَوْلاَدٌ وَنِسَاءٌ يَتَسَلَّطْنَ عَلَيْهِ. يَا شَعْبِي مُرْشِدُوكَ مُضِلُّونَ وَيَبْلَعُونَ طَرِيقَ مَسَالِكِكَ». ١٣ قَدِ انْتَصَبَ الرَّبُّ لِلْمُخَاصَمَةِ وَهُوَ قَائِمٌ لِدَيْنُونَةِ الشُّعُوبِ. 14 اَلرَّبُّ يَدْخُلُ فِي الْمُحَاكَمَةِ مَعَ شُيُوخِ شَعْبِهِ وَرُؤَسَائِهِمْ: «وَأَنْتُمْ قَدْ أَكَلْتُمُ الْكَرْمَ. سَلْبُ الْبَائِسِ فِي بُيُوتِكُمْ. 15 مَا لَكُمْ تَسْحَقُونَ شَعْبِي وَتَطْحَنُونَ وُجُوهَ الْبَائِسِينَ؟» يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ. ١٦ وَقَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ يَتَشَامَخْنَ وَيَمْشِينَ مَمْدُودَاتِ الأَعْنَاقِ وَغَامِزَاتٍ بِعُيُونِهِنَّ وَخَاطِرَاتٍ فِي مَشْيِهِنَّ وَيُخَشْخِشْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ 17 يُصْلِعُ السَّيِّدُ هَامَةَ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ وَيُعَرِّي الرَّبُّ عَوْرَتَهُنَّ. 18 يَنْزِعُ السَّيِّدُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ زِينَةَ الْخَلاَخِيلِ وَالضَّفَائِرِ وَالأَهِلَّةِ 19 وَالْحَلَقِ وَالأَسَاوِرِ وَالْبَرَاقِعِ 20 وَالْعَصَائِبِ وَالسَّلاَسِلِ وَالْمَنَاطِقِ وَحَنَاجِرِ الشَّمَّامَاتِ وَالأَحْرَازِ 21 وَالْخَوَاتِمِ وَخَزَائِمِ الأَنْفِ 22 وَالثِّيَابِ الْمُزَخْرَفَةِ وَالْعُطْفِ وَالأَرْدِيَةِ وَالأَكْيَاسِ 23 وَالْمَرَائِي وَالْقُمْصَانِ وَالْعَمَائِمِ وَالأُزُرِ. 24 فَيَكُونُ عِوَضَ الطِّيبِ عُفُونَةٌ وَعِوَضَ الْمِنْطَقَةِ حَبْلٌ وَعِوَضَ الْجَدَائِلِ قَرْعَةٌ وَعِوَضَ الدِّيبَاجِ زُنَّارُ مِسْحٍ وَعِوَضَ الْجَمَالِ كَيٌّ! 25 رِجَالُكِ يَسْقُطُونَ بِالسَّيْفِ وَأَبْطَالُكِ فِي الْحَرْبِ. 26 فَتَئِنُّ وَتَنُوحُ أَبْوَابُهَا وَهِيَ فَارِغَةٌ تَجْلِسُ عَلَى الأَرْضِ.

اَلأَصْحَاحُ الرَّابِعُ

١ فَتُمْسِكُ سَبْعُ نِسَاءٍ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاَتٍ: «نَأْكُلُ خُبْزَنَا وَنَلْبِسُ ثِيَابَنَا. لِيُدْعَ فَقَطِ اسْمُكَ عَلَيْنَا. انْزِعْ عَارَنَا». 2 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ غُصْنُ الرَّبِّ بَهَاءً وَمَجْداً وَثَمَرُ الأَرْضِ فَخْراً وَزِينَةً لِلنَّاجِينَ مِنْ

=

إِسْرَائِيلَ. 3 وَيَكُونُ أَنَّ الَّذِي يَبْقَى فِي صِهْيَوْن وَالَّذِي يُتْرَكُ فِي أُورُشَلِيمَ يُسَمَّى قُدُّوساً. كُلُّ مَنْ كُتِبَ لِلْحَيَاةِ فِي أُورُشَلِيمَ. 4 إِذَا غَسَلَ السَّيِّدُ قَذَرَ بَنَاتِ صِهْيَوْن وَنَقَّى دَمَ أُورُشَلِيمَ مِنْ وَسَطِهَا بِرُوحِ الْقَضَاءِ وَبِرُوحِ الإِحْرَاقِ 5 يَخْلُقُ الرَّبُّ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ جَبَلِ صِهْيَوْن وَعَلَى مَحْفَلِهَا سَحَابَةً نَهَاراً وَدُخَاناً وَلَمَعَانَ نَارٍ مُلْتَهِبَةٍ لَيْلاً. لأَنَّ عَلَى كُلِّ مَجْدٍ غِطَاءً. 6 وَتَكُونُ مَظَلَّةٌ لِلْفَيْءِ نَهَاراً مِنَ الْحَرِّ وَلِمَلْجَأٍ وَمَخْبَأٍ مِنَ السَّيْلِ وَمِنَ الْمَطَرِ.

الأَصْحَاحُ الْخَامِسُ

١ لأُنْشِدَنَّ عَنْ حَبِيبِي نَشِيدَ مُحِبِّي لِكَرْمِهِ. كَانَ لِحَبِيبِي كَرْمٌ عَلَى أَكَمَةٍ خَصِبَةٍ 2 فَنَقَبَهُ وَنَقَّى حِجَارَتَهُ وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَقَ وَبَنَى بُرْجاً فِي وَسَطِهِ وَنَقَرَ فِيهِ أَيْضاً مِعْصَرَةً فَانْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عِنَباً فَصَنَعَ عِنَباً رَدِيئاً. ٣«وَالآنَ يَا سُكَّانَ أُورُشَلِيمَ وَرِجَالَ يَهُوذَا احْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي. 4 مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضاً لِكَرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ؟ لِمَاذَا إِذِ انْتَظَرْتُ أَنْ يَصْنَعَ عِنَباً صَنَعَ عِنَباً رَدِيئاً؟ 5 فَالآنَ أُعَرِّفُكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي. أَنْزِعُ سِيَاجَهُ فَيَصِيرُ لِلرَّعْيِ. أَهْدِمُ جُدْرَانَهُ فَيَصِيرُ لِلدَّوْسِ. 6 وَأَجْعَلُهُ خَرَاباً لاَ يُقْضَبُ وَلاَ يُنْقَبُ فَيَطْلَعُ شَوْكٌ وَحَسَكٌ. وَأُوصِي الْغَيْمَ أَنْ لاَ يُمْطِرَ عَلَيْهِ مَطَراً». ٧ إِنَّ كَرْمَ رَبِّ الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا. فَانْتَظَرَ حَقّاً فَإِذَا سَفْكُ دَمٍ وَعَدْلاً فَإِذَا صُرَاخٌ. ٨ وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَصِلُونَ بَيْتاً بِبَيْتٍ وَيَقْرِنُونَ حَقْلاً بِحَقْلٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَوْضِعٌ. فَصِرْتُمْ تَسْكُنُونَ وَحْدَكُمْ فِي وَسَطِ الأَرْضِ. 9 فِي أُذُنَيَّ قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: «أَلاَ إِنَّ بُيُوتاً كَثِيرَةً تَصِيرُ خَرَاباً. بُيُوتاً كَبِيرَةً وَحَسَنَةً بِلاَ سَاكِنٍ. 10 لأَنَّ عَشَرَةَ فَدَادِينِ كَرْمٍ تَصْنَعُ بَثّاً وَاحِداً وَحُومَرَ بِذَارٍ يَصْنَعُ إِيفَةً». ١١ وَيْلٌ لِلْمُبَكِّرِينَ صَبَاحاً يَتْبَعُونَ الْمُسْكِرَ لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْعَتَمَةِ تُلْهِبُهُمُ الْخَمْرُ. 12 وَصَارَ الْعُودُ وَالرَّبَابُ وَالدُّفُّ وَالنَّايُ وَالْخَمْرُ وَلاَئِمَهُمْ وَإِلَى فَعْلِ الرَّبِّ لاَ يَنْظُرُونَ وَعَمَلَ يَدَيْهِ لاَ يَرَوْنَ. 13 لِذَلِكَ سُبِيَ شَعْبِي لِعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ وَتَصِيرُ شُرَفَاؤُهُ رِجَالَ جُوعٍ وَعَامَّتُهُ يَابِسِينَ مِنَ الْعَطَشِ. 14 لِذَلِكَ وَسَّعَتِ الْهَاوِيَةُ نَفْسَهَا وَفَغَرَتْ فَمَهَا بِلاَ حَدٍّ فَيَنْزِلُ بَهَاؤُهَا وَجُمْهُورُهَا وَضَجِيجُهَا وَالْمُبْتَهِجُ فِيهَا! 15 وَيُذَلُّ الإِنْسَانُ وَيُحَطُّ الرَّجُلُ وَعُيُونُ الْمُسْتَعْلِينَ تُوضَعُ. 16 وَيَتَعَالَى رَبُّ الْجُنُودِ بِالْعَدْلِ وَيَتَقَدَّسُ الإِلَهُ الْقُدُّوسُ بِالْبِرِّ. 17 وَتَرْعَى الْخِرَافُ حَيْثُمَا تُسَاقُ وَخِرَبُ السِّمَانِ تَأْكُلُهَا الْغُرَبَاءُ. ١٨ وَيْلٌ لِلْجَاذِبِينَ الإِثْمَ بِحِبَالِ الْبُطْلِ وَالْخَطِيَّةَ كَأَنَّهُ بِرُبُطِ الْعَجَلَةِ 19 الْقَائِلِينَ: «لِيُسْرِعْ. لِيُعَجِّلْ عَمَلَهُ لِكَيْ نَرَى وَلْيَقْرُبْ وَيَأْتِ مَقْصَدُ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ لِنَعْلَمَ». 20 وَيْلٌ لِلْقَائِلِينَ لِلشَّرِّ خَيْراً وَلِلْخَيْرِ شَرّاً الْجَاعِلِينَ الظَّلاَمَ نُوراً وَالنُّورَ ظَلاَماً الْجَاعِلِينَ الْمُرَّ حُلْواً وَالْحُلْوَ مُرّاً. 21 وَيْلٌ لِلْحُكَمَاءِ فِي أَعْيُنِ أَنْفُسِهِمْ وَالْفُهَمَاءِ عِنْدَ ذَوَاتِهِمْ. 22 وَيْلٌ لِلأَبْطَالِ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ وَلِذَوِي الْقُدْرَةِ عَلَى مَزْجِ الْمُسْكِرِ. 23 الَّذِينَ يُبَرِّرُونَ الشِّرِّيرَ مِنْ أَجْلِ الرَّشْوَةِ. وَأَمَّا حَقُّ الصِّدِّيقِينَ فَيَنْزِعُونَهُ مِنْهُمْ. ٢٤ لِذَلِكَ كَمَا يَأْكُلُ لَهِيبُ النَّارِ الْقَشَّ وَيَهْبِطُ الْحَشِيشُ الْمُلْتَهِبُ يَكُونُ أَصْلُهُمْ كَالْعُفُونَةِ وَيَصْعَدُ

=

فمعناه الصريح الواضح بسياق العبارة من الأصحاح الأول إلى آخر الأصحاح الثالث: أن ذلك نبوءة عن نزع شريعة وأحكام الضلال والفسق وعبادة الأصنام من صِهْيَوْن وأورشليم بكلمة الله -أي: بأمره- لا عن ظهور شريعةٍ منهم؛ لقوله

زَهْرُهُمْ كَالْغُبَارِ لأَنَّهُمْ رَذَلُوا شَرِيعَةَ رَبِّ الْجُنُودِ وَاسْتَهَانُوا بِكَلاَمِ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ. 25 مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى شَعْبِهِ وَمَدَّ يَدَهُ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ حَتَّى ارْتَعَدَتِ الْجِبَالُ وَصَارَتْ جُثَثُهُمْ كَالزِّبْلِ فِي الأَزِقَّةِ. مَعَ كُلِّ هَذَا لَمْ يَرْتَدَّ غَضَبُهُ بَلْ يَدُهُ مَمْدُودَةٌ بَعْدُ. ٢٦ فَيَرْفَعُ رَايَةً لِلأُمَمِ مِنْ بَعِيدٍ وَيَصْفِرُ لَهُمْ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ فَإِذَا هُمْ بِالْعَجَلَةِ يَأْتُونَ سَرِيعاً. 27 لَيْسَ فِيهِمْ رَازِحٌ وَلاَ عَاثِرٌ. لاَ يَنْعَسُونَ وَلاَ يَنَامُونَ وَلاَ تَنْحَلُّ حُزُمُ أَحْقَائِهِمْ وَلاَ تَنْقَطِعُ سُيُورُ أَحْذِيَتِهِمْ. 28 الَّذِينَ سِهَامُهُمْ مَسْنُونَةٌ وَجَمِيعُ قِسِيِّهِمْ مَمْدُودَةٌ. حَوَافِرُ خَيْلِهِمْ تُحْسَبُ كَالصَّوَّانِ وَبَكَرَاتُهُمْ كَالزَّوْبَعَةِ. 29 لَهُمْ زَمْجَرَةٌ كَاللَّبْوَةِ وَيُزَمْجِرُونَ كَالشِّبْلِ وَيَهِرُّونَ وَيُمْسِكُونَ الْفَرِيسَةَ وَيَسْتَخْلِصُونَهَا وَلاَ مُنْقِذَ. 30 يَهِرُّونَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَهَدِيرِ الْبَحْرِ. فَإِنْ نُظِرَ إِلَى الأَرْضِ فَهُوَذَا ظَلاَمُ الضِّيقِ وَالنُّورُ قَدْ أَظْلَمَ بِسُحُبِهَا.

الأَصْحَاحُ السَّادِسُ

١ فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الْمَلِكِ رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. 2 السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبِاثْنَيْنِ يَطِيرُ. 3 وَهَذَا نَادَى ذَاكَ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ». 4 فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَاناً. ٥ فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ». 6 فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ 7 وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ».
٨ ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ: «مَنْ أُرْسِلُ وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟» فَأَجَبْتُ: «هَئَنَذَا أَرْسِلْنِي». 9 فَقَالَ: «اذْهَبْ وَقُلْ لِهَذَا الشَّعْبِ: اسْمَعُوا سَمْعاً وَلاَ تَفْهَمُوا وَأَبْصِرُوا إِبْصَاراً وَلاَ تَعْرِفُوا. 10 غَلِّظْ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ وَثَقِّلْ أُذْنَيْهِ وَاطْمُسْ عَيْنَيْهِ لِئَلاَّ يُبْصِرَ بِعَيْنَيْهِ وَيَسْمَعَ بِأُذْنَيْهِ وَيَفْهَمْ بِقَلْبِهِ وَيَرْجِعَ فَيُشْفَى». 11 فَسَأَلْتُ: «إِلَى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ؟» فَقَالَ: «إِلَى أَنْ تَصِيرَ الْمُدُنُ خَرِبَةً بِلاَ سَاكِنٍ وَالْبُيُوتُ بِلاَ إِنْسَانٍ وَتَخْرَبَ الأَرْضُ وَتُقْفِرَ 12 وَيُبْعِدَ الرَّبُّ الإِنْسَانَ وَيَكْثُرَ الْخَرَابُ فِي وَسَطِ الأَرْضِ. 13 وَإِنْ بَقِيَ فِيهَا عُشْرٌ بَعْدُ فَيَعُودُ وَيَصِيرُ لِلْخَرَابِ وَلَكِنْ كَالْبُطْمَةِ وَالْبَلُّوطَةِ الَّتِي وَإِنْ قُطِعَتْ فَلَهَا سَاقٌ يَكُونُ سَاقُهُ زَرْعاً مُقَدَّساً» [إشعياء 1+].

بالأصحاح الأول: «2 اسمعي أيتها السماوات وأيتها الأرض؛ لأن الرب يتكلم. ربيت بنين وأنشأتهم، أما هم فعصوا عليَّ 3 الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولادُ مفسدين تركوا الرب واستهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى الوراء، علامَ تضربون بعد؟ تزدادون زيغانًا، كل الرأس مريض وكل القلب سقيم»... إلى قوله: «7 بلادكم خربة، مدنكم محرقة، أرضكم تأكلها غرباء»... إلخ. «8 فبقيت ابنة صِهْيَوْن كمظلة»... إلى قوله: «9 لولا أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سَدُوم وعَمُورة»... إلخ. «24 يقول السيد رب الجنود عزيز إسرائيل: آهِ إني أستريح من خصمائي وأنتقم من أعدائي. 25 وأرد يدي عليكِ وأنقّي زغلكِ كأنه بالبورق، وأنزع كل قصديرك»... إلخ. «28 وهلاك المذنبين والخطاة يكون سواء، وتاركو الرب يفنون. 29 ويسير القوى مشاقة وعمله شرارًا؛ فيحرقان كلاهما معًا وليس من يطفئ». انتهى الأصحاح الأول.

وهذا هو الأصحاح الثاني: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتًا في رأس الجبال ويرفع فوق التلال، وتجري إليه كل الأمم، وتصير شعوب كثيرة ويقولون: هَلُمَّ نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب، فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبيله؛ لأن من صِهْيَوْن تخرج الشريعة»... إلخ. أي: بعد وقوع الخراب والحريق وأكل الغرباء أرض صِهْيَوْن التي لولا أن أبقى الله منها بقية صغيرة، لكانت مثل سَدُوم وعَمُورة، ونزع أحكام وأعمال الضلال المعبر عنها بـ«الزغل والقصدير» التي كانت شريعتهم وقت ذاك، ويكون في آخر ذلك أن البعض يخشع ويرجع لله كما أفصح عن ذلك في قوله في الآية 10 وبالآية 17 من هذا الباب: «ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم وتزول الأوثان»... إلخ.

كما يتضح لمن يطالع الباب المذكور بحروفه: «4 فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين». يعني: يقضي بالانتقام من الظالم؛ إنصافًا للمظلوم لقوله بالأصحاح الأول: «آهٍ إني أنتقم من أعدائي»، وقوله: «وهلاك المذنبين والخطاة يكون سواء، وتاركو الرب يفنون»، «فيطبعون سيوفهم سككًا ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفًا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد»... إلخ. يعني: الجبابرة الموعود بهلاكهم وقت ذاك في صِهْيَوْن وأورشليم. «17 فينخفض تشامخ الإنسان وتُوضع رفعة الناس ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم 18 وتزول الأوثان بتمامها 19 ويدخلون في مغاير الصخور وحفائر التراب من أمام هيبة الرب»... إلخ. «20 في ذلك اليوم يطرح الإنسان أوثانه الفضية والذهبية 21 ليدخل في نقل الصخور إلى شقوق المعاقل من أمام هيبة الرب». انتهى الأصحاح الثاني.

وها هو الأصحاح الثالث: «هو ذا السيد رب الجنود ينزع من أورشليم ومن يهودا السند والركن». أي: القانون والشريعة. «2 الجبار ورجل الحرب، القاضي والنبي، والعراف والشيخ 3 رئيس الخمسين والمعتبر والمشير والماهر». إلى قوله: «12 يا شعبي مرشدوك مضلون ويبلعون طريق مسالكك 13 قد انتصب الرب للمخاصمة وهو قائم لدينونة». إلى قوله: «16 يقول الرب: من أجل أن بنات صِهْيَوْن». أي: وهذا الانتقام والغضب من أجل أن بنات صِهْيَوْن أيضًا «يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن»... إلخ. «17 يصلع الرب هامة بنات صِهْيَوْن، ويعرِّي الرب عورتهن 18 ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخل والضفائر». إلى قوله: «25 رجالك يقطعون بالسيف وأبطالك في الحرب»... إلخ. «فتمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم قائلات: نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا، ليدع اسمك فقط علينا، انزع عارنا»... إلخ.

فصريح هذه العبارة الواضحة وارتباط بعضها ببعض من الأصحاح الأول لآخر الأصحاح الثالث: هو عتابٌ ووعيدٌ لقوم صِهْيَوْن وأورشليم على كفرهم، وسوء أعمالهم، وفسق بناتهم، وتجاهرهم بالعصيان(١).

---

(١) ورد في العهد القديم عدة نبوءات عن نبي عظيم بل هو أعظم أنبياء الله تعالى، سوف يرسله الله تعالى رحمة للناس وهداية لهم. وذكرت التوراة في هذه النبوءات علامات تفصيلية لهذا النبي، وأعطته عدة ألقاب عظيمة؛ منها: ملكوت الله، وابن الإنسان، وابن الله، والنبي الأمي، وشيلون، والمسيا.

والمنصوص عليه في التوراة أن هذا النبي سوف يكون من نسل إسماعيل أي: من العرب. لكن اليهود أعداء الله الذين تجرءوا على الله وقتلوا أنبيائه ولعنهم داود وعيسى عليهما السلام حرفوا التوراة ولغوا في هذه النبوءات؛ فبعد سبي بابل سنة 586 ق.م. قصر اليهود في شريعتهم وحرفوها، واستبعدوا الأمم من الدخول في دينهم. واتفقوا على إعادة كتابة توراة موسى عليه السلام، فجعلوها خمسة أسفار، ورجعوا بها من بابل إلى فلسطين، ثم اختلفوا في عاصمة الدولة، وفي الهيكل المقدس، ولم يتفقوا. واتهم كل فريق الفريق الآخر بالتحريف في التوراة.

وعرفت نسختان من التوراة في العالم:

الأولى: عرفت باسم «التوراة العبرانية».

والثانية: عرفت باسم «التوراة السامرية» وهي غير مقدسة عند المسيحيين وعند العبرانيين.

ثم حاولوا تحريف النبوءات المتعلقة بالنبي العظيم الآتي على مثال موسى؛ فادعى العبرانيون أن النبي الآتي على مثال موسى سيكون من نسل داود عليه السلام؛ لأنه هو المؤسِّس لمملكتهم في البدء، وداود من سبط يهوذا. وادعى السامريون أنه سيكون من نسل أفرايم بن يوسف عليه السلام.

ولكن الحق الصريح الواضح من هذه النبوءات أن هذا النبي سيكون من نسل إسماعيل أي: من العرب، لا من نسل إسحاق أي: من اليهود.

فالتوراة تذكر أن الله تعالى طلب من موسى عليه السلام أن يجمع له بني إسرائيل نحو جبل طور سيناء، فجمعهم نحو الجبل، وأضطرم الجبل بالنار والدخان، فخاف بنو إسرائيل وارتعبوا، وقالوا لموسى: إذا أراد الله أن يكلمنا فليكلمنا عن طريقك، ونحن نسمع لك ونطيع. فرد الله على موسى بقوله: أحسنوا فيما قالوا، وسوف أقيم لهم نبيًّا من بعدك.

=

وإليك النص: «يقيم لك الرب إلهك نبيًّا، من وسطك، من إخوتك، مثلي، له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حُوريب يوم الاجتماع قائلًا: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا؛ لئلا أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا.

أقيم لهم: نبيًّا من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي.

وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يَحْدُث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه» [تثنية 18: 15-22].

أوصاف هذا النبي هي:

1- نبي «يقيم لك الرب إلهك نبيًّا».

2- من بني إسماعيل «من إخوتك» وهو يقصد بني إسماعيل؛ لأن الله قال لإبراهيم عليه السلام: «وأما إسماعيل، فقد سمعتُ لك فيه، ها أنا أباركه» [تكوين 17: 15].

3- مثل موسى «مثلي». وفي التوراة أنه لن يقوم في بني إسرائيل نبي مثل موسى؛ في الحروب والانتصار على الأعداء والملك على الأمم والشعوب، والمعجزات [تثنية 34: 10-12].

4- ينسخ شريعة موسى «له تسمعون».

5- يكون ملكًا «له تسمعون».

6- أمي لا يقرأ ولا يكتب «وأجعل كلامي في فمه».

7- أمين على الوحي الإلهي «فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

8- يقضي على ملك بني إسرائيل في الأرض «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» أي: أنتقم منه، وأبيده من الشعب [أعمال 3: 22-23].

9- يتحدث عن غيب يحدث في مستقبل الأيام ويحدث الغيب «وإن قلت في قلبك... ».

وبذلك يبطل ادعاء المسيحيين بأن نبي آخر الزمان هو عيسى عليه السلام؛ وذلك لأن عيسى عليه السلام لم ينسخ شريعة نبي الله موسى عليه السلام، بل قد أكد وبوضوح على أنه ما جاء لينسخ وينقض شريعة موسى، بل جاء مُتبعًا لها، ففي الإنجيل:

=

نبوءة إشعياء لا تنطبق على المسيح عيسى ﷺ

وما ذُكر بهذه الآيات من عدم وقوع الحوادث والأحوال الواضحة بها في زمن ظهور السيد المسيح ﷺ؛ يعارض(١) نسبتها للإخبار عنه بجملة وجوه:

- «لا تظنوا أني جئتُ لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئتُ لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد ولا نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس، هكذا يدعي أصغر في ملكوت السماوات» [متى 5: 17-19]. وكلمة «لأكمل» هنا ترجمت في الأناجيل الإنجليزية إلى كلمة «fulfill» أي: ليحقق أو يبلور إلى الواقع العملي، وهي أصح وأوضح من «أكمل»؛ لما جاء في تكملة نفس الأصحاح من أنه ﷺ قال: إن الناموس كامل. فكيف يكمل ما هو كامل أساسًا؟ وبعبارة أخرى: إن ما جاء به الأنبياء الماضون من أحكام وشرائع لم يأتِ عيسى ﷺ ليغيره، بل جاء ليثبته ويحوله إلى حكم عملي معمول به.

- وفي الإنجيل أيضًا: «حينئذٍ خاطب الجموع وتلاميذه قائلًا: على كرسي موسى جلس الكتبة والفِرِّيسيُّون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه، فاحفظوه وافعلوه» [متى 23: 1-3].

فهذان نصان صريحان في لزوم عمل المسيحين بالتوراة. فعيسى ﷺ نبي يهودي من أنبياء اليهود، ولم يأتِ بدين جديد أو شريعة جديدة.

والمسيحيون يدعون أن المسيح جاء ونسخ شريعة موسى؛ ليثبتوا أنه المسيح الرئيس الذي بشرت به التوراة. ونقول لهم: هل قال عيسى بلسانه أثناء وجوده بين تلاميذه ما تقولونه، أما أنه قال كلامًا يضاد كلامكم مائة في المائة؟!

لذلك تجد الله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [البقرة/ 146-148].

فعندما نتأمل قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ -والضمير راجع إلى نبي الله محمد ﷺ- فإننا نرى أنهم يعرفونه معرفة دقيقة جدًا تمامًا كما يعرف الوالد ولده، ويعرف مثلاً أن تحت إبطه جرحًا أو في فخذه علامة، فالأب يعرف كافة التفاصيل عن ولده مما لا يعرفه غيره عن ابنه.

(١) ما ذكره المؤلف من النصوص قد ذكره؛ لأن النص كله معروف للمسيحيين. ولو أنه قد ذكره كله، ثم =

انتقى منه الذي ذكره ووضعه في شرح النص بنفس الكلام الذي ذكره لكان مفيدًا للقراء من جميع الملل والنحل.

وكل ما ذكره المؤلف يهدف منه إلى أمرين:

الأمر الأول: أن الشريعة الجديدة لن تخرج من صِهْيَوْن وأورشليم.

والأمر الآخر: هو أن النبوءات التي هي في النص لا تنطبق على عيسى عليه السلام ولا على زمان دعوته.

والأمران صحيحان، والنص كله ينطبق على محمد رسول الله ﷺ وبيان ذلك:

أن الشريعة الجديدة ستخرج من جبال فاران بمكة المكرمة. وبنو إسماعيل هم سكان فاران. وفي كلام حَبَقُّوق النبي وصف لمعارك حربية سيشنها النبي الذي سيخرج من فاران ضد اليهود. وهذا الوصف هو نفسه الذي وصف به إِشَعْيَاء حالة اليهود في أيام خراب ديارهم على يد النبي المنتظر، وهو نفسه الوصف الذي وصف به موسى حالة اليهود حينما يتوجه إليهم النبي ومعه «نار شريعة لهم» [التثنية 33: 1-3].

وهذا هو نص سفر حَبَقُّوق:

«١ صَلاَةٌ لِحَبَقُّوقَ النَّبِيِّ عَلَى الشَّجَوِيَّةِ: ٢ يَا رَبُّ قَدْ سَمِعْتُ خَبَرَكَ فَجَزِعْتُ. يَا رَبُّ عَمَلَكَ فِي وَسَطِ السِّنِينَ أَحْيِهِ. فِي وَسَطِ السِّنِينَ عَرِّفْ. فِي الْغَضَبِ اذْكُرِ الرَّحْمَةَ. ٣ اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلاَهْ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. 4 وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ. 5 قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْحُمَّى. 6 وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ. نَظَرَ فَرَجَفَ الأُمَمُ وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ. مَسَالِكُ الأَزَلِ لَهُ. 7 رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلِيَّةٍ. رَجَفَتْ شُقَقُ أَرْضِ مِدْيَانَ. 8 هَلْ عَلَى الأَنْهَارِ حَمِيَ يَا رَبُّ هَلْ عَلَى الأَنْهَارِ غَضَبُكَ أَوْ عَلَى الْبَحْرِ سَخَطُكَ حَتَّى أَنَّكَ رَكِبْتَ خَيْلَكَ مَرْكَبَاتِكَ مَرْكَبَاتِ الْخَلاَصِ؟ 9 عُرِّيَتْ قَوْسُكَ تَعْرِيَةً. سُبَاعِيَّاتُ سِهَامِ كَلِمَتِكَ. سِلاَهْ. شَقَّقْتَ الأَرْضَ أَنْهَاراً. 10 أَبْصَرَتْكَ فَفَزِعَتِ الْجِبَالُ. سَيْلُ الْمِيَاهِ طَمَا. أَعْطَتِ اللُّجَّةُ صَوْتَهَا. رَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى الْعَلاَءِ. 11 اَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سِهَامِكَ الطَّائِرَةِ لِلَمَعَانِ بَرْقِ مَجْدِكَ. 12 بِغَضَبٍ خَطَرْتَ فِي الأَرْضِ بِسَخَطٍ دُسْتَ الأُمَمَ. 13 خَرَجْتَ لِخَلاَصِ شَعْبِكَ لِخَلاَصِ مَسِيحِكَ. سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّياً الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. سِلاَهْ. 14 ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. عَصَفُوا لِتَشْتِيتِي. ابْتِهَاجُهُمْ كَمَا لأَكْلِ الْمِسْكِينِ فِي الْخُفْيَةِ. 15 سَلَكْتَ الْبَحْرَ بِخَيْلِكَ كُوَمَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ. ١٦ سَمِعْتُ فَارْتَعَدَتْ أَحْشَائِي. مِنَ الصَّوْتِ رَجَفَتْ شَفَتَايَ. دَخَلَ النَّخْرُ فِي عِظَامِي وَارْتَعَدْتُ فِي مَكَانِي لأَسْتَرِيحَ فِي يَوْمِ الضِّيقِ عِنْدَ صُعُودِ الشَّعْبِ الَّذِي يَزْحَمُنَا. 17 فَمَعَ أَنَّهُ لاَ يُزْهِرُ التِّينُ وَلاَ يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرُومِ يَكْذِبُ عَمَلُ الزَّيْتُونَةِ وَالْحُقُولُ لاَ تَصْنَعُ طَعَاماً. يَنْقَطِعُ الْغَنَمُ مِنَ الْحَظِيرَةِ وَلاَ بَقَرَ فِي الْمَذَاوِدِ 18فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ وَأَفْرَحُ

=

أولها: أنه لم يوجد بالكتب الصحيحة ولا بأخبار الأنبياء والمرسلين أن المسيح يُعرف أو يكنَّى بـ«جبل بيت الرب»، ولا أن شريعته تعرف بـ«شريعة صِهْيَوْن أو أورشليم» مع ما قيل إنه ناصري نسبة لبلدة الناصرة، ولا قال أحد بأن أيام بعثته وظهور شريعته تسمى بـ«آخر الأيام».

الثاني: أنه لم يحصل طبع السيوف سككًا والرماح مناجلَ في عهد ظهوره، بل بحسب ما قيل: إنها كانت موجودة لآخر أيامه، وإنه طُعن في جنبه الشريف بواحدٍ منها، وذلك يعارض إطلاق هذه العبارة على زمن ظهوره.

الثالث: إنه لم تنقطع الحروب بين الأمم بعد ظهور شريعته عليه السلام حتى يتمَّ مصداقُ قوله: «لا ترفع أمة على أمة سيفًا ولا يتعلمون الحرب فيها بعد». وإذ لا مشاحة في أن هذه العبارة لا تعلق لها بالإخبار عن زمن ظهور شريعته، ولا يتصور انطباق مصداقها إلا إذا وجهتَ المعنى على هلاك وفناء القوم الذين كانوا موجودين

بِإِلَهِ خَلاَصِي. 19 اَلرَّبُّ السَّيِّدُ قُوَّتِي وَيَجْعَلُ قَدَمَيَّ كَالأَيَائِلِ وَيُمَشِّينِي عَلَى مُرْتَفَعَاتِي. لِرَئِيسِ الْمُغَنِّينَ عَلَى آلاَتِي ذَوَاتِ الأَوْتَارِ» [حَبَقُّوق 3: 1+].

والنص الذي ذكره إِشَعْيَاء وقال بمثل قوله حَبَقُّوق وموسى: هو عن معارك يوم الرب، وهو الأيام الأولى لظهور محمد ﷺ، وهي نفسها الأيام الأخيرة لملك بني إسرائيل وشريعتهم. وفي هذه الأيام ينتصر المسلمون على اليهود في فلسطين، وينزعون منهم أراضيهم في جميع الأمم. وعبر إِشَعْيَاء عن ذلك بقوله: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب»... إلخ. وقال: «فإن لرب الجنود يومًا»... إلخ. وهو «يوم الرب» ولقب محمدًا بـ«غصن الرب» فقال: «في ذلك اليوم يكون غصن الرب بهاءً ومجدًا»... إلخ. وقال عن أصحاب النبي ﷺ: «فيرفع راية للأمم من بعيد»... إلخ. وقال عن انتصارهم: «يهرّون عليهم في ذلك اليوم كهدير البحر». أي: في يوم الرب.

ولما كان المسيح ابن مريم عليه السلام من بني إسرائيل، وقد رفضهم الله من السير أمامه، ولم يحارب ولم ينتصر؛ فإنه لا يكون هو النبي المنتظر، ويكون هو محمد رسول الله ﷺ؛ لأن لإسماعيل بركة، ولأنه هو الابن الوحيد لإبراهيم.

حال التنبؤ عنهم في صِهْيَوْن وأورشليم[١]؛ إذ بحصول فنائهم وانقراض أممهم لا يكون منهم من يرفع السيف ويتعلم الحرب بعد. وجائز أن أعداءهم الغرباء الموعودين باغتنام بلادهم يُتلفون آلات حروبهم من سيوف ورماح؛ وبذلك يتم مصداق العبارة القاضية بطبع السيوف والرماح وانقطاع الحروب.

الرابع: أن اليهود لم يُصْغُوا لتعاليمه عليه السلام، ولم تأتِ الأناجيل بما يُستدل به على أنهم كانوا يرفعون خصوماتهم إليه للقضاء بينهم والاقتصاص من الظالم إنصافًا للمظلوم منهم؛ حتى يتم مصداق قوله: «فيقضي بين الأمم وينصف لكثيرين». بل الذي ثبت بالأناجيل نفورُهم منه والخوضُ في أعماله ونسبتها لرئيس الشياطين، حتى أن التلاميذ كانوا أحيانًا يرتابون فيه ولم يفهموا أقواله[٢].

---

(١) المؤلف يقول: إن نبوءة إِشَعْيَاء تَمَّتْ في زمان إِشَعْيَاء.

(٢) يرى اليهود أن عيسى ابن مريم إنسان طبيعي؛ ويرون أنه لم يكن رسولاً نبيًّا بل هو في نظرهم دجال كذاب خارج عن الشريعة الموسوية يستحق القتل. أضف إلى ذلك افتراءهم العظيم على السيدة مريم ورميها بالزنى مع يوسف النجار خطيبها وأنها أنجبت منه عيسى. وهذا منهم افتراء محض وكذب شنيع، وذلك بعد أن تكلم أمامهم عيسى ابن مريم في المهد وأخبرهم ببراءة أمه. فبعد أن رأوا هذه الآية والمعجزة، راحوا ورموا أمه بهذه التهمة. والغريب من المسيحيين أنهم في كتبهم يعملون نسبًا لعيسى عليه السلام من جهة الأب وينسبونه إلى يوسف النجار، وكأنهم يؤكدون افتراء اليهود.

ويعلق الحبر اليهودي ابن كمونة على عقائد المسيحيين فيقول:

«إن الله أكرم من أن يقال: إنه سكن الرحم في دنس الحيضة وضيق البطن والظلمة، أو نظرت إليه العيون الجسمانية، أو أصابه سنة أو نوم، أو أحدث في ثيابه وبال في فراشه، أو بكى أو ضحك، أو أخذه على ما لم يرد عجز، أو سها أو لحقه خوف أو فزع، أو رغب إلى ما في أيدي الناس، أو سجن أو هرب، أو يقال: إنه أكل وشرب، أو تشبه بأهل الأرض، أو إنه لم يستطع أن يقضيَ أمره وهو في ملكه، حتى نزل على الأرض ليهديهم وينجيهم من الشيطان، وإنه جاء ليهدي الناس من الضلالة ويطهرهم من الخطايا، فعبثت به اليهود وعذبوه وصلبوه وأهانوه، ولبث ثلاثة أيام في القبر.

=

ثم أي خطيئة كانت قبل المسيح أو بعده أعظم من الخطيئة التي كانت في زمانه عندكم. ونجد الشيطان لم يزل من جاء المسيح كما قد كان قبل مجيئه في الأذى والإضلال، فإنه فرق دينكم على مذاهب شتى؛ فشهد بعضكم على بعض بالضلالة، وقد قتل الحواريون في عدة بلاد، وأهانوهم وعذبوهم. ولم يزل الظلم والعدوان والقتل والكفر ساريًا في المسيحيين وغيرهم من الأمم إلى هذه الغاية.

ويقال لهم: إن اتُّخِذَ المسيح إلَهًا لكونه -على رأيكم- من غير والد، فآدم وحواء أعجب منه في ذلك. وكذا أصل كل دابة خلقها الله تعالى.

وإن اتخذ إلَهًا من أجل رفعه إلى السماء، فقد رفع قبله إيليا النبي بعدما ظهرت على يده المعجزات الكثيرة، ولم يصبه في بشريته سوء. فلو جازت عبادة البشر، لكان أحق بذلك من الذي حبس وأهين وعذب وصلب. والملائكة أيضًا ما زالوا مرفوعين إلى أن يؤمروا بالنزول.

وإن كان ذلك لأنه سُمي في الإنجيل: ابن الله. فأنتم تُقِرون أن إسرائيل سماه الله: ابني بكري، وقد سمي السيد المسيح الحواريين «إخوته». وفي الإنجيل أيضًا: «أحبوا من أحبكم»...إلى قوله: «تكنون مثل أبي وأبيكم الذي في السماء». وفيه: «إن أنتم كافأتم السيئات بالسيئات فلا أجر لكم عند أبيكم». وفيه: «إن أنتم غفرتم لبني البشر سيئاتهم، فإن أباكم الذي في السماء يغفر لكم».

وإن ادعيت إلهيته من أجل معجزاته، فغيره من الأنبياء قد فعل ذلك.

وكيف شرب الإله الخمر أو أكل السمك والصحناة والصيد، أو تعب حتى كان عرقه يسيل على وجهه من الضعف.

وفي إنجيل متى أن جبريل جاء إلى مريم فبشرها بولد، ولم يقل لها: أبشري؛ سوف تلدين إلَهًا.

وكيف يجوز أن يكون إلَهًا تامًّا وهو لا يعلم إلا بعض الأشياء لا كلها، لا سيما وقد قلتم: إن أقنوم الابن هو الكلمة وهي العلم. ودليل عدم علمه ببعض الأمور الدال ذلك على عدم الاتحاد الذي تدعونه، ما جاء في إنجيل مرقص أنه لما أخبر بشيء من أهوال الساعة وأشراطها، قال: «إن ذلك اليوم وتلك الساعة لا يعلمها إنسان ولا ملائكة السماء ولا الابن، إلا الأب وحده».

وفي الإنجيل أنه رقد في السفينة ولم يعلم حتى أيقظه بعضهم. وداود النبي يقول: «هو ذا، لا ينام ولا يرقد حافظ إسرائيل». ويقول: «يا رب، من يُشْبِهُك، لا تنم يا عالِ».

وفي الإنجيل: «من كان في قلبه مثقال خردلة إيمانًا، يقول للجبال: اتبعيني فتتبعه». ونجد المؤمنين بالمسيح لا يقدر أحدهم على تسيير حجر لطيف ولا شيء غيره.

=

وقام إيشوع فغسل أرجل الحواريين بالماء وقال: «لم يجئ ابن البشر ليُخدم، ولكن جاء ليَخدِم». ولم يدع نفسه إلهًا تامًّا قط.

وأما الصليب فأظهرته هيلاني وقسطنطين بعد إيشوع بحدود ثلثمائة سنة، وليس هو في الإنجيل ولا في شيء من الكتب.

وقال لتلاميذه: «اجلسوا هاهنا حتى أصلي». وقال: «بلغت نفسي الموت، انتظروا هاهنا واستقروا قليلًا حتى أصلي». وقال في صلاته: «يا أبي، نجني إن أمكن، وتجوز عني هذه الساعة». وقال لشِمْعُون: «ألا تقدر تسهر معي ساعة واحدة؟ قم نذهب، فإنها قد بلغت الساعة». وكان قد قال قبل ذلك: «وهذا ابن البشر يسلم في أيدي الخاطئين ويستهزءون به ويبزقون في وجهه».

ومن قبل صام أربعين يومًا في الجبل ليمتحن من الشيطان، يصوم ويصلي ويرغب إلى الله ﷻ. ثم أصابه الجوع الشديد، كما قال في الإنجيل: «فلم يزل الشيطان في طلب إيشوع، فوجده في الجبل وقد تلف جوعًا وعطشًا. فقال له الشيطان: إن كنت ابن الله كما تقول فقل لهذا الحجر حتى يكون خبزًا تأكل. فقال إيشوع للشيطان: مكتوب في التوراة: ليس على الخبز وحده يحيا ابن البشر، لكن بكلام الله يحيا ابن البشر. فأخذ الشيطان إيشوع حتى أدخله بيت المقدس وأصعده رأس الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله كما تقول، فارم نفسك إلى أسفل ولا يصيبك شيء من السوء. فقال إيشوع للشيطان: مكتوب في التوراة: لا تجربوا الله إلهكم. وقال الشيطان لإيشوع: الدنيا وملكها وكل خير فيها فهو لي، اسجد لي وخر لي على وجهك. فقال إيشوع للشيطان: اذهب يا شيطان، مكتوب في التوراة: الله ربك خف وإياه اعبد وبه استعن وباسمه احلف».

فتُرى لمن كان يصلي ويصوم إذا كان إلهًا؟ وكيف تدعى إلهية من يتلاعب به الشيطان؟ وقد نسبه لوقا إلى آدم، ونسبه متى أيضًا بنسب مخالف لذلك في بعض الآباء، وقال في أول النسب: إنه إيشوع بن داود بن إبراهيم. وقال في آخره إن ماثان أولد يعقوب، ويعقوب أولد يوسف، زوج مريم التي ولد منها إيشوع المدعو بالمسيح. وأخبر متى أن يوسف لم يعرف مريم إلى أن ولدت ابنها البكر.

وكان في جملة تعذيبهم لإيشوع وشهرته لما أرادوا صلبه، أن غطوا رأسه ووجهه وجعلوا يضربون رأسه بالقصب ويقولون له: تنبأ لنا، أيها المسيح، من ضربك؟ وبعض عبيد عظيم الكهنة لطم وجهه وتفلوا فيه؛ والله تعالى يقول لموسى ﵇: «لا يراني أحد فيعيش». وقال بنو إسرائيل لموسى: «كلمنا أنت، نسمع ونطع، ولا يكلمنا الرب فنموت». فكيف يكون -والحالة هذه- من يلطم وجه إله!

=

وطاف اليهود بإيشوع يوم الجمعة إلى نصف النهار، وعلى عنقه خشبته التي صلب عليها. وجاء شِمْعُون القُوريني فحملها عنه بزعمكم، ثم ذهبوا به فصلبوه عليها وسقوه الخل وطعنوه بالحربة بعد موته. فقال إيشوع وهو عليها: «إلهي إلهي، لم تركتني». ولم يزل مصلوبًا حتى سأل فيه يوسف الذي من رامة يهوذا فوهب له جسده، فدفنه ميتًا. وهذا كله ينطق به الإنجيل.

وليس في الإنجيل ما يدل على أن إيشوع خاطبه الله إلا مرة واحدة، كما جاء في يوحنا أنه قال المسيح: «يأيها الأب، مَجِّدْ اسمك. فجاءه صوت من السماء يقول: مَجَّدْتُ وأيضًا أُمَجِّدُ». فكيف كلم عبد موسى رسوله فلم يستطع أحد أن ينظر إليه من النور، وفعل مع ولده ما ينافي ذلك وتركه للهوان بين أعدائه!

وقد جاء في كتب الأنبياء من علامات المسيح وما يكون في زمانه ما لم يظهر في إيشوع ولا في زمانه؛ مثل ما جاء في كلام بعضهم ما معناه: إنه يضرب الأرض بسوط فيه، وبريح شفتيه يميت الخاطئ، وإنه يجلس على منبر داود فيقضي بين الناس بعدل وحق، وإن الحرب ترتفع ولا يرفع أحد على أحد سيفًا، وإن الذئب والكبش يربضان معًا ويرعيان جميعًا، وإن الأسد يأكل التبن كالبقر. وهذا إن كان على ظاهره، فلم يجر ولم يقع في أيام إيشوع ولا بعده. وإن كان مثلاً وذلك هو الأظهر، فهو مثل لارتفاع الشرور من العالم وزوال العدوان من بين الخلق، ولم يجر في زمانه إلا خلاف ذلك من زيادة العداوة بين الناس بسبب ظهوره، وارتكابهم الذنوب العظيمة فيه وفي أصحابه.

وجاء أيضًا أنه في ذلك الوقت يتنبأ البنون والبنات من بني إسرائيل وأنه يبعث إليًا النبي فيرد قلوب الآباء على البنين وقلوب البنين على الآباء. وأمثال هذه الأشياء من علامات ظهوره في كلام الأنبياء كثيرة. وكله لم يظهر منه شيء إلى الآن. والقدر الذي أوردته منها إنما أوردته بمعناه، لا بألفاظه، ولا على ترتيبها في كتب النبوات[1].

وكثير من كلام النبوءات قد حَرَّفُه المسيحيون عندما نقلوه من العبرانية إلى اليونانية والسريانية ثم إلى العربية، تحريفًا يتفاوت فيه المعنى تفاوتًا كثيرًا، ولكن في ألفاظ قلائل فقط. والمسيحيون يعترفون بذلك التفاوت أو ببعضه، ويحتمل أن يكون ذلك التحريف عن قصد أو إهمال وقلة معرفة باللغة المنقول منها».

ينظر: تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة اليهودي «مع حواشي ابن المحرومة المسيحي عليه» ص 203-226.

أما عن «المسيح» عند اليهود، فهم لا يرون عيسى ابن مريم عليه السلام هو المسيح الذي بشرت به التوراة؛ لذلك فهم لا يزالون ينتظرون هذا المسيح المذكور في التوراة، لكنهم يقولون: إنه سيكون من نسل اليهود. ويرى =

الخامس: إنه لم يهرب أحد في حفائر ولا نقر في عهد ظهور السيد المسيح، ولا أخبرت الأناجيل بزوال الأوثان بتمامها عند بعثته، بل الذي ثبت هو هروب يوسف به إلى مصر من هيرودس، وأنه كان يتوارى من اليهود أحيانًا حتى وقت الصلب الذي يقولون به، ولم تنقطع عبادة الأوثان بل ترقت الصنائع في أعمال التماثيل والصور وصارت تحترم في أغلب المعابد.

السادس: أن الخراب والحريق المذكورين بالعبارة المذكورة واغتنام الغرباء لأرض صِهْيَوْن وأورشليم قد وقع في عهد التنبؤ عنهم كما لا يخفى ذلك على من تأمل في الأسفار العتيقة والتواريخ الصحيحة، ولم يثبت حصول شيء من ذلك في زمن المسيح عليه السلام، وكذا لم تأتِ الأناجيل بحصول شيء مما ذُكر بالآيات المذكورة عن بنات صِهْيَوْن في زمن ظهور شريعته عليه السلام من نزع زينتهم وعري عورتهم واجتماع كل سبعة نسوة منهن على رجل واحد.

فظهر بذلك أنه لا علاقة للأحوال المذكورة في الأصحاحات الثلاثة بخبر ظهور شريعة السيد المسيح عليه السلام، وأن لفظة «تخرج» هي على ظاهر حقيقتها، يعني: تُنزع كما صرح به في الأصحاح الثالث بقوله: «ينزع من أورشليم ومن يهودا السند والركن». وما السند والركن إلا قانون أو شريعة الأحكام القائمة فيهم وقت ذلك.

وعلى أي الحالات فإن بعثة المسيح عليه السلام ورسالته بشريعة وأحكام الإنجيل الشريف الوارد ذكره بالقرآن المجيد لا ينكرها إلا كافر أو عنيد. وعندنا لا يكون العبد مسلمًا ومؤمنًا إلا إذا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

اليهود في المسيح المنتظر ملكًا عظيمًا سيأتي ليجعل لهم السلطان على الأرض، ويجعل كلمتهم هي العليا، وجنسهم هو الجنس الأعظم بين أجناس البشر.

فعلى ذلك إذا كانت لفظة «من صِهْيَوْن تخرج الشريعة» هي بحسب من أوَّله من المسيحيين عن ظهور شريعة المسيح، فما هذا إلا إقرار بنبوته وحدوث بعثته وظهور شريعته للأمم المبعوث إليهم، كما بُعثت الأنبياء السابقة قبله -عليه وعليهم السلام- ، وذلك لا خلاف فيه.

والخلاف الواقع بين أهل الإسلام وطوائف المسيحية هو فيما ينسبونه إليه من الأقنومية واللاهوتية، ولنترك النظر فيما أوضحناه من الوجوه المعارضة للمعنى التي وجهت إليه عبارات الأصحاحات المذكورة لتأمل ونقد أولي الذكاء الذين لا يخشون لومًا في الانتصار للحق.

الأدلة من الأناجيل على ألوهية المسيح

ونرجع للبحث في الألفاظ المقامة دليلًا على ألوهية المسيح، وقول حضرتكم: إن الأنبياء العظام تنبئوا عن بيعه بالثلاثين فضة وتسليمه للصلب وقسمه الثياب ونحوها.

فإن من اطلع على اضطراب أقوال علماء الطوائف المسيحية في مثل هذه الألفاظ، علم له عدم الوثوق بصحتها، فقد قال المحقق هورن المشهور في الصحيفة 385، 386 من المجلد الثاني من تفسيره المطبوع سنة 1822 عن قول متى الحواري: «وحينئذٍ كمل قول النبي إرمياء حيث قال: فقبضوا الدراهم الثلاثين من الثمن».

هكذا وفي هذا النقل إشكال جدًّا؛ لأنه لا يوجد في كتاب إرمياء مثلُ هذه الألفاظ. ويوجد في الآية 13 من الباب 11 من كتاب زكريا ما يشابه ذلك، لكن لا تطابق ألفاظ متى ألفاظه». انتهى. وقال بعضهم: «إنه وقع الغلط في نسخة متى وكتب الكاتب إرمياء موضع زكريا أو أن هذا اللفظ إلحاقي». انتهى.

وقال هورن في المجلد الثاني من تفسيره بالصحيفة 330، 311 عن عبارة «واقتسمو ألباسي واقترعوا على قميصي»: «إنها إلحاقية واجبة الحذف، وحذفها «كرسباخ» المفسر بعدما ثبت عنده كذبُها مثلها». انتهى. وقال مثله كلارك وغيره من المدققين.

ولعل هذا البحث من العلماء المسيحية كاف عن التطويل بشرح جميع أقوالهم(١).

العذراء - عَلْمَه

ثم عما ذكرتموه حضرتكم من الاستدلال بأصحاح 9 لإِشَعْيَاء النبي قوله: «لأن صَبِيًّا ولد لنا وابنا أُعطينا وصارت رئاسته على منكبيه ويدعى اسمه عجيبا»... إلخ.

من تأمل في سياق هذه العبارة المرتبطة ببعضها من أول الأصحاح 7 لآخر الأصحاح 9 المذكور،ظهر له جليًّا أن المعنى غير ما وُجهت إليه، وأن النبوءة المذكورة هي كانت من آحاز الملك عن مولود يولد لإِشَعْيَاء النبي، وأن كلام إِشَعْيَاء

---

(١) أكد القرآن الكريم على كون عيسى ابن مريم عبدًا لله ورسوله إلى الناس في آيات عديدة من القرآن الكريم؛ منها:

- ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء/ 172].

- ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة/ 17].

- ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف/ 6].

إذن فالله ﷻ إله عظيم لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ومريم إنسانة صالحة عابدة لله تعالى، وعيسى ابن مريم ابنها عبد ورسول، وكلاهما بشر لا غير.

النبي في هذا المعنى هو عن المولود المذكور كما هو مصرح به فصيحا بقوله في الآية 10 من الأصحاح 7: «ثم عاد الرب فكلم آحاز قائلًا 11: اطلب لنفسك آية»... إلخ «12 فقال آحاز: لا أطلب ولا أجرب الرب». إلى قوله: «14 ولكن يعطيكم السيد نفسه آية». يعني: يأتي الله بالآية من قبل نفسه بلا طلب؛ لامتناع آحاز عن الطلب لا الله نفسه يكون آية كما أوَّل المؤولون؛ لما في ذلك من نسبة العجز إليه تعالى واستحالته. «ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عِمَّانُوئِيل، زبدا وعسلا يأكل، متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير 16 لأن قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير تُخلى الأرض التي أنت خاشي من مليكها»... إلخ.

وبالأصحاح 8 قول إِشَعْيَاء النبي: «قال لي الرب: خذ لنفسك لوحًا كبيرًا واكتب عليه بقلم إنسان: لِمَهَيْرَ شَلاَلَ حَاشَ بَزَ. وأن أشهد لنفسي شاهدين أمينين أوريًا الكاهن وزكريا بن يَبْرَخْيَا 3 فاقتربتُ إلى النبية فحبلت وولدت ابنًا، فقال لي الرب: ادعُ اسمه لمهير شلال حاش بز؛ لأن قبل أن يعرف الصبي أن يدعو يا أبي يا أمي، تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قُدَّام ملك أَشُّور. ثم عاد الرب يكلمني أيضًا 6 لأن هذا الشعب رَذَلَ مياهَ شِيلُوهَ الجارية بسكون وسُرَّ برصين وابن رَمَلْيَا 7 لذلك هو ذا السيد يُصْعِد عليهم مياه النهر القوية والكثيرة ملك أَشُّور وكل مجده فيصعد فوق جميع مجاريه ويجري فوق جميع شطوطه 8 ويندفق إلى يهوذا يفيض ويعبر يبلغ العنق، ويكون بسط جناحيه ملء عرض بلادك يا عِمَّانُوئِيل»... إلخ.

فالصريح الظاهر لكل مطلع أن الصبي المولود الذاكر عنه بالأصحاح 9 هو القائل عن آحاز الملك بالأصحاح 7، وهو ذاته الذي حبلت به وولدته النبية القائل عنها إِشَعْيَاء النبي: «فاقتربت إلى النبية فحبلت وولدت». وهي زوجته المعبر عنها مرة بـ«العذراء» وأخرى بـ«النبية».

كما ثبت ذلك للعالم المحقق داكتر نيسن حيث قال في تفسيره: «إن إِشَعْيَاء النبي يريد بـ«العذراء»: زوجته الشابة، وهذا المولود هو الذي أمره الله بكتابة اسمه في اللوح وتسميته بالاسم العجيب».

ومع تقييد صفة هذا المولود المذكور بالأصحاحات الثلاثة بهذا الشرط: أنه قبل أن يميز الخير من الشر تخلي الأرض الخاشي آحاز من ملكيها. وثبوت حصول خلو الأرض المذكورة وحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة عند آحاز الملك قبل تمييز الصبي المذكور كما هو واضح تفصيلات ذلك بالباب 16 من سفر الملوك الثاني، فلا مسوِّغ لتعقل توجيه لفظ هذا «الصبي» على السيد المسيح؛ إذ لا يخفى على العارفين أن بين زمن آحاز الملك الذي وقع فيه مصداقُ هذه العبارات وبين ولادة المسيح سبعمائة وواحد وعشرون سنة، كما أثبت جميع ذلك الحبر العلامة صاحب «إظهار الحق»، وأن علماء ومفسري طوائف المسيحيين ترجموا لفظة «العذراء» في كلام إِشَعْيَاء النبي بالمرأة الشابة في التراجم اليونانية الثلاثة، أعني ترجمة أيكوبلا وترجمة تهيودشن وترجمة سيمكس.

وقال العالم فري في كتابه الذي صنفه في بيان اللغات العبرانية أن لفظ «عذراء» يطلق على المرأة الشابة البكر أيضًا، وعلماء اليهود -الذين هم أدرى باللغة العبرانية المذكورة- يقولون: إنها تطلق على كل شابة، سواء كانت بكرًا أو غير بكر. وذلك مطابق لما يفيده قول إِشَعْيَاء النبي في غير موضع بأن لفظة «العذراء» لا تتقيد بالإطلاق على أم المسيح عليه وعليها السلام فقط، بل تطلق على غيرها وكل شابة، ومن ذلك قوله في الباب 49: «احبلي على التراب أيتها العذراء ابنة بابل»، وقوله بالباب 62: «كما يتزوج الشاب عذراء». يعني: شأنه يتزوجك بنوك».

ثم وظاهر أن لفظة «عِمَّانُوئِيل» هي خاصة باسم ذلك المولود العجيب؛ لارتباطه به بالباب المذكور ومخاطبة إِشَعْيَاء بالإشارة إليه في الآية 8 باب 9 بقوله: «ملء عرض بلادك يا عِمَّانُوئِيل»؛ لأنه لا معنى لتوجيه لفظة واحدة كهذه على السيد المسيح دون باقي القصة الطويلة التي غاية ما فيها هو إخبار عن تغلب ملك أَشُّور بقوة جنوده على رصين وفَقْحَ بن رَمَلْيَا اللَّذَيْن كانا مضايقين آحاز الملك معبرًا عن قوة الجنود وانتشارهم بالنهر والفيضان ونحوه، كما هو واضح لكل مطلع يقصد الحق.

وبذلك ظهر أن اسم «عِمَّانُوئِيل» في هذه القصة لا يقبل التوجيه على المسيح؛ إذ لم يكن له بلاد يضرب المثل بعرضها حتى ينطبق عليه مصداق قوله: «ملء عرض بلادك يا عِمَّانُوئِيل». خصوصًا وأنه ما سمَّى أحدٌ المسيحَ عليه السلام بعِمَّانُوئِيل، لا أمه ولا يوسف النجار اللَّذَيْن ربياه ولا غيرهما، بل سمياه يسوع. كما أن الملك الذي ظهر ليوسف في الحلم قال: «وتدعو اسمه يسوع». وكذا قول جبرائيل لأمه: «ستحبلين وتلدين ابنا وتسميه يسوع». كما بإنجيل متى وإنجيل لوقا، ولم يدَّعِ المسيحُ عليه السلام في حينٍ من الأحيان أن اسمه عِمَّانُوئِيل.

وبالجملة فإن القصة الواقع فيها هذا القول تأبى أن يكون مصداقها مولد السيد المسيح؛ لأن تفصيلاتها الواضحة بالباب 16 من سفر الملوك الثاني ناطقةٌ بأنه جاء رصين ملك آرام وفَقْحُ ملك إسرائيل إلى أورشليم لمحاربة آحاز ملك يهودا، فخاف خوفًا شديدًا منهما، فأوحى الله إلى إِشَعْيَاء أن قل لآحاز: لا تخف فإنهما لا يقدران عليك وستزول سلطنتهما. وبَيَّنَ علامة خراب ملكهما بأن امرأة شابة تحبل وتلد الابن الذي سماه، وقبل أن يميز هذا الابن الخير من الشر تخرب هاتان المملكتان. وقد حصل ذلك في حينه كما توضح آنفًا، فمن شاء فليطالع سفر الملوك؛ لتثبت له الحقيقة.

ثم إن الآيات التي أوضحتموها حضرتكم من الأصحاح 35 لإِشَعْيَاء النبي بهذه الألفاظ: «ها إلهكم يأتي بانتقام الجزاء، والله ذاته هو يأتي ويخلصكم»... إلخ.

بالضرورة أن حضرتكم نقلتم ذلك بحروفه من الكتاب المقدس بالضبط كما هو موثوق به من مثل حضرتكم من أنه يحافظ إلى الغاية على ضبط الآيات المقدسة كما هي بحروفها بغير زيادة ولا نقصان. وبمضاهاة هذه الألفاظ على الوارد بكتاب التوراة والإنجيل الموجودين عندنا من النسخة المطبوعة ببيروت سنة 1881 طبعة ثالثة، وجد الوارد به هكذا: «هو ذا إلهكم الانتقام يأتي جزاء الله، يأتي ويخلصكم».

وباطلاع حضرتكم على صور نسخة الكتاب المذكور الموجود كثير منها بالكتبخانه الأمريكانية بالأقصر، ومضاهاة هذه الألفاظ على الوارد بالكتاب الذي نقلتم منه جنابكم، ومعرفة الزمن القليل الذي بين الطبعتين؛ يظهر لكم عدم انقطاع عادة التحريف لهذا الحين، ولا يعزب عن معارف حضرتكم الفرق الكبير الذي يحصل بزيادة حرف الواو على لفظة «الله» وزيادة لفظة «ذاته» وتحويل المعنى تحويلًا بليغًا.

ومع ذلك فإن عبارة هذا الأصحاح ظاهر من معناها الصريح لمن يتأمل ويتروى أنها تشير إلى بشارة شعب أورشليم بالنجاة والخلاص من يد سَنْحَارِيبَ ملك أَشُّور بعد يأس حَزَقِيَّا ملك أورشليم ومضايقته الشديدة، كما وضح ذلك بأصحاح 36، 37 بغاية التنوير.

وبالمثل فإن قوله بالأصحاح 40: «على جبل عال اصعدي يامبشرة صِهْيَوْن، ارفع صوتك بقوة يا مبشر أورشليم». ظاهر جليًّا أنه ترنم وابتهاج من باب التحدث بالنعمة التي شملتهم من الله تعالى بنجاتهم وهلاك قوم سَنْحَارِيبَ وموته بضربة الملك بعد محاصرتهم وإشرافهم على السقوط، كما هو واضح تفصيلات ذلك بالباب

19 من سفر الملوك الثاني الشاهد بأن هذه العبارة مرتبطة بسياق القصة المذكورة، وبعيدة جدًّا عن حمل بعض ألفاظها على السيد المسيح.

الإفسادة الأولى لبني إسرائيل في الأرض

ثم لا يخفى على كل خبير مطلع أن أقوال العلماء المحققين من المسيحيين واليهود مضطربة كثيرًا في معنى أقوال رؤيا دانيال النبي بالأصحاح 8 الذي يستدل بها عامة المسيحيين أنها نبوءة عن المسيح(١).

---

(١) نص الأصحاح الثامن من سفر دانيال النبي اعتبره المؤلف من أخطاء التوراة، والحق أنه ليس من أخطاء التوراة؛ وذلك لأن مدة الألفين والثلاثمائة سنة إذا طرحنا منها ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين سنة؛ يكون الباقي ألف وتسعمائة وسبعة وستون سنة. وقد وقعت في هذه السنة حادثة هزيمة اليهود للمسلمين في فلسطين. وفي القرآن الكريم يخبر ﷺ أن اليهود سيعلون وسيفسدون في أرض فلسطين مرتان من بعد نزول القرآن. وخبر المرتين مذكور في سفر دانيال: الأصحاح الثامن فيه المرة الأولى، والأصحاح الثاني عشر فيه المرة الآخرة.

وفي المرة الأولى تقول التوراة: إن دانيال سأل جبريل عليه السلام في الرؤيا عن تمام الهزيمة. وأجابه: أنها تتم بعد 2300 سنة. وقد كان البدء في الرؤيا سنة 333 سنة دخول الإسكندر الأكبر فلسطين فاتحًا، فيكون الباقي 1967م. هذا عن المرة الأولى. والنص هو:

«١ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ مُلْكِ بَيْلْشَاصَّرَ الْمَلِكِ ظَهَرَتْ لِي أَنَا دَانِيآلَ رُؤْيَا بَعْدَ الَّتِي ظَهَرَتْ لِي فِي الابْتِدَاءِ. 2 فَرَأَيْتُ فِي الرُّؤْيَا وَكَانَ فِي رُؤْيَايَ وَأَنَا فِي شُوشَنَ الْقَصْرِ الَّذِي فِي وِلاَيَةِ عِيلاَمَ وَرَأَيْتُ فِي الرُّؤْيَا وَأَنَا عِنْدَ نَهْرِ أُولاَيَ. 3 فَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ وَرَأَيْتُ وَإِذَا بِكَبْشٍ وَاقِفٍ عِنْدَ النَّهْرِ وَلَهُ قَرْنَانِ وَالْقَرْنَانِ عَالِيَانِ وَالْوَاحِدُ أَعْلَى مِنَ الآخَرِ وَالأَعْلَى طَالِعٌ أَخِيراً. 4 رَأَيْتُ الْكَبْشَ يَنْطَحُ غَرْباً وَشِمَالاً وَجَنُوباً فَلَمْ يَقِفْ حَيَوَانٌ قُدَّامَهُ وَلاَ مُنْقِذٌ مِنْ يَدِهِ وَفَعَلَ كَمَرْضَاتِهِ وَعَظُمَ. 5 وَبَيْنَمَا كُنْتُ مُتَأَمِّلاً إِذَا بِتَيْسٍ مِنَ الْمَعْزِ جَاءَ مِنَ الْمَغْرِبِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ وَلَمْ يَمَسَّ الأَرْضَ وَلِلتَّيْسِ قَرْنٌ مُعْتَبَرٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ. 6 وَجَاءَ إِلَى الْكَبْشِ صَاحِبِ الْقَرْنَيْنِ الَّذِي رَأَيْتُهُ وَاقِفاً عِنْدَ النَّهْرِ وَرَكَضَ إِلَيْهِ بِشِدَّةِ قُوَّتِهِ. 7 وَرَأَيْتُهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى جَانِبِ الْكَبْشِ فَاسْتَشَاطَ عَلَيْهِ وَضَرَبَ الْكَبْشَ وَكَسَرَ قَرْنَيْهِ فَلَمْ تَكُنْ لِلْكَبْشِ قُوَّةٌ عَلَى الْوُقُوفِ أَمَامَهُ وَطَرَحَهُ عَلَى الأَرْضِ وَدَاسَهُ وَلَمْ يَكُنْ لِلْكَبْشِ مُنْقِذٌ مِنْ يَدِهِ. 8 فَتَعَظَّمَ تَيْسُ الْمَعْزِ جِدّاً. وَلَمَّا اعْتَزَّ انْكَسَرَ الْقَرْنُ الْعَظِيمُ وَطَلَعَ عِوَضاً عَنْهُ أَرْبَعَةُ قُرُونٍ مُعْتَبَرَةٍ نَحْوَ رِيَاحِ السَّمَاءِ

=

وما ذهب إليه جمهور مفسري البَيْبُل من أن مصداق ذلك هي حادثة أنتيوكس ملك ملوك الروم الذي تسلط على أورشليم قبل ميلاد المسيح بمائة وإحدى وستين سنة وقالوا: إن المراد بـ«الأيام»: الأيام المعتادة. ووافقهم يوسيفوس المؤرخ. وعارضهم فريق آخر مثل إسحاق نيوتن وطامس نيوتن بقولهم: «إن مصداقه سلاطين الروم».

الأَرْبَعِ. 9 وَمِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا خَرَجَ قَرْنٌ صَغِيرٌ وَعَظُمَ جِداً نَحْوَ الْجَنُوبِ وَنَحْوَ الشَّرْقِ وَنَحْوَ فَخْرِ الأَرَاضِي. 10 وَتَعَظَّمَ حَتَّى إِلَى جُنْدِ السَّمَاوَاتِ وَطَرَحَ بَعْضاً مِنَ الْجُنْدِ وَالنُّجُومِ إِلَى الأَرْضِ وَدَاسَهُمْ. 11 وَحَتَّى إِلَى رَئِيسِ الْجُنْدِ تَعَظَّمَ وَبِهِ أُبْطِلَتِ الْمُحْرَقَةُ الدَّائِمَةُ وَهُدِمَ مَسْكَنُ مَقْدِسِهِ. 12 وَجُعِلَ جُنْدٌ عَلَى الْمُحْرَقَةِ الدَّائِمَةِ بِالْمَعْصِيَةِ فَطَرَحَ الْحَقَّ عَلَى الأَرْضِ وَفَعَلَ وَنَجَحَ. 13 فَسَمِعْتُ قُدُّوساً وَاحِداً يَتَكَلَّمُ. فَقَالَ قُدُّوسٌ وَاحِدٌ لِفُلاَنٍ الْمُتَكَلِّمِ: إِلَى مَتَى الرُّؤْيَا مِنْ جِهَةِ الْمُحْرَقَةِ الدَّائِمَةِ وَمَعْصِيَةِ الْخَرَابِ لِبَذْلِ الْقُدْسِ وَالْجُنْدِ مَدُوسَيْنِ؟ 14 فَقَالَ لِي: إِلَى أَلْفَيْنِ وَثَلاَثِ مِئَةِ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ فَيَتَبَرَّأُ الْقُدْسُ» [دانيال 8: 1-14].

وأما النص عن المرة الآخرة فهو:

«5 فَنَظَرْتُ أَنَا دَانِيآلَ وَإِذَا بِاثْنَيْنِ آخَرَيْنِ قَدْ وَقَفَا وَاحِدٌ مِنْ هُنَا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ وَآخَرُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. 6 وَقَالَ لِلرَّجُلِ اللاَّبِسِ الْكَتَّانِ الَّذِي مِنْ فَوْقِ مِيَاهِ النَّهْرِ: إِلَى مَتَى انْتِهَاءُ الْعَجَائِبِ؟ 7 فَسَمِعْتُ الرَّجُلَ اللاَّبِسَ الْكَتَّانِ الَّذِي مِنْ فَوْقِ مِيَاهِ النَّهْرِ إِذْ رَفَعَ يُمْنَاهُ وَيُسْرَاهُ نَحْوَ السَّمَاوَاتِ وَحَلَفَ بِالْحَيِّ إِلَى الأَبَدِ: إِنَّهُ إِلَى زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفٍ. فَإِذَا تَمَّ تَفْرِيقُ أَيْدِي الشَّعْبِ الْمُقَدَّسِ تَتِمُّ كُلُّ هَذِهِ. 8 وَأَنَا سَمِعْتُ وَمَا فَهِمْتُ. فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي مَا هِيَ آخِرُ هَذِهِ؟ 9 فَقَالَ: اذْهَبْ يَا دَانِيآلُ لأَنَّ الْكَلِمَاتِ مَخْفِيَّةٌ وَمَخْتُومَةٌ إِلَى وَقْتِ النِّهَايَةِ. 10 كَثِيرُونَ يَتَطَهَّرُونَ وَيُبَيَّضُونَ وَيُمَحَّصُونَ أَمَّا الأَشْرَارُ فَيَفْعَلُونَ شَرّاً. وَلاَ يَفْهَمُ أَحَدُ الأَشْرَارِ لَكِنِ الْفَاهِمُونَ يَفْهَمُونَ. 11 وَمِنْ وَقْتِ إِزَالَةِ الْمُحْرَقَةِ الدَّائِمَةِ وَإِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرِّبِ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَتِسْعُونَ يَوْماً. 12 طُوبَى لِمَنْ يَنْتَظِرُ وَيَبْلُغُ إِلَى الأَلْفِ وَالثَّلاَثِ مِئَةِ وَالْخَمْسَةِ وَالثَّلاَثِينَ يَوْماً. 13 أَمَّا أَنْتَ فَاذْهَبْ إِلَى النِّهَايَةِ فَتَسْتَرِيحَ وَتَقُومَ لِقُرْعَتِكَ فِي نِهَايَةِ الأَيَّامِ» [دانيال 12: 5-13].

وقال وسنل جانسي أحد المفسرين في كتابه المطبوع سنة **1838** هكذا: «تعيين زمان مبدأ هذا الخبر في غاية الإشكال عند العلماء من قديم الأيام، وصمم الأكثر أن مبدأه واحد من الأزمنة الأربعة التي صدر فيها أربع فرامانات من سلاطين إيران.

الأول: قال القسيس يوسف ولف: «مبدأ هذا الخبر من زمان وفاة دانيال النبي والمراد بـ«الأيام»: السنين. وقد كانت وفاة دانيال قبل ميلاد المسيح ﷺ بأربعمائة وثلاثة وخمسين سنة، وإذا طرحت هذه المدة من الألفين وثلاثمائة يكون الباقي ألفين وثمانمائة وسبعة وأربعين سنة، وعلى ذلك يكون ظهور المسيح في سنة **1847** من الميلاد. وهذا ظاهر بطلانه.

وقال دوالي ورجردميات في تفسيره هكذا: «إن تعيين مبدأ هذا الخبر ومنتهاه قبل أن يكمل مشكل، فإذا كمل يظهره الواقع». انتهى.

ولعمري، إن هذا الاضطراب والحيرة وعدم إمكان مرسى العلماء والمحققين في معرفة مبدأ ومنتهى هذا الخبر كافٍ في عدم الوثوق بما تأوّله غير العلماء في هذا الشأن، ومع ذلك فإن غاية ما يقصد بالتأويل في هذه العبارة: هو رمز الاستدلال على مولد السيد المسيح وظهور شريعته، ولم يكن في ذلك تصريح بما ينسب إليه من الألوهية والأقنومية. فمولده وبعثته قد شهد بهما القرآن المجيد، ولا يجحدهما إلا القوم الظالمون.

أما عن قول حضرتكم بأن من تأمل في ولادة المسيح بغير طبيعة بشرية، مع وجود الرجال والنساء وقتها يقر حالًا بألوهيته. يعني: لولادته بلا أب بخلاف غيره من سائر البشر.

فنقول: إن نشأة آدم ﷺ من قبل أن يكون والد ولا مولود ولا أب ولا أم هي أعجب من تولد المسيح من أم بلا أب ونشأة السيدة حواء عليها السلام من بعض أجزاء آدم

مع عدم استعداد الرجال في تركيب الخلقة للإتيان بالمواليد كاستعداد النساء التي منهن السيدة مريم، فذلك أعجب وأعجب، وحدوث جميع الكائنات من العدم عجب عجاب.

ثم لا يخفى على أحد أن كل سنة تنشأ حشرات في موسم النيل بنزول الأمطار لا يعلم هيئاتها وأصنافها إلا مبدعها جلت قدرته، وكل ذلك بلا أب ولا أم، فإن كانت الأفضلية بمراعاة ذلك، فهذه الحشرات على اختلاف أجناسها مشاركة فيها.

ولو نظرنا في نوع الإنسان، لعلمنا أن مَلْكِي صَادَق الكاهن الذي هو معاصر لإبراهيم عليه السلام كانت نشأته بلا أب ولا أم ولا نسب ولا بداية أيام له ولا نهاية حياة. كما هو مصرح بالآية 3 من الباب 7 من الرسالة العبرانية. وهذا يفوق في النشأة عن المسيح في كونه بلا أم وفي كونه بلا بداية ولا نهاية، فسبحان القادر الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون!

فظهر من ذلك أن ولادة المسيح عليه السلام بلا أب لا تكون داعيةً لنسبة الألوهية إليه، كما أنها ليست بدعًا لنسبتها لمن تولد مثله بلا أب وفاق في كونه بلا أم.

الاستدلال على ألوهية المسيح بمعجزاته

ثم إن الاستدلال على ألوهية السيد المسيح بالمعجزات وخوارق العادات، هو في غاية الضعف؛ لأن من أعظم المعجزات إحياء الموتى.

ومع قطع النظر عن البحث فيما هو وارد بالأناجيل عن ذلك، فإن الإنجيل المتعارف الآن ما شهد إلا بإحياء ثلاثة أشخاص من عند ظهور المسيح إلى زمن الصلب.

وقد ثبت أن حِزْقِيَال النبي أحيى ألوفًا من الأموات كما هو مصرح به بالباب 17 من سفر الملوك(١)، وأحيا اليسع عليه السلام ميتًا أيضًا كما هو مصرح به بالباب 4 من سفر الملوك. وكانت هي المعجزة بعد موته كما هو واضح بالباب 13 من السفر المذكور.

وأبرأ أبرصًا أيضًا، ولا يخفى على كل ذي إيمان ما لكل نبي وولي وصالح من المعجزات والكرامات التي وُهبت لهم(٢).

---

(١) نص سفر حِزْقِيَال على إحياء الموتى في «حلم الليل»:

«1 كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ فَأَخْرَجَنِي بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسَطِ الْبُقْعَةِ، وَهِيَ مَلآنَةٌ عِظَاماً. 2 وَأَمَرَّنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدّاً عَلَى وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدّاً. 3 فَقَالَ لِي: يَابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟» فَقُلْتُ: يَا سَيِّدُ الرَّبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ. 4 فَقَالَ لِي: تَنَبَّأْ عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اسْمَعِي كَلِمَةَ الرَّبِّ. 5 هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهَذِهِ الْعِظَامِ: هَئَنَذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحاً فَتَحْيُونَ. 6 وَأَضَعُ عَلَيْكُمْ عَصَباً وَأَكْسِيكُمْ لَحْماً وَأَبْسُطُ عَلَيْكُمْ جِلْداً وَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحاً فَتَحْيُونَ وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. 7 فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أُمِرْتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَنَبَّأُ كَانَ صَوْتٌ وَإِذَا رَعْشٌ فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ. 8 ونَظَرْتُ وَإِذَا بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ كَسَاهَا، وبُسِطَ الْجِلْدُ علَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَلَيْسَ فِيهَا رُوحٌ. 9 فَقَالَ لِي: تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ، تَنَبَّأْ يَابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلُمَّ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَتْلَى لِيَحْيُوا. 10 فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ، فَحَيُوا وَقَامُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدّاً جِدّاً. 11 ثُمَّ قَالَ لِي: يَابْنَ آدَمَ، هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبِسَتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدِ انْقَطَعْنَا. 12 لِذَلِكَ تَنَبَّأْ وَقُلْ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَئَنَذَا أَفْتَحُ قُبُورَكُمْ وأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي وَآتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. 13 فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَإِصْعَادِي إِيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي. 14 وأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فتَحْيُونَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ» [حزقيال 37: 1-14].

(٢) من معجزات اليسع عليه السلام الشبيهة بمعجزات المسيح هذا النص من سفر الملوك الثاني:

«1 وَصَرَخَتْ إِلَى أَلِيشَعَ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ بَنِي الأَنْبِيَاءِ قَائِلَةً: إِنَّ عَبْدَكَ زَوْجِي قَدْ مَاتَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عَبْدَكَ كَانَ يَخَافُ الرَّبَّ. فَأَتَى الْمُرَابِي لِيَأْخُذَ وَلَدَيَّ لَهُ عَبْدَيْنِ. 2 فَقَالَ لَهَا أَلِيشَعُ: مَاذَا أَصْنَعُ لَكِ؟ أَخْبِرِينِي مَاذَا لَكِ فِي الْبَيْتِ. فَقَالَتْ: لَيْسَ لِجَارِيَتِكَ شَيْءٌ فِي الْبَيْتِ إِلاَّ دُهْنَةَ زَيْتٍ. 3 فَقَالَ: اذْهَبِي اسْتَعِيرِي لِنَفْسِكِ أَوْعِيَةً مِنْ =

خَارِجٍ مِنْ عِنْدِ جَمِيعِ جِيرَانِكِ، أَوْعِيَةً فَارِغَةً. لاَ تُقَلِّلِي. 4 ثُمَّ ادْخُلِي وَأَغْلِقِي الْبَابَ عَلَى نَفْسِكِ وَعَلَى بَنِيكِ، وَصُبِّي فِي جَمِيعِ هَذِهِ الأَوْعِيَةِ، وَمَا امْتَلأَ انْقُلِيهِ. 5 فَذَهَبَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى بَنِيهَا. فَكَانُوا هُمْ يُقَدِّمُونَ لَهَا الأَوْعِيَةَ وَهِيَ تَصُبُّ. 6 وَلَمَّا امْتَلأَتِ الأَوْعِيَةُ قَالَتْ لابْنِهَا: قَدِّمْ لِي أَيْضًا وِعَاءً. فَقَالَ لَهَا: لاَ يُوجَدُ بَعْدُ وِعَاءٌ. فَوَقَفَ الزَّيْتُ. 7 فَأَتَتْ وَأَخْبَرَتْ رَجُلَ اللهِ فَقَالَ: اذْهَبِي بِيعِي الزَّيْتَ وَأَوْفِي دَيْنَكِ وَعِيشِي أَنْتِ وَبَنُوكِ بِمَا بَقِيَ. 8 وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ عَبَرَ أَلِيشَعُ إِلَى شُونَمَ. وَكَانَتْ هُنَاكَ امْرَأَةٌ عَظِيمَةٌ فَأَمْسَكَتْهُ لِيَأْكُلَ خُبْزًا. وَكَانَ كُلَّمَا عَبَرَ يَمِيلُ إِلَى هُنَاكَ لِيَأْكُلَ خُبْزًا. 9 فَقَالَتْ لِرَجُلِهَا: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْنَا دَائِمًا. 10 فَلْنَعْمَلْ عُلِّيَّةً عَلَى الْحَائِطِ صَغِيرَةً وَنَضَعْ لَهُ هُنَاكَ سَرِيرًا وَخِوَانًا وَكُرْسِيًّا وَمَنَارَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ إِلَيْنَا يَمِيلُ إِلَيْهَا. 11 وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَ إِلَى هُنَاكَ وَمَالَ إِلَى الْعُلِّيَّةِ وَاضْطَجَعَ فِيهَا. 12 فَقَالَ لِجِيحَزِي غُلاَمِهِ: ادْعُ هَذِهِ الشُّونَمِيَّةَ. فَدَعَاهَا فَوَقَفَتْ أَمَامَهُ. 13 فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهَا: هُوَذَا قَدِ انْزَعَجْتِ بِسَبَبِنَا كُلَّ هَذَا الانْزِعَاجِ، فَمَاذَا يُصْنَعُ لَكِ؟ هَلْ لَكِ مَا يُتَكَلَّمُ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ أَو إِلَى رَئِيسِ الْجَيْشِ؟ فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَنَا سَاكِنَةٌ فِي وَسَطِ شَعْبِي. 14 ثُمَّ قَالَ: فَمَاذَا يُصْنَعُ لَهَا؟ فَقَالَ جِيحَزِي: إِنَّهُ لَيْسَ لَهَا ابْنٌ وَرَجُلُهَا قَدْ شَاخَ. 15 فَقَالَ: ادْعُهَا. فَدَعَاهَا فَوَقَفَتْ فِي الْبَابِ. 16 فَقَالَ: فِي هَذَا الْمِيعَادِ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ تَحْتَضِنِينَ ابْنًا. فَقَالَتْ: لاَ يَا سَيِّدِي رَجُلَ اللهِ! لاَ تَكْذِبْ عَلَى جَارِيَتِكَ!. 17 فَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ وَوَلَدَتِ ابْنًا فِي ذَلِكَ الْمِيعَادِ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ كَمَا قَالَ لَهَا أَلِيشَعُ. 18 وَكَبِرَ الْوَلَدُ. وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَ إِلَى أَبِيهِ إِلَى الْحَصَّادِينَ. 19 وَقَالَ لأَبِيهِ: رَأْسِي رَأْسِي. فَقَالَ لِلْغُلاَمِ: احْمِلْهُ إِلَى أُمِّهِ. 20 فَحَمَلَهُ وَأَتَى بِهِ إِلَى أُمِّهِ، فَجَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهَا إِلَى الظُّهْرِ وَمَاتَ. 21 فَصَعِدَتْ وَأَضْجَعَتْهُ عَلَى سَرِيرِ رَجُلِ اللهِ وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِ وَخَرَجَتْ. 22 وَنَادَتْ رَجُلَهَا وَقَالَتْ: أَرْسِلْ لِي وَاحِدًا مِنَ الْغِلْمَانِ وَإِحْدَى الأُتُنِ فَأَجْرِيَ إِلَى رَجُلِ اللهِ وَأَرْجِعَ. 23 فَقَالَ: لِمَاذَا تَذْهَبِينَ إِلَيْهِ الْيَوْمَ؟ لاَ رَأْسُ شَهْرٍ وَلاَ سَبْتٌ. فَقَالَتْ: سَلاَمٌ. 24 وَشَدَّتْ عَلَى الأَتَانِ، وَقَالَتْ لِغُلاَمِهَا: سُقْ وَسِرْ وَلاَ تَتَعَوَّقْ لأَجْلِي فِي الرُّكُوبِ إِنْ لَمْ أَقُلْ لَكَ. 25 وَانْطَلَقَتْ حَتَّى جَاءَتْ إِلَى رَجُلِ اللهِ إِلَى جَبَلِ الْكَرْمَلِ. فَلَمَّا رَآهَا رَجُلُ اللهِ مِنْ بَعِيدٍ قَالَ لِجِيحَزِي غُلاَمِهِ: هُوَذَا تِلْكَ الشُّونَمِيَّةُ. 26 أُرْكُضِ الآنَ لِلِقَائِهَا وَقُلْ لَهَا: إسلام لَكِ؟ إسلام لِزَوْجِكِ؟ إسلام لِلْوَلَدِ؟ فَقَالَتْ: سَلاَمٌ. 27 فَلَمَّا جَاءَتْ إِلَى رَجُلِ اللهِ إِلَى الْجَبَلِ أَمْسَكَتْ رِجْلَيْهِ. فَتَقَدَّمَ جِيحَزِي لِيَدْفَعَهَا. فَقَالَ رَجُلُ اللهِ: دَعْهَا لأَنَّ نَفْسَهَا مُرَّةٌ فِيهَا وَالرَّبُّ كَتَمَ الأَمْرَ عَنِّي وَلَمْ يُخْبِرْنِي. 28 فَقَالَتْ: هَلْ طَلَبْتُ ابْنًا مِنْ سَيِّدِي؟ أَلَمْ أَقُلْ لاَ تَخْدَعْنِي؟ 29 فَقَالَ لِجِيحَزِي: أُشْدُدْ حَقَوَيْكَ وَخُذْ عُكَّازِي بِيَدِكَ وَانْطَلِقْ، وَإِذَا صَادَفْتَ أَحَدًا فَلاَ تُبَارِكْهُ، وَإِنْ بَارَكَكَ أَحَدٌ فَلاَ تُجِبْهُ. وَضَعْ عُكَّازِي عَلَى وَجْهِ الصَّبِيِّ. 30 فَقَالَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ: حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ. فَقَامَ وَتَبِعَهَا. 31 وَجَازَ جِيحَزِي قُدَّامَهُمَا

=

وحيث إن جميع المعجزات التي صنعها السيد المسيح وغيره من الأنبياء والصالحين لا ريب في أنها بقدرة الله تعالى وصُنْعِه الظاهر على أيديهم، لا بقدرتهم ولا بصنعهم، كما أخبر بذلك السيد المسيح في عدة مواضع من الأناجيل، وأظهَرُها قوله في ذلك للتلاميذ حرصًا عليهم من الشك والارتياب فيه ونسبته لغير العبودية المحضة: «لا تعجبوا من مثل هذه الأعمال التي أنا أعملها؛ لأن كلًّا منكم يعمل هذه الأعمال، بل إن من يعمل عملَ الله يعمل أعظمَ منها». وقوله: «الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا، إلا ما ينظر الآب أن يعمل». وقوله للتلاميذ

وَوَضَعَ الْعُكَّازَ عَلَى وَجْهِ الصَّبِيِّ فَلَمْ يَكُنْ صَوْتٌ وَلاَ مُصْغٍ. فَرَجَعَ لِلِقَائِهِ وَأَخْبَرَهُ قَائِلًا: لَمْ يَنْتَبِهِ الصَّبِيُّ. 32 وَدَخَلَ أَلِيشَعُ الْبَيْتَ وَإِذَا بِالصَّبِيِّ مَيْتٌ وَمُضْطَجِعٌ عَلَى سَرِيرِهِ. 33 فَدَخَلَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسَيْهِمَا كِلَيْهِمَا وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ. 34 ثُمَّ صَعِدَ وَاضْطَجَعَ فَوْقَ الصَّبِيِّ وَوَضَعَ فَمَهُ عَلَى فَمِهِ وَعَيْنَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ وَيَدَيْهِ عَلَى يَدَيْهِ، وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَسَخُنَ جَسَدُ الْوَلَدِ. 35 ثُمَّ عَادَ وَتَمَشَّى فِي الْبَيْتِ تَارَةً إِلَى هُنَا وَتَارَةً إِلَى هُنَاكَ، وَصَعِدَ وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَعَطَسَ الصَّبِيُّ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ فَتَحَ الصَّبِيُّ عَيْنَيْهِ. 36 فَدَعَا جِيحْزِي وَقَالَ: ادْعُ هَذِهِ الشُّونَمِيَّةَ فَدَعَاهَا. وَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيْهِ قَالَ: احْمِلِي ابْنَكِ. 37 فَأَتَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى رِجْلَيْهِ وَسَجَدَتْ إِلَى الأَرْضِ، ثُمَّ حَمَلَتِ ابْنَهَا وَخَرَجَتْ. ٣٨ وَرَجَعَ أَلِيشَعُ إِلَى الْجِلْجَالِ. وَكَانَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ وَكَانَ بَنُو الأَنْبِيَاءِ جُلُوسًا أَمَامَهُ. فَقَالَ لِغُلاَمِهِ: هَيِّئِ الْقِدْرَ الْكَبِيرَةَ وَاسْلُقْ سَلِيقَةً لِبَنِي الأَنْبِيَاءِ. 39 وَخَرَجَ وَاحِدٌ إِلَى الْحَقْلِ لِيَلْتَقِطَ بُقُولًا، فَوَجَدَ يَقْطِينًا بَرِّيًّا، فَالْتَقَطَ مِنْهُ قُثَّاءً بَرِّيًّا مِلْءَ ثَوْبِهِ، وَأَتَى وَقَطَّعَهُ فِي قِدْرِ السَّلِيقَةِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا. 40 وَصَبُّوا لِلْقَوْمِ لِيَأْكُلُوا. وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ مِنَ السَّلِيقَةِ صَرَخُوا: فِي الْقِدْرِ مَوْتٌ يَا رَجُلَ اللهِ! وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْكُلُوا. 41 فَقَالَ: هَاتُوا دَقِيقًا. فَأَلْقَاهُ فِي الْقِدْرِ وَقَالَ: صُبَّ لِلْقَوْمِ فَيَأْكُلُوا. فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ رَدِيءٌ فِي الْقِدْرِ. ٤٢ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَعْلِ شَلِيشَةَ وَأَحْضَرَ لِرَجُلِ اللهِ خُبْزَ بَاكُورَةٍ عِشْرِينَ رَغِيفًا مِنْ شَعِيرٍ وَسَوِيقًا فِي جِرَابِهِ. فَقَالَ: أَعْطِ الشَّعْبَ لِيَأْكُلُوا. 43 فَقَالَ خَادِمُهُ: مَاذَا؟ هَلْ أَجْعَلُ هَذَا أَمَامَ مِئَةِ رَجُلٍ! فَقَالَ: أَعْطِ الشَّعْبَ فَيَأْكُلُوا، لأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: يَأْكُلُونَ وَيَفْضُلُ عَنْهُمْ. فَجَعَلَ أَمَامَهُمْ فَأَكَلُوا، وَفَضَلَ عَنْهُمْ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ» [2 مل 4].

أيضًا: «لو كان لكم إيمانٌ قدرَ حبةِ خردلٍ، لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك. فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم».

فالقول من مثل المسيح الكامن عليه السلام بأن لا يكون شيء غير ممكن لدى من كان له حبة خردل من إيمان، هذا في غاية الوضاحة بأن ظهور المعجزات على أيدي البشر هو الدليل الأعظم على إخلاص عبوديتهم وقوة إيمانهم بوحدانية الله تعالى، ويبعد كل البعد عن الاستدلال بها على الألوهية؛ لأن السيد المسيح لم يقل ذلك إلا وهو يعلم حق العلم بأن العبد متى أخلص وتجرد عن نفسه وتوازى في حسه، كان لاهوتيًّا صرفًا مقتدرًا على خرق العادات وظهور المعجزات، كما اقتدر هو وسائر الأنبياء والصالحين عليها بخالص عبوديتهم وقوة إيمانهم عن سائر البشر.

وقد أفصح عن ذلك السيد المسيح بقوله: «من وضع نفسه مثل هذا الولد، فهو الأعظم في ملكوت السماوات». يعني: من جرد نفسه عن خصالها الشهواتية، يكون هو الأعظم عند الله. وذلك بمثابة قوله تعالى بالقرآن الكريم: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات/ 13].

فثبت بأقوال السيد المسيح أن المعجزات التي صنعها هي بقوة إيمانه وخالص عبوديته، وأنها لا تدعو لنسبة الألوهية إلى غيره. وقد برهن على ذلك السيد المسيح في عدة مواضع بالأناجيل، وأنورها قوله السابقُ ذكرُه، القاضي بأن أي عبد له قدر حبة خردل من إيمان لا يكون شيء غير ممكن لديه.

الخلق من الطين طيرا

ثم عن قول حضرتكم بأن ما ورد بالقرآن في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾... إلخ [المائدة/ 110] هو من أعظم الدلالات على ألوهية المسيح.

نفيد حضرتكم أن حقيقة الآية الشريفة القرآنية المحفوظة في صدور الأطفال والرجال والمصاحف هي هكذا: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾.

فتكرار قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِى﴾، وهو تأكيد لكون ذلك الخلق واقعًا بقدرته تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وتخليقه.

وورد في الخبر الصحيح كما نقله الحبر الخازن في تفسيره أن بني إسرائيل لما تعنتوا على السيد عيسى، طلبوا منه أن يخلق لهم طيرًا حتى يؤمنوا به، فأخذوا طينًا وصوره كهيئة الخفاش، ونفخ فيه فكان يطير بين السماء والأرض بإذن الله، ما دام الناس ينظرون إليه. فإذا غاب عن أعينهم، سقط ميتًا؛ ليتميز الفعل المنسوب للعبد مجازيًا على سبيل المعجزة عن فعل الخالق.

وحيث إن تصوير الطين كهيئة الطير وطيرانه هو شيء من القائل عنه السيد المسيح: «لا يكون شيء غير ممكن لمن عنده القليل من الإيمان». وقوة إيمانه وخالص عبوديته عليه السلام لا يجحدهما إلا القوم الخاسرون، فهو الأحرى والأولى بصنع المعجزات.

ومن تأمل في المعجزة التي وُهبت للسيد موسى عليه السلام بقلب العصا حية، وما كان لها من عظيم الأعمال؛ مثل: ابتلاعها لجميع ما فعله السحرة ومتاع الزينة، وفرار فرعون وجنوده من صولتها، وانفلاق البحر لهلاكه وقومه بضربتها، وغير ذلك من الأعمال التي لا يجهلها عارف، فلا يتعجب من طيران الهيئة التي صورها المسيح من الطين بإذن الله، مع سقوطها ميتةً عند غيابها عن أعين المكابرين.

ومع عدم التصريح من المسيح عليه السلام بكونه إلهًا أو أقنومَ الكلمةِ أو القوة الناطقية للذات أو ما يقرب من صريح ذلك، وتصريحه في جميع أقواله وأعماله الجليلة بخالص

عبوديته لمولاه، وتكرار تعريفه عن نفسه في جملة مواضع بالأناجيل بأنه رسول، وأنه لا يفعل شيئًا من نفسه، وأنه نبي؛ كقوله في إنجيل متى بالآية 57 ص 23 عند تنديدهم على أعماله: «ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته». يشير بذلك إلى نفسه.

وكان عليه الصلاة والسلام لا يرضى أن يصفه أحد بأنه صالح؛ تواضعًا منه، ويقول: «لا صالح إلا واحد وهو الله».

وبرهن كثيرًا بأن لفظة «ابن الله» هي لفظة مجازية تُطلق على سائر البشر، ومن ذلك قوله: «لا تدعوا لكم أبًا على الأرض؛ لأن أباكم واحد وهو الله، ولا تدعوا معلمين؛ لأن معلمكم المسيح»(١). وقوله: «متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات»... إلخ(٢).

وبذلك ظهر عدم الفرق في معنى البنوة التي تطلق عليه وعلى سائر البشر. والأنور من ذلك قوله: «إني صاعد لأبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»(٣). ولم يقل: أبي وإلهي بمعنى، وأبيكم وإلهكم بمعنى آخر، بل ساوى نفسه بهم في البنوة والمألوهية.

ولما كان هذا القول منه هو بعد الصلب والموت الذي يقولونه، ومعلوم أن التكليفات الجسدية تنقطع بعد الموت؛ وبذلك لا محل للقول بنسبة أقواله هذه للناسوتية المتحد بها، خصوصًا مع ما هو معلوم لكل ذي بصيرة أن الكلام ليس من خصائص الجسد كما يقال، بل هو بالقوة والإرادة الروحانية المنبعثة في الهيكل

---

(١) متى 23: 9.

(٢) لوقا 11: 1.

(٣) يوحنا 20: 17.

الجسماني باللطيفة الربانية القائم بها الحياة الإنسانية. وما الجسد إلا آلات مركبة بحكمة ربانية تحت سلطان القوة البارزة للنطق وسائر الأعمال المنسوبة للجسد.

وعلى أي حال فلا يُتصور وجودُ مانع يمنع مثل السيد المسيح عن التصريح بالحقائق الربانية والعقائد الدينية التي ما أتى عليه السلام إلا لتعريف الخلق بها، وتكليفهم بالإيمان لحدِّ الموت عليها، حتى يكونوا مثابين على اتباعها ومُدَانين على تركها، وهو من أكمل العارفين بأن الدين والتدين به لا يكون صحيحًا إلا بعد معرفة ما يجب الإيمان به من جهة الله ورسله الكرام، ولا يليق أن ينسب لكماله كتمُ الحقيقة التي عليها مدار نجاة العالم، وهو يعلم عاقبةَ الذين لا يعلمونها ولا يفرقون بين المرسِل والمرسَل وبين الإله والمألوه.

فبكل ذلك لا مسوِّغ لتعقل نسبة الألوهية إليه، لا بدلالة المعجزات ولا بدلالة ولادته بلا أب، ولا بإطلاق لفظة «ابن الله» عليه؛ لوقوع المعجزات والولادة بلا أب لغيره، وإطلاق لفظة البنوة على سائر البشر.

ومن تفطن في معنى قوله للص الذي صُلب معه كما يقال: «اليوم تكون معي في الفردوس»(١). لا يرتاب في صرافة عبوديته عنه؛ لما ثبت من أن الفردوس والجحيم هما محلان أبديان معدان لخلود الأتقياء والأشرار من العباد، تأبى الصفة الألوهية التحيز بإحداهما ويجل شأن الذات الواحدية المنزَّهة عن الدخول في معنى «في» الظرفية من قوله: «في الفردوس معي». ولكن ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا.

النطق الصحيح للقرآن

أما عن الكلمات التي أوضحتموها حضرتكم قائلين بأنها من القرآن وهي: «يا أيها المؤمنين، أنتم ليس على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل». وتستدلون بها على

---

(١) لوقا 23: 43.

عدم حصول تغيير بالكتب المذكورة، وأن النُّسخ الموجودة منها هي مثل التي كانت موجودة قديمًا.

فنقول: إن حقيقة الألفاظ الواردة بالقرآن المجيد في هذا الشأن هي: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة/ 68].

وحيث حضرتكم قبلتم ما ظننتموه قرآنًا؛ لإقامة الحجة به على صحة الكتب المذكورة، صار من مقتضيات العدل أن تقبلوه حقيقةً. ومعنى الآية الشريفة القرآنية كما هو الوارد بالتفاسير الصحيحة هو ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾... إلخ. لهؤلاء اليهود والنصارى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الدين الحق المرتضى عند الله، ولستم على شيء مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى ﷺ يا معشر اليهود، ولا مما جاءكم به عيسى يا معشر النصارى، فإنكم أحدثتم وغيرتم، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾. يعني: حتى تُقيموا أحكامها بحدودها والعمل بوفاء العهود والتصديق بمحمد ﷺ واتباع شريعته؛ لأن نعته وصفته موجودان فيهما كما في القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. يعني: القرآن؛ لأنهم مأمورون بالإيمان به والعمل بما فيه». انتهى من الخازن(١).

عصمة الأنبياء

وحيث ثبت وقوعُ الإحداث والتغيير بالكتب المذكورة بما حققه علماء الطوائف المسيحية وبشهادة القرآن المجيد، فيجب على كل مؤمن رفضُ ما تأباه عصمة وعفة

---

(١) تفسير الخازن 2/ 311.

الأنبياء والرسل الكرام مما نُسب إليهم بهذه الكتب من الزنى والقتل والسكر والكذب والارتداد عن الإيمان وعبادة الأصنام.

مثل نسبة السيد إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام للزواج بأخته ابنة أبيه، ودخول ذلك في حكم الزنى، ونسبته للكذب.

ومثل ما نُسب إلى السيد لوط ﷺ من أنه سكر حتى فقد شعوره واضطجع معه ابنتاه الاثنتين وحبلتا منه وولدت إحداهما أبا المؤآبيين، والثانية ولدت أبا العَمُّونيين، وأنه قدم ابنتيه لقومه.

ونسبة داود ﷺ للزنى والقتل، وأن الله أمر أولاده بالزنى في سراري أبيهم أمام بني إسرائيل، وحاشا أن يأمر الله بالفحشاء.

ومثل نسبة السيد يعقوب ﷺ للكذب.

ونسبة هارون الذي كلمه الله مرارًا لصنع العجل وعبادته مع بني إسرائيل.

ونسبة السيد سليمان ﷺ للردة في آخر عمره والعبادة للأصنام بترغيب الزوجات.

وأن يهوذا -الذي هو من أجداد المسيح باعتبار النسب المنسوب إليه بإنجيل متى- زنى في ثامار زوجة ابنه وحبلت وولدت زارح وفارض الملحق بهما ذلك النسب الشريف(١).

وهذا مع ما هو وارد بالتوراة من أن أولاد الزنى لا يدخلون في جماعة الله، فالعقل لا يسلم بصحته خصوصًا مع التغالي في شأن المسيح ﷺ ونسبته لدرجة الألوهية.

---

(١) المؤلف يتهكم.

ومثل أن أحد الأنبياء كذب على نبي آخر وغشَّه مع التسليم بنبوة الاثنين، على أن العصمة هي أول شرط في صدق النبوة، ولولاها لم يكن وثوق بما يأتي على أيديهم من الأوامر والنواهي والأحكام الشرعية، ولا يسلم عاقل نسبة مثل هذه الأمور الذميمة للأنبياء عليهم السلام الذين هم صفوة الرحمن من جميع خلقه، ولا نسبتها لأولادهم الذين غالبهم كان على إثر أعمال النبوة وأحكامها.

ويعزُّ على كل متدين غيور أن يسمح بقبول مثل ما نسب إلى رَأُوبَيْن ابن سيدنا يعقوب ﷺ من أنه زنى في بَلْهَة زوجة أبيه، وأن أباه علم بذلك ولم يغضب ولم ينكر على فعله. على أنه لا يليق بمقام النبوة التغاضي عن إقامة الحدود الشرعية، خصوصا في مثل هذا الأمر الفظيع بالنسبة للحمية والغيرة النبوية، وورود حكم التوراة برجم كل زانٍ وزانيةٍ مطلقًا، وقتل كاشف عورة الأم أو زوجة الأب، بل وقتل من أغضب والديه. وأي سبب يستوجب الغضب أعظم من ذلك القبيح، الذي لا يقبله أحد على نفسه، ولو كان من شرار الناس المتجاهرين بفعل الرذائل.

ومثل ما نسب إلى أمنون أحد أولاد سيدنا داود ﷺ من أنه زنى في أخته وأزال بكارتها، وكان وصوله إلى غرضه هذا بواسطة الحيلة التي دبرها إليه عمه، وأن داود ﷺ بلغه ذلك، ولم ينتقم منه، بل إنه لما قتله أبشالوم أخوه بسبب هذه الحادثة، حزن عليه أبوه كل أيام حياته.

وكل عاقل لا يسلم بأن مثل يعقوب الذي أعز الله بني إسرائيل لأجله وسماهم باسمه ونعته مرارًا بلفظ «ابني وبكري»، ومثل السيد داود ﷺ الذي هو جد المسيح يخفى عليهم الأحكام الربانية الواردة بالتوراة، القاضية بحرق ابنة الكاهن إذا تدنست بالزنى، ولا ريب في أن ابنة النبي وزوجته أجل وأشرف من ابنة الكاهن.

ومثل هؤلاء الأنبياء الغيورين على الدين لا تأخذهم الرأفة في دين الله، ولا يليق بهم السكوت على مثل هذه الشناعات؛ خصوصًا لما فيها من تدنيس واختلاط الأنساب الطاهرة، مع ملاحظتهم لاقتداء العالم بسيرهم وحسن أخلاقهم وقوة محافظتهم على حدود الله تعالى.

ومثل ما نسب لله تعالى بهذه الكتب أيضًا من الضعف والجهالة، وأنه مضل للأنبياء، وأنه يندم على ما فعل، ويتأوَّه وينقض الوعد، والعياذ بالله، حاشا أن يُخلف الله وعده.

وأنه أمر أحد الأنبياء بأن يرقد على جنبه الأيسر، وهو شاخص لا يتحرك مدة ثلاثمائة وتسعين يومًا، ويأكل فيها كعكًا بالوزن ملطخًا ببراز الإنسان. ولما استغاثه النبي المذكور من هذا الحكم وتضرع إلى الله، خففه عنه باستبداله ببراز الحيوان.

ولا يقبل العقل بأن الله تعالى يأمر أنبياءه الطاهرين بمثل هذه الأوامر، أو أنه يسلب من بعضهم النبوة ثم يردها إليهم ثانيًا، أو أنه يأمر بعضهم بزواج امرأة زانية، مع ما هو وارد بأحكام التوراة من أن الكاهن لا يتزوج إلا عذراء، والنبي طبعًا أزكى وأحرى بالتطهير والعفة من الكاهن.

ومثل ما هو منسوب بالكتب المذكورة أيضًا إلى عمران أبي موسى عليه الصلاة والسلام من أنه تزوج عمته. ومع تحريم ذلك بالتوراة ودخول مثل هذا النكاح في حكم الزنى، فيصعب على العقل أن يقبل وقوعه في نسب السيد موسى صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ؛ لما في ذلك من مس نسبه الشريف.

وكذا لا يسلِّم عاقل عنده ذرة من الإيمان جواز ما تشير به رسائل وأناجيل الكتب المذكورة من أن السيد المسيح عليه السلام صار ملعونا -والعياذ بالله- كما هو مصرح بذلك في الآية 13 من الباب 3 من رسالة بولس الحواري لأهل غلاطية هكذا:

«المسيح افتدانا من لعنة الناموس؛ إذ صار لعنةً من أجلنا؛ لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلِّق على خشبة».

وعندنا إطلاق مثل هذا اللفظ شنيع جدًّا، بل لاعن الله واجب الرجم بحكم التوراة. ورُجِم واحد على هذا الخطأ في عهد موسى عليه السلام كما هو مصرح به في الباب الرابع والعشرين من سفر الأحبار(١).

بل ولاعن الأبوين أيضًا مستوجب القتل فضلًا عن لاعن الله، كما هو مصرح به في الباب العشرين من السفر المذكور(٢).

---

(١) «وَخَرَجَ ابْنُ امْرَأَةٍ إِسْرَائِيلِيَّةٍ وَهُوَ ابْنُ رَجُلٍ مِصْرِيٍّ فِي وَسْطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَتَخَاصَمَ فِي الْمَحَلَّةِ ابْنُ الإِسْرَائِيلِيَّةِ وَرَجُلٌ إِسْرَائِيلِيٌّ. 11 فَجَدَّفَ ابْنُ الإِسْرَائِيلِيَّةِ عَلَى الاسْمِ وَسَبَّ. فَأَتَوْا بِهِ إِلَى مُوسَى. وَكَانَ اسْمُ أُمِّهِ شَلُومِيَةَ بِنْتَ دِبْرِي مِنْ سِبْطِ دَانٍ. 12 فَوَضَعُوهُ فِي الْمَحْرَسِ لِيُعْلَنَ لَهُمْ عَنْ فَمِ الرَّبِّ. ١٣ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: 14 «أَخْرِجِ الَّذِي سَبَّ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ فَيَضَعَ جَمِيعُ السَّامِعِينَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِهِ وَيَرْجُمَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ. 15 وَقُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: كُلُّ مَنْ سَبَّ إِلَهَهُ يَحْمِلُ خَطِيَّتَهُ 16 وَمَنْ جَدَّفَ عَلَى اسْمِ الرَّبِّ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. يَرْجُمُهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ رَجْمًا. الْغَرِيبُ كَالْوَطَنِيِّ عِنْدَمَا يُجَدِّفُ عَلَى الاسْمِ يُقْتَلُ. 17 وَإِذَا أَمَاتَ أَحَدٌ إِنْسَانًا فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. 18 وَمَنْ أَمَاتَ بَهِيمَةً يُعَوِّضُ عَنْهَا نَفْسًا بِنَفْسٍ. 19 وَإِذَا أَحْدَثَ إِنْسَانٌ فِي قَرِيبِهِ عَيْبًا فَكَمَا فَعَلَ كَذَلِكَ يُفْعَلُ بِهِ. 20 كَسْرٌ بِكَسْرٍ وَعَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. كَمَا أَحْدَثَ عَيْبًا فِي الإِنْسَانِ كَذَلِكَ يُحْدَثُ فِيهِ. 21 مَنْ قَتَلَ بَهِيمَةً يُعَوِّضُ عَنْهَا وَمَنْ قَتَلَ إِنْسَانًا يُقْتَلْ. 22 حُكْمٌ وَاحِدٌ يَكُونُ لَكُمْ. الْغَرِيبُ يَكُونُ كَالْوَطَنِيِّ. إِنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ». ٢٣ فَكَلَّمَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُخْرِجُوا الَّذِي سَبَّ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَيَرْجُمُوهُ بِالْحِجَارَةِ. فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى» [لاويين 24: 10-23].

(٢) «وَالنَّفْسُ الَّتِي تَلْتَفِتُ إِلَى الْجَانِّ وَإِلَى التَّوَابِعِ لِتَزْنِيَ وَرَاءَهُمْ أَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّ تِلْكَ النَّفْسِ وَأَقْطَعُهَا مِنْ شَعْبِهَا 7 فَتَتَقَدَّسُونَ وَتَكُونُونَ قِدِّيسِينَ لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ 8 وَتَحْفَظُونَ فَرَائِضِي وَتَعْمَلُونَهَا. أَنَا الرَّبُّ مُقَدِّسُكُمْ. ٩ «كُلُّ إِنْسَانٍ سَبَّ أَبَاهُ أو أُمَّهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. قَدْ سَبَّ أَبَاهُ أو أُمَّهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ. 10 وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ. 11 وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَبِيهِ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كِلاَهُمَا. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا» [لاويين 20: 6-11].

ولا بد أن كل من تفقد مثل هذه الأقوال بالكتب المذكورة وعلم تفصيلات ما نُسب لله والأنبياء والرسل الكرام من الأمور الغير اللائقة بمقام الجلال والكمال، حتمًا ينطق ببراءتهم وتخليتهم عن النقائص، كما ينصفنا على ذلك كل متدين حرِّ الأفكار، لا تَقْبل ذمتُه أن يتغاضى عن الحق أو يُخفيه.

التثليث لا يعقل

ثم فلنرجع إلى بيان ما ذكرتموه حضرتكم من عدم جواز البحث عن الحقائق الدينية بالعقل، وأن نتيجة البحث تفضي إلى الضلال والجزم بعدم وجود إله.

فنقول: إن كان الدين مستندًا إلى أساس ثابت وأصل صحيح من غير أن تلعب به أيدي أولي الغايات الدينية والأغراض السياسية وزيادة الجهلاء ما ليس فيه، وحذف ما كان واردًا به لعلة تقتضيه، وكان عبارة عن النواميس الإلهية التي أنزلت على الأنبياء والمرسلين وأمروا بتبليغ أحكامها، فهذه تزداد ثبوتًا ووضوحًا عند البحث فيها بالقوة المدركة التي أبدع الله فيها إدراك الحقائق على ما هي عليه، بل لم تخرج الأديان الصحيحة في كافة أحكامها عن موافقة العمل؛ ولذلك قال سيدنا ومولانا المصطفى ﷺ ما معناه: «كل ما يأباه العقل يأباه الشرع»[1].

---

(١) هل يقول المسيحيون بالتثليث أم يقولون بالوحدانية؟ سؤال يصعب الجواب عنه؛ إنهم يقولون: تثليث في وحدانية، ووحدانية في تثليث. ما معنى هذا الكلام؟

فإيمان المسيحيين بهذا الثالوث خلق لهم مشكلة، تلك هي محاولة التوفيق بين الوحدانية التي هي سمة الأديان السماوية والتي قالت بها التوراة بصراحة، وبين القول بعبادة الثالوث التي تعني الشرك بالله وعبادة أكثر من إلهٍ. حينئذٍ جد جدهم وجندوا جنودهم، وأعملوا عقولهم وقالوا كلامًا يحاولون أن يوفقوا به بين الوحدانية والتثليث، ولكنهم عندما قالوا ذلك لم يكونوا يَقنعون به، وصرحوا بعدم اقتناعهم أحيانًا.

ولكن على كل حال لم يكن بد من الاستمرار في القول بالتثليث، وافق العقل أو لم يوافقه.

=

لقد حاول المسلمون أن يصلوا إلى معنى التثليث عند المسيحيين، ولكن دون جدوى، بل صرح كثير من علماء المسيحيين أن هذه المسائل مسائل اعتقاد لا فَهْم. ولكن كيف هذا، هذه مسائل أساسية، وهي المدخل للدين فكيف لا تفهم؟ ولكنهم لم يجيبوا.

واتبع بعض هؤلاء العلماء التعبيرات الإنشائية التي لا توضح مقصودًا، كقول بعضهم: «المحبة السرية التي بين المسيح والله». وقول آخر: «كل ثروات الولاء والتعبد اختزنت في فكر يسوع المسيح؛ عونًا على فهم حقيقة الله».

ونحن ننقل هنا طرفًا من أقوال علماء المسيحية كاملة في عقيدتهم:

1- يقول د/ جورج بوست في قاموس الكتاب المقدس: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء». ينظر: قاموس الكتاب المقدس ص 16.

2- ويقول وليم باتون: «إذا رمنا أن نفهم طبيعة الله في المسيحية، فهناك نراه: الله الذي عاش معه يسوع في صلة وثيقة لا تنفصم عراها، صلة الابن بالأب، وكل ثروات الولاء والتعبد التي خلفها كتاب العهد القديم، كلها اختزنت في فكر يسوع المسيح عونًا لنا على فهم حقيقة الله، فهو الإله الذي تفوق قداسته كل تصورات الإنسان، عيناه أطهر من أن تريا الشر، هو خالق البشر والمسيطر على العالم، هو الأب، ويحمل هذا اللقب كل معاني العطف والمودة والحنان. ويسوع يعلن الأب لا في كلمات ينطق بها فقط، بل حياته وشخصه، وبينه وبين الأب علاقة سرية متينة الأواصر لم يستطع تلاميذه أن يتقصوا إلى مكنوناتها «أنا في الأب، والأب فيَّ»، «ومن رآني، فقد رأى الأب». فإن رُمْنَا أن نعرف طبيعة الله على قدر ما يستطيع الإنسان أن يعرف، فلا نُدْحَة عن الرجوع إلى شخص يسوع». ينظر: أديان العالم الكبرى. ترجمة: حبيب سعيد ص 104، 108.

3- ويقول القس/ بولس سباط: «يرى النصارى أن الباري تعالى جوهر واحد موصوف بصفات الكمال، وله ثلاث خواص ذاتية، كشف المسيح عنها القناع؛ وهي: الأب والابن وروح القدس. ويشيرون بالجوهر الذي يسمونه الباري ذا العقل المجرد إلى الأب، وبالجوهر نفسه الذي يسمونه ذا العقل العاقل ذاته -أي: =

العقل أصل النقل

فعُلم من هذا أن العقل هو ميزان الصدق وقسطاط الحق؛ لمعرفة ماهية الأحكام الدينية إن كانت صحيحة صادقة أم لا.

الذي يعقل ذاته- إلى الابن، وبالجوهر عينه الذي يسمونه ذا العقل المعقول من ذاته إلى روح القدس، ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه مستغنيًا عن الظرف».

4- ويقول القس/ إبراهيم سعيد في تفسير بشارة لوقا: «يليق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد بـ«ابن العلي أو ابن الله»، فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله، وإلا لقيل: ولد الله، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعًا أنهم أبناء الله، لأن نسبة المسيح لله هي غير نسبة المؤمنين عامة لله، ولم يقصد بها تفرقة في المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا الجوهر، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التي بين المسيح والله، وهي محبة متبادلة، وما المحبة التي بين الأب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها، ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذي حاز رضا الله وأطاع وصاياه، فقبل الموت؛ موت الصليب، لذلك يقول الله فيه: «هذا ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا». وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض؛ لأنه تمم إرادة الله في الفداء. ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات وفي الصفات وفي الجوهر، كما يكون بين الأب والابن الطبيعيين، فقيل عن المسيح: إنه بهاء الله ورسم جوهره، وقال هو عن نفسه: «من رآني فقد رأى الرب، أنا والأب واحد». ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شيء الذي منه وبه وله كل الأشياء، وقد يراد بها معاني كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل». ينظر: تفسير بشارة لوقا ص 69، 70.

5- واستمع إلى ما يقوله القديس/ أنسليم: «يجب أن تعتقد أولًا ما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت». فمعنى كلامه هذا القديس: الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أداه اجتهاده إلى شيء يخالف ما يلقى إليه من تعاليم، فعليك أولًا أيها المسيحي أن تمنع عقلك تمامًا من التفكير، ثم اعتقد هذه العقائد التي تسمعها في كنيستك ولا تناقشها، ثم بعد ذلك حاول إيجاد الأسباب المقنعة كي تثبت عقيدتك في عقلك، لا أن تناقشها.

ولهذا لا ترى في أحكام الديانة الإسلامية من النقل ما يأباه العقل، وإذا وُجد في كتاب من الكتب أو رُوي أحد عنها حكمًا أو خبرًا غير منطبق على العقل، فيحكم الدينُ الإسلامي برفضه ووضعه، وأنه مفترى على الشريعة الإسلامية.

ولذلك كنا -أفراد الأمة الإسلامية- مأمورين بالبحث والتدقيق بمنظار العقل عن كافة الأحكام الدينية؛ للعلم بأنه ليس في ديننا ما يخالف العقل والحكمة.

وأما عدم تجويز البحث في حقائق أحكام الديانة النصرانية، فهو ناشئ عن عدم انطباقها على قانون العقل والحكمة ودستور الطبيعة، وإلا لما كان فائدة للمنع؛ لأنه إذا أدرك العقل صدق حقيقة الديانة، ازداد المرء رسوخًا فيها وإيمانًا؛ لأنه هو الحاكم المطلق على صدق الأحكام وفسادها، وهو المدرك للخطأ والصواب فيها.

ولهذا ألف علماء الأمة الإسلامية آلاف المجلدات من الكتب في صدد البحث والمناظرة مع الحكماء والفلاسفة وغيرهم من أهل الكتاب وأهل البدع والزندقة، ولم يأنفوا في حينٍ من الأحيان ولا آنٍ من الآونة من البحث والنظر مع كائنٍ مَنْ كان في أحكام الديانة الإسلامية وإثبات صدقها وصحتها بمقياس العقل والحكمة، حينما كانت الباباوات والقسس متخذةً أحكام الديانة المسيحية سرًّا من الأسرار لا تجوزُ الإباحة به لغيرهم من الأفراد، وكان الدين لديهم عبارةً عما يأمرون به وينهون عنه، مع عدم تحويل الحق للنظر والتأمل في حقيقة أوامرهم وحكمة مناهيهم وصدق قصصهم وصحة أمثالهم.

وإذا باحثهم أحد من العلماء أو الحكماء في حقائق أحكام الديانة، حكموا عليه بالكفر والزندقة أو أمروا بقتله. وإن لم يقدروا على البطش به وألزمهم الحجة بفساد تلك العقيدة، كان آخر دعواهم وغاية جوابهم: هذا ما وجدنا عليه آباءنا.

وذلك بخلاف حال علماء الأمة الإسلامية، فإنهم لا يُؤَاخذون السائل مهما كانت نيته وعقيدته، ومهما كان بغيته وغايته، ولم يتخذوا الدين سرًّا من الأسرار المطلسمة في خزائن الصدور، بل ترى أفراد الأمة الإسلامية لا يحتاجون في أمورهم الدينية لدلالة راهب أو عالم، بل قد أمرنا الله بعد أن نعمل بما في القرآن من الأحكام أن نتبع ما يأتينا به الرسول ﷺ. قال سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر/7]. ولم يقل: خذوا دينكم عن العالم الفلاني أو الراهب الفلاني أو تقليد العالم الفلاني في أمر من الأمور أو حكم من الأحكام التي يأتي بها من قِبَل نفسه دون أصل شرعي.

بل كل مَنْ كان له إلمام باللغة العربية، وكان قادرًا على استنباط الأحكام من القرآن وأحاديث الرسول الصحيحة، لا يحتاج في معرفة دينه لإرشاد حَبْرٍ أو قسيسٍ أو عالم، كما هو معلوم من حال الأئمة المجتهدين.

ثم لا يخفى أن الإنسان لا يمتاز عن الحيوان إلا بالعقل، ولا يمكنه إدراك الحقائق أيًّا كانت والعلم بها إلا بالعقل، وقد كانت الأحكام الدينية من الأوامر والمناهي وغير ذلك من أحكام التكاليف الشرعية منوطة بالعقل، فلا يكلف غير العاقل بأمرٍ من الأوامر، ولا يؤاخذ بارتكاب نهي من المناهي إلا إذا كان عاقلًا. وحيث كان العقل مدار التكليف في الأحكام، فقيل: إذا أخذ ما وهب، أسقط ما وجب.

وإذا تأملنا في حكمة جعل العقل سببًا للتكليف، علمنا أنه الواسطة الوحيدة والسبب الأصلي في إدراك الحقائق الدينية والمعاني الدينية، ولا يقوم الدين إلا به، كما لا يعقل وجود ذات واجب الوجود وخالق كل موجود إلا بالعقل؛ إذ به يستدل المرء على وجود الخالق بوجود المخلوقات ولزوم الصانع بمشاهدة المصنوعات، وهو

المدرك لضرورة حكم التوحيد ووجوب الوحدانية؛ حفظًا لنظام العالم ومنعًا للفساد، وهو الموقن بأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

فعلم من هذا أنه لا يمكن التدين بدينٍ وإدراك حقيقة الأديان وامتثال أوامرها واجتناب مناهيها، والإقرار بالوحدانية ونفي الشرك والعلم بوجود الصانع، إلا بالعقل.

لزوم بقاء المرء على دينه

ثم إذا أتينا للبحث فيما استحلتموه حضرتكم من قول القائل بلزوم بقاء المرء على الدين الذي يُولد فيه.

نقول: هذا إن كان المرء قد أيقن بصحة دين أبيه بحسب عقله وإدراكه، ولكن إذا تبين له فسادُ عقيدة آبائه بالصورة التي يأبى عقلُه قبولَها والقولَ بها، ولم يستطع علماءُ طائفته إزالةَ الشبهات التي طرأت على عقله بشأن فساد عقيدة آبائه؛ فليس من العدل إكراهه جبرًا على التسليم بما لا يقبله عقله؛ إذ لا فائدة في الجبر والإكراه[1].

---

(١) في كتاب التوراة: أن الخير والشر من الله نفسه، وأن جميع المصائب التي تحدث في المدن هي من فعل الله نفسه. ففي سفر عاموس: «هَلْ تَحْدُثُ بَلِيَّةٌ فِي مَدِينَةٍ وَالرَّبُّ لَمْ يَصْنَعْهَا؟» [عا 3: 6]. وفي سفر إِشَعْيَاء: «مُصَوِّرُ النُّورِ وَخَالِقُ الظُّلْمَةِ صَانِعُ السَّلاَمِ وَخَالِقُ الشَّرِّ. أَنَا الرَّبُّ صَانِعُ كُلِّ هَذِهِ» [إش 45: 7]. وهذا هو مذهب الجبر بعينه.

تفسير المسيح لمعنى: «الله خالق كل شيء»:

قال المسيح ما معناه: إن الله هو الخالق للشجرة، والغصن منها قد يصنعه الصانع الماهر عصًا للتوكؤ عليها، وهذه صنعة حسنة. وقد يصنعه الصانع تمثالًا ليعبده الناس من دون الله، وهذه صنعة رديئة. فالله هو الخالق، والإنسان هو الذي أفسد خلق الله. فإذا قلت: إن الشجرة من خلق الله، فالكلام صحيح. وإذا قلت: العصا من خلق الله، فالكلام صحيح؛ لأن مادة العصا الأصلية من خلق الله. وإذا قلت: إن التمثال من خلق الله، فالكلام صحيح؛ لأن الشجرة من خلق الله. وهذا هو معنى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

=

[الصافات/ 96]. أي خلقكم وخلق عملكم؛ إذ الصانع من خلق الله، والشجرة من خلق الله، وكل ما في العالم من الله وحده.

وعلى هذا المعنى قال عاموس: إن الشر من الله والخير من الله؛ لئلا يظن إنسان أن الله لا يصنع شرًّا، وإنما يصنعه إله آخر. فلكي ينفي من أذهان الناس أنه لا يوجد إله آخر؛ نسب الشر إلى نفسه باعتبار أنه الخالق للعالم وما فيه.

ففي إنجيل بَرْنَابا:

«أجاب فيلبُّس: ولكن كيف يجب فهم قول النبي عاموس: «أنه لا يوجد شر في المدينة لم يصنعه الله؟» أجاب يسوع: انظر يا فيلبس ما أشد خطر الاعتماد على الحرف كما يفعل الفريسيون الذين قد انتحلوا لأنفسهم اصطفاء الله للمختارين على طريقة يستنتجون منها فعلًا أن الله غير بار، وأنه مخادع وكاذب ومبغض للدينونة التي ستحل بهم؛ لذلك أقول: إن عاموس نبي الله يتكلم هنا عن الشر الذي يسميه العالم شرًّا؛ لأنه لو استعمل لغة الأبرار لما فهمه العالم؛ لأن كل البلايا حسنة: إما حسنة لأنها تُظهر الشر الذي فعلناه، وإما حسنة لأنها تمنعنا عن ارتكاب الشر، وإما حسنة لأنها تعرِّف الإنسان حال هذه الحياة؛ لكي نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية.

فلو قال النبي عاموس: ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه، لكان ذلك وسيلةً لقنوط المصابين متى رأوا أنفسهم في المحن والخطأة في سعة من العيش، وأنكى من ذلك أنه متى صدق كثيرون أن للشيطان سلطةً على الإنسان، خافوا الشيطان وخدموه؛ تخلصًا من البلايا. فلذلك فعل عاموس ما يفعله الترجمان الروماني الذي لا ينظر في كلامه كأنه يتكلم في حضرة رئيس الكهنة، بل ينظر إلى إرادة ومصلحة اليهودي الذي لا يعرف التكلم باللسان العبراني.

لو قال عاموس: ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه، لكان -لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته- قد ارتكب خطأً فاحشًا؛ لأن العالم لا يرى خيرًا سوى الظلم والخطايا التي تُصنع في سبيل الباطل، وعليه يكون الناس أشد توغلًا في الإثم؛ لأنهم يعتقدون أنه لا توجد خطيئة أو شر لم يصنعه الله، وهو أمر تتزلزل لسماعه الأرض.

وبعد أن قال يسوع هذا حصل تَوًّا زلزالٌ عظيمٌ إلى حد سقط معه كل أحد كأنه ميت، فأنهضهم يسوع قائلًا: انظروا الآن إذا كنتُ قد قلتُ لكم الحق فليكفكم هذا إذن، إنه لما قال عاموس: إن الله صنع شرًّا في المدينة مكلمًا العالم؛ فهو إنما تكلم عن البلايا التي لا يسميها شرًّا إلا الخطأة.

=

ولنأتِ الآن على ذكر سبق الاصطفاء الذي تريدون أن تعرفوه، والذي سأكلمكم عنه غدًا على مقربة من الأردنِّ على الجانب الآخر، إن شاء الله.

وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردنّ، فلما انقضت صلاة الظهيرة جلس بجانب نخلة، وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة. حينئذٍ قال يسوع: أيها الإخوة، إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى أني أقول لكم الحق: إنه لا يعلمه جليًّا إلا إنسان واحد فقط، وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجليًا، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم؛ لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة بلى، إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية، هكذا تقي رحمةُ الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان.

أجاب التلاميذ: يا معلم، من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟

أجاب يسوع بابتهاجِ قلبٍ: إنه محمد رسول الله، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعةً للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطرُ الأرضَ تعطي ثمرًا بعد انقطاع المطر زمنًا طويلًا، فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله، وهي رحمة ينثرها الله رذاذًا على المؤمنين كالغيث.

إني أشرح لكم الآن ذلك النَّزْرَ القليل الذي وهبني الله معرفته بشأن سبق هذا الاصطفاء نفسه:

يزعم الفرِّيسيون أن كل شيء قُدِّر على طريقةٍ لا يمكن معها لمن كان مختارًا أن يصير منبوذًا، ومن كان منبوذًا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختار، وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذي يسير فيه المختارون إلى الخلاص، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هي الطريق الذي يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك، لُعِن اللسان الذي نطق بهذا، واليد التي سطرته؛ لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان، فيمكن للمرء على هذا أن يعرف شاكلة فَرِّيسي هذا العصر؛ لأنهم خدمة الشيطان الأمناء، فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة تجعل للشيء غاية؟ ووسيلةُ الوصول إليها في يد المرء، فإنه بدون وسيلة لا يمكن لأحد تعيين غاية، فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط، بل يعوزه موطئ القدم من الأرض؟ لا أحد ألبتة.

فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأَوْلى إذا استلزم سلب حرية الإرادة التي وهبها الله للإنسان بمحض جوده، فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين في إثبات مكرهة لا سبق اصطفاء.

أما كون الإنسان حرًّا فواضح من كتاب موسى؛ لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا: «ليست وصيتي في السماء لكي تتخذ لك عذرًا قائلًا: من يذهب ليحضر لنا وصية الله؟ ومن يا تُرَى يعطينا قوةً لنحفظها؟ ولا هي وراء البحر لكي تَعِدَ نفسك كما تتقدم، بل وصيتي قريبة من قلبك حتى

=

أنك تحفظها متى شئتَ».

قولوا لي: لو أمر هيرودس شيخًا أن يعود يافعًا، ومريضًا أن يعود صحيحًا. ثم إذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما، أفيكون هذا عدلا؟

أجاب التلاميذ: لو أمر هيرودس بهذا، لكان أعظم ظالم وكافر.

حينئذٍ تنهَّد يسوع وقال: أيها الإخوة، ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية؛ لأنه بقولهما إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختارًا؛ يجدفون على الله كأنه طاغ وظالم؛ لأنه يأمر الخاطئ ألا يخطئ، وإذا أخطأ أن يتوب. على أن هذا القدر ينزع من الخاطئ القدرة على ترك الخطيئة فيسلبه التوبة بالمرة.

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يُوئِيل النبي: «لعمري يقول إلهكم: لا أريد موت الخاطئ، بل أود أن يتحول إلى التوبة». أيقدر الله إذن ما لا يريده؟ تأملوا ما يقول الله وما يقول فريسيو الزمن الحاضر.

يقول الله أيضًا على لسان النبي إِشَعْيَاء: «دعوت فلم تُصغوا إليَّ». وما أكثر ما دعا الله.

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبي نفسه: «بسطت يدي طول النهار إلى شعب لا يصدقني، بل يناقضني».

فإذا قال فريسيونا: إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارًا، فهل يقولون سوى أن الله يستهزئ بالبشر كما لو استهزأ بأعمى يُريه شيئًا أبيض، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه في أذنيه؟

أما كون المختار يمكن أن ينبذ: فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حِزْقِيَال النبي: «يقول الله: لعمري، إذا رجع البار عن بِرِّه وارتكب الفواحش، فإنه يهلك ولا أذكر فيها بعد شيئًا من بِرِّهِ؛ فإن بِرَّهُ سيخذله أمامي فلا ينجيه، وهو متكل عليه».

أما نداء المنبوذين: فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا؟ «إني أدعو شعبًا غير مختار فأدعوهم مختارين». إن الله صادق ولا يقدر أن يكذب، وإن الله لما كان هو الحق، فهو يقول الحق، ولكن فريسي الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم.

أجاب أندراوس: ولكن كيف يجب أن يفهم ما قال الله لموسى من أنه «يرحم من يرحم، ويقسي من يُقَسِّي؟».

أجاب يسوع: إنما يقول الله هذا؛ لكيلا يعتقد الإنسان أنه خَلُصَ بفضيلته، بل ليدرك أن الحياة ورحمة الله قد منحهما له الله من جوده ويقوله ليتجنب البشر الذهاب إلى أنه توجد آلهة أخرى سواه، فإذا هو قَسَّي فرعون، فإنما فعله لأنه نكَّل بشعبنا، وحاول أن يبغي عليه بإبادة كل الأطفال الذكور من إسرائيل، حتى كاد موسى يخسر حياته.

وعليه أقول لكم: حقًّا إن أساس القدر إنما هو شريعة الله وحرية الإرادة البشرية، بل لو قدر الله أن يخلص

=

وإذا اضطر إلى السكوت موافقةً وإرضاءً لخواطر طائفته، فيكون مدلِّسًا ومنافقًا، وذلك من الكبائر التي يأباها الشرع، ويمجها ذوو الصدق والمروءة من أولى الطباع السليمة.

العالم كله حتى لا يهلك أحد، لما أراد أن يفعل ذلك لكيلا يجرد الإنسان من الحرية التي يحفظها له؛ ليكيد الشيطان حتى يكون لهذه الطينة التي امتهنها الروح وإن أخطأت كما فعل الروح قدرة على التوبة والذهاب للسكن في ذلك الموضع الذي طُرد منه الروح.

فأقول: إن إلهنا يريد أن تتبع رحمتُه حرية إرادة الإنسان، ولا يريد أن تترك قدرته غير المتناهية المخلوق، وهكذا لا يقدر أحد في يوم الدين أن يعتذر عن خطاياه؛ لأنه يتضح له حينئذٍ كم فعل الله لتجديده، وكم وكم قد دعاه إلى التوبة.

وعليه فإذا كانت أفكاركم لا تطمئن لهذا، وددتم أن تقولوا أيضا: لماذا هكذا؟

فإني أوضح لكم لماذا؟ وهو هذا: قولوا لي: لماذا لا يمكن للحجر أن يستقر على سطح الماء، مع أن الأرض برمتها مستقرة على سطح الماء؟ قولوا لي: لماذا كان التراب والهواء والماء والنار متحدين بالإنسان ومحفوظين على وفاق؟ مع أن الماء يطفئ النار، والتراب يهرب من الهواء حتى أنه لا يقدر أحد أن يؤلف بينهما.

فإذا كنتم إذن لا تفقهون هذا، بل إن كل البشر من حيث هم بشر لا يقدرون أن يفقهوه، فكيف يفقهون أن الله خلق الكون من لا شيء بكلمة واحدة؟ كيف يفقهون أزلية الله؟

حقًّا لا يُتاح لهم أبدًا أن يفقهوا هذا؛ لأنه لما كان الإنسان محدودًا ويدخل في تركيبه الجسد الذي هو كما يقول النبي سليمان: «قابل للفساد بضغط النفس». ولما كانت أعمال الله مناسبة لله، فكيف يمكن للإنسان إدراكها؟ فلما رأى إِشَعْيَاء نبي الله هذا صرخ قائلًا: «حقًّا إنك لإله محتجب». ويقول عن رسول الله كيف خلقه الله؟: «أما جيله فمن يصفه؟» ويقول عن عمل الله: «من كان مشيره فيه عنده؟» لذلك يقول الله عن الطبيعة البشرية: «كما تعلو السماء عن الأرض، هكذا تعلو طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم».

لذلك أقول لكم: إن كيفية القدر غير واضحة للإنسان، وإن كان ثبوته حقيقيًّا. كما قلت لكم: أفيجب إذن على الإنسان أن ينكر الواقع؛ لأنه لا يقدر أن يعرف كيفيته؟ حقًّا إني لم أجد أحدًا يرفض الصحة وإن لم يمكن إدراك كيفيتها؛ لأني لا أدري حتى الآن كيف يشفي الله المرضى بواسطة لمسي» [برنابا 161+].

ولهذا كان شرط الإيمان: الإقرار باللسان والتصديق بالجنان. ولما كان العقل مناط التكليف -كما أوضحنا-، فلا فائدة في تكليف المرء بما لا يدركه عقله، بل يعقل فساده ويعتقد ضده.

وحيث كانت الهداية الأزلية مقدرة ومقسومة من عالم الأزل في علم الله لمن يشاء من عباده وليست موروثة، كما أن الشرع يأبى مؤاخذة الآباء بما فعلت الأبناء وبالعكس؛ لقول الله تعالى بالقرآن المجيد: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام/ 164]، وقوله ﷻ: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور/ 21]، وقوله بالتوراة في الآية 20 من الباب 8 لِحزْقِيَال النبي: «النفس التي تخطئ فهي تموت، والابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن، وعدل العادل يكون له، وشر الشرير يقع عليه». فلا يمكننا إلزام الولد بعقيدة آبائه إن لم يعتقد صحتها، ولا بتقليد أعماله إن لم يَرَ حسنها.

ولو قبلنا تعميم أحكام القاعدة التي ذكرتموها حضرتكم، للزم من ذلك أن نستقبح مخالفة الأنبياء لآبائهم وعدم اتباع المسيح ﷺ لليهود الذين ولد هو بين ظهرانيهم، وهم يزعمون أنهم من أهل الكتاب.

فعُلم من هذا أن الدين ليس بمالٍ موروث من الآباء، بل ما كان متعلقًا منه بالعقائد فمداره العقل، وما كان متعلقًا منه بالأعمال فمداره على أعضاء كل إنسان وجوارحه بشخصه ونفسه لا يشاركه أحد فيها. ولذلك كانت عقيدة زيد لا تنفع بنه، وكذلك عقيدة عمرو لا تضر أباه، وكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

فنتج من هذا أنه لا محل لاستحسان بقاء المرء على دين آبائه مع اعتقاد بطلانه، ولا لإلزامه بقبول عقائدهم مع إدراكه فسادها.

ثم إذا نظرنا إلى عدم المساواة بين أفراد العباد من جهة الفقر والغنى والنعيم والشقاء والشدة والرخاء، تتمثل لنا الحكمة الربانية والقدرة الصمدانية في ذلك؛ إذ كانت العلة الغائية من خلقه الأكوان معرفة الله تعالى، ولا يدوم الكون إلا بدوام العالم، ولا يدوم العالم إلا بالنظام. فلو جعل الله الغنى عامًّا في كافة الخلق، لاستغنى الناس عن السعي والعمل، وقد فسد نظام الكون وطغى الناس وعثوا في الأرض، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى/ 27]. فقد اقتضت الحكمة الأزلية جعلَ الناس صنوفًا: منهم الغني ومنهم الفقير، وحفظ بينهم نسبة المساواة باحتياج الفقير للغني من جهة المال، واحتياج الغني للفقير من جهة الأعمال. ولولا الفقر لما كابد المزارع آلام الحرث، ولولا الفقر ما قاسى الحداد شرار النار، ولولا الفاقة لما كدَّ ذو كدٍّ ولا اجتهد ذو حرفة في عمل من الأعمال.

ولأن الفقر والغنى من عوارض البشر؛ فإنهما ليسا ممتنعين عن كل شخص. فكم من غني يمسي فقيرًا، وكم من فقير يصبح غنيًّا، وإنا لا نجد قوة مادية تمنع الفقير من الغنى، ولا تحفظ الغني من الفقر.

وكما أن الغني من شأنه الفقر، كذلك الفقير من شأنه الغنى. كل ذلك وإن كان معلومًا ومقدرًا في الأزل، إلا أن المرء لا يعلم ما قُدِّر له وعليه، وقد أمر بالسعي والعمل كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك/ 15].

ولقد حثت كل الأديان على السعي والعمل والكسب وطلب الرزق والمعيشة، وما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث لا يخفى على من له إلمام بأحكام الشريعة المطهرة الإسلامية.

ثم إن أسباب الفقر والغنى معلومة لدى كل إنسان، فمن قَصَّر في شيء من ذلك، فعليه وزره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت/ 46].

ولو فرضنا أن الفقر والغنى مقسومان ومقدران في الأزل وموهوبان من خزائن غيب الله لمن يشاء من عباده، فيلزم العبد أن يشكر الله تعالى على كلا الحالين، ويعلم أن ما اختاره الله له من أحد الحالين هو محض الخير في حقه، إذ كم من غني قاده غناه إلى التهلكة، وكم من فقير صانه فقره عنها!

وكما أن الغنى والفقر هما عارضان تتداولهما أيدي البشر، فإنه لا فرق بين الفقير والغني عند الله ﷻ، بل إن أكرم العباد عند الله أتقاهم.

ثم إذا كان الإنسان مؤمنًا متدينًا، يرضى بما قسم الله له وقدَّره عليه ويشكر الله في حالة السراء والضراء والفقر والغنى.

ثم إن الفقر ينقسم إلى قسمين:

- قسم منه لم يكن عن حرمان أصلي ولا عجز عملي، بل منشؤه الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة؛ كترجيح الرسل والأنبياء عليهم السلام والأولياء والصلحاء الفقر على الغنى، مع قدرتهم على الإثراء، وذلك رغبة منهم في النعيم الأزلي الجزيل عن متاع الحياة الدنيوية القليل، وزهدًا في زخرفها، وعلمًا منهم بأن كلًّا من نعيم الدنيا إلى زوال، والإقبال على الله تعالى خير من الإقبال على جمع المال.

- وأما الفقر الاضطراري الذي تبتلى به العامة، فما كان منه بالقضاء والقدر، فله الأجر والعوض على الله تعالى. وما كان بالعجز والكسل، فعليه الوزر، وأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عافاه.

والواجب على كل مؤمن في كل حال الشكرُ لله الملك المتعال، هذا ما هو من شأن العباد المؤمنين وما ينبغي لهم.

وأما من لم يتدين بدينٍ ويرى الخير والشر والغنى والفقر رأسَ مالِه ونتيجةَ أعمالِه؛ فليس له حق الشكوى من الله؛ إذ هو المسئول عمَّا جنت يداه، وعلى التقديرين لا محل للاعتراض.

والمطالعة التي أردتموها حضرتكم بشأن نسبة عدم العدل للملك العادل، فإن الملك العادل هو الذي لا يُسئل عما يفعل، جل جلالُه وعَمَّ نوالُه وتعالى سلطانه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

هذا ما لاح الآن بالفكر القاصر والذهن الفاتر من السانحات، في شأن ما أوردتموه حضرتكم من عقائد الطائفة المسيحية، والله الهادي إلى سواء السبيل، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة وهداهم جميعًا، ولكن الله يهدى من يشاء من عباده، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له، والسلام على من اتبع الهدى.

أيوب صبري

تَمَّ الْكِتَابُ بِعَوْنِ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة